مصطفى كمال

البابا

المثل الاعلى

تأليف : الكاتب الالماني الاشهر

داجوبرت فون ميكوش

وتعريب : كامل ص . مسيحه

وحقوق الطبع محفوظة له

مطبعة الوفاء بيروت

نشرته ادارة المكتبة الاهلية — في بيروت

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م

مقدمة المعرب

لا ريب ان الناس على اختلاف درجاتهم واذواقهم ، متفقون في الميل الى دراسة تاريخ العظماء الافذاذ ، وتفهم اسرار عظمتهم ، والمناهج التي سلكوها لبلوغ اهدافهم السامية

ولا ريب ايضاً ان الغازي مصطفى كمال سيد تركيا اليوم ، هو من الشخصيات العظيمة المحبوبة التي شغلت أفكار المؤلفين واثارت اهتمامهم لدراستها . وكان أدباء أوربا أكثرهم عناية بترجمة الغازي وتصفح سيرته الحافلة

وأشهر الكاتبين عن رئيس جمهورية تركيا هو الكاتب الالماني الاشهر :

داجوبرت فون ميكوش

وان هذا المؤلَّف انما هو تاريخ كامل للمجدد التركي ، الذي قضى الشطر الاكبر من حياته بعيداً عن الشهرة ، والذي قذفت به الظروف الخاصة التي جابهها — عندما بلغ مرتبة ضابط — الى القيام في وجه تركيا القديمة ... تركيا المضطربة المتداعية الاركان ... تركيا التي كان يهددها الاندثار والموت ! ....

يحاول المؤلف الالماني البارع ان يريك كيف استغل مصطفى

كمال مركزه في قلب الاسرة التركية المالكة العريقة في القدم ، بمهارته السياسية الفذة ، وكيف اكتسح الاجانب من البلاد وطردهم منها ، و كيف قضى على كثير من العادات الاجتماعية والدينية بقسوة غير مألوفة ، محاولاً تأسيس دولة قومية تتمشى مع المدنية الاوربية على انقاض الدولة التركية المتهدمة

و كيف ساعدته مواهبه الخارقة على وضع نفسه ، وهو في السادسة والثلاثين من عمره ، على رأس الجيش الامبراطوري ! ..

وقد ترك المؤلف الحقائق تتحدث عن نفسها ، مقتصراً على سردها فقط ، بحيث تنكشف شخصية مصطفى كمال وتتجلى في ابهى مجاليها ، وهذه هي الطريقة المثلى التي يجدر بنا ان نتبعها عند وضع سيرة رجل لا يزال من المعاصرين .

وقد نجح المؤلف في تصوير مصطفى كمال تصويراً بديعاً وان كان قد كتب عنه قبل ان ينقضي الوقت الكافي . وانه وان كانت رسالة مصطفى كمال قد تمت الى حد بعيد ، فليس في مقدورنا ان نتنبأ عن نتائج المجهودات التي بذلها هذا المصلح العظيم ، وان الاجيال المقبلة هي التي تستطيع ان تفهم علاقة هذه النتائج ، بالتطور الذي حدث في تاريخ العالم ...

وعندئذ يصبح في مقدور المؤرخ ان يقدر مصطفى كمال قدره معتمداً على مرئيات الماضي ...

وان الشرق القديم الذي كثيراً ما لعب دوراً نهائياً ، باتاً في الشؤون الاوربية خلال القرن التاسع عشر ، ومستهل القرن العشرين قد توارى عن العيان ، وحل محله الشرق الحديث الذي صبغه مصطفى كمال صبغة جديدة ، ختم به عصراً قديماً ، وافتتح به عصراً جديداً

وكان من نتائج انتشار العلوم العصرية ، وزيادة الاتصال بين اوربا وآسيا ، ان اخذت تزداد كل منهما تقرباً من الاخرى

ويفهم الاوربيون في ايامنا الحاضرة ومن تلقاء انفسهم الشرق فهماً اقرب الى روح الشرق الصحيحة منه في اي وقت آخر

وان هذا المؤلف الذي نعني بتعريبه ونشره . انما هو انموذج للروح الطيبة التي يظهرها الكتاب العصريون العاطفون عطفاً اكيداً على الشرق والشرقيين ، وهو في ذات الوقت تحليل بديع لها ، وحقائق تاريخية عصرية يجهلها السواد الاعظم من القراء

وقد اعتمد المؤلف الالماني على وثائق عديدة انكليزية وفرنسية وايطالية وتركية ، كما انه ترجم مذكرات مصطفى كمال ذاتها ، وقد اعتمد على المعلومات الكثيرة التي جمعها من اصدقائه الاتراك ، فجاء كتابه تحفة تاريخية نادرة ، ومثلاً اعلى للكتابة بامانة واخلاص عن سير الرجال العظماء

١
مصطفى كمال في المدرسة

كتب مصطفى كمال في مذكراته ما تعريبه :

« اتذكر حادثاً واحداً من حوادث طفولتي الاولى ، ولكنه لن يغيب عن ذاكرتي، فقد انطبع فيها وترك اثراً لا يمحى ولا يندثر

كان ذلك الحادث يتعلق بدخولي المدرسة ، وكان ابي وامي يختلفان رأياً في المعهد العلمي الواجب ان اتلقى دروسي فيه

كانت امي شديدة التمسك بالعادات والتقاليد التي نشأت عليها وكان من اشق الامور عليها ان تتجرد عنها وتتخلى ، وكانت امرأة ورعة تميل بفطرتها الى الحياة الهادئة الساكنة ، ولم يكن في طاقة احد ان يزعزعها عن عقيدتها ، التي اصبحت جزءاً من كيانها وروحها

وكان كل ما تتمناه ان ترى ابنها تلميذاً في مدرسة دينية تعنى بالعقائد الاسلامية

ومما لا ريب فيه ان اهتمام امي بهذا الحادث الى هذا الحد ، انما كان يعزى الى اعتقادها بان دخول مدرسة من هذا النوع كان يعني ابتداء حياة جديدة ، والقيام بفروض دينية خطيرة ، فكان يفهم التلميذ ان يوم دخوله المدرسة يختلف عن سائر ايامه كل الاختلاف

فيأخذ في التطهر واظهار الورع، ويشعر انه قد خرج عن الحلقة العائلية لينضم الى جماعة المؤمنين ، الذين يخضعون لواجبات الدين خضوعاً تاماً

اما ابي فكان على النقيض رجلاً حر الفكر ، يقاوم رجال الدين ويؤيد الافكار التي كانت تتسرب من الغرب ويتشبث بها ، فكانت امنيته ان يجدني في عداد تلاميذ مدرسة « عالمية » دنيوية لا « دينية » ... وكان الظفر في النهاية لابي ، وهو لم ينجح الا بعد ان استعان بحيلة لطيفة . اجل ... تظاهر في بادئ الامر بالاذعان لرغبات امي ، ووافق على ارسالي الى مدرسة السيدة « فاطمة مولا » التي كانت من المدارس الدينية المشهورة في ذلك الحين

واستيقظت امي صبيحة اليوم المعين لارسالي للمدرسة والدنيا لا تسعها من فرط حبورها فقدمت لي ثيابا بيضاء ، ووشاحاً مقصباً بالذهب ، واحكمت تكوير العمامة فوق رأسي ، ووضعت في يدي عصا صغيرة مذهبة

ولا نطيل على القارئ ... وصل الشيخ « الخوجه » تحف به شرذمة من طلابه فصلى وتضرع ، وتقدمت اقبل يده في خشوع ، ثم قبلت ايدي ابي وامي وسط هتاف رفقائي الجدد ، وخرجنا جميعاً نطوف الشوارع في موكب حافل ، تخلله الانشراح والسرور ، حتى وصلنا الى المدرسة التي كانت متصلة بمسجد ملاصقة له

ثم اشتركنا في الصلاة ، وامسك « الخوجه » بيدي وادخلني الى غرفة عارية مقببة ، واخذ يفيض في شرح آيات من القرآن الكريم

وبعد ستة شهور على وجه التقريب اخرجني ابي من مدرسة السيدة فاطمة هذه ، في غير جلبة او صوضاء ، وسلمني الى معلم متقدم في السن اسمه — شمسي افندي — كان يدير مدرسة ابتدائية تسير على منهاج اوربي ، ولم تمانع امي في قضية خروجي ، فكان كل ما تشتهيه ان ترى حفلة ارسال ابنها الى المدرسة ! ..

والواقع انه كان لتلك الحفله اهمية كالاهمية التي لحفلة « عمادة » الصغار عند المسيحيين »

وليس من الغريب ان نعلم ان تلك الحفلة قد تركت في نفس الصبي « مصطفى » الذي ولد في سنة ١٨٨٠ والذي لم يكن قد تجاوز السابعة من عمره تأثيراً لا ينسى

وشاهد الصبي صراعاً قوياً بين « القديم » و « الحديث » .. هذا الصراع الذي كانت الغلبة فيه للجديد على القديم ... ولم تكن الغلبة في هذا الحادث وحده ، بل في كل الحوادث التالية الكثيرة

***

ومن المحقق ان اسس الامبراطورية العثمانية القديمة كانت لا تظهر مزعزعة حتى ذلك الحين ، وكان السواد الاكبر من الاتراك لا يقلبون

ورعاً عن ام مصطفى ، وكانوا يرون « البادشاه » السلطان انه ظل الله على الارض » وكانوا يصبرون على ما يلاقون من ضيم وشقاء اعتقاداً منهم بفساد هذه الحياة الارضية واختلال انظمتها ، و كانوا ينتظرون الكمال في الجنة ، ويترقبون الانصاف في العالم الثاني

كان الاتراك لا يسمحون للمسيحيين واليهود بالخدمة في الجيش فانصرف هؤلاء الى التجارة وقد نالوا منها الثراء المطلوب

واذا كانت الضرائب على الاهلين في ذلك الحين جائرة فادحة فقد كان الاتراك لا يعدمون آلاف الطرق لتجنب دفعها والافلات من عبئها

و كان الاجنبي يتمتع بكثير من الامتيازات ، وفي وسعه ان يجني الارباح الطائلة ، ولكنه كان في الوقت عينه يفعم خزانة الدولة بالمال ، ومع هذا فقد جلب مع الثروة القلق الاوربي ! . . . فبعد ان كان الاتراك يعيشون في هدوء نسبي ، اذا بالمدنية الاوربية قد غمرتهم باتعابها ومنغصاتها

٣

السلطان عبد الحميد

وفي ذلك الحين سنة ١٨٨٧ كان السلطان عبد الحميد هو الجالس على عرش الخلافة ، اذ تدخل رجال الدين في شؤون الدولة ، وادعوا ان لهم الحق المطلق في التكلم بلسان الشعب ، وخلعوا عمه السلطان عبد العزيز

ولم تكن قوى السلطان عبد العزيز العقلية منتظمة ، بل دفعه الغرور والخبل ان يرفع نفسه الى مقام الآلهة !٠٠

و بعد ان خلع عن العرش وجد في فراشه ميتاً ، وقيل انه قد قطع احد شرايينه

وفحص عدد من الاطباء الجثة وأكدوا انه انتحر . ولكن عامة الشعب لم يصدقوا قرار الاطباء هذا ، وكان لهم في هذه القضية رأي آخر

اما خلفه السلطان مراد الخامس فلم يكن اسعد حظاً ، فالحكم كان في ايدي وزرائه ، وقد اغتيل اثنان منهم اغتيالاً فظيعاً في اثناء انعقاد مجلس الوزراء انتقاماً منهما لانهما كانا ممن تآمروا على عبد العزيز

ونشبت الفتنة في الولايات الاوربية ، وقامت المجازر بين

المسلمين والمسيحيين ، واخذت اساطيل الدول الكبرى تتوافد على موانىء تركيا ، حتى اصبحت تلك الامبراطورية الكبيرة تحت خطر التفكك والفناء

وكان مراد الخامس رجلاً ضعيف البنية لا يستطيع ان يؤدي عملاً مرضياً ، فاضطر الشعب الى عزله بعد شهور قليلة من توليه العرش ، وكان السبب الظاهر لعزله انه مصاب باختلال في قواه العقلية ، ولكن ثبت فيما بعد ان الاتراك تسرعوا كثيراً في الحكم عليه

اما عبد الحميد فلم يكن يومئذٍ قد تجاوز الرابعة والثلاثين ، وكان فارساً مغواراً وسياقاً بارعاً ، وكان نحيلاً واسع العينين ، مهيب الطلعة ، اقنى الانف ، يتقلد سيف جده عثمان و يلقب بمصلح الامبراطورية التركية

اما رئيس الوزراء مدحت باشا ، الذي كان في الواقع خالع السلاطين ، فقد اشترط على عبد الحميد ، عند توليه العرش ان يوافق على « الدستور » . هذا الدستور الذي اصبح فيما بعد المحور الرئيسي الذي دارت عليه رحى الثورة ، والذي اشتهر في التاريخ بـ « دستور سنة ١٨٧٦ »

خطر لمدحت باشا وهو رجل اشتهر بالكفاءة والنشاط ، كما اشتهر بالخشونة والافراط في الاستبداد ، ان « يمدن » تركيا تمديناً

سريعاً ، ليريح اوربا المحسنة من اجراء العمليات الجراحية على «رجل البسفور المريض» ! ... ولم يكن مدحت باشا مع هذا واثقاً من نجاحه في تمدين تركيا

اما الروس فقد انتهزوا هذه الفرصة ووصلوا الى ابواب استنبول، ولم تنج الامبراطورية العثمانية من شرهم الا بفضل المنافسة الشديدة الواقعة بين الدول الاوربية الكبرى ، ولم تكن هذه المنافسة هي الاولى ولا الاخيرة

وحاول مدحت باشا ان يدير شؤون الحكومة طبقاً لرغائبه الخاصة ، فنفي الى الطائف ، وهناك اتهم باغتيال السلطان عبد العزيز فالقي في السجن حيث توفي بعد مدة قصيرة جداً ، بطريقة تحوم حولها الشبهات ، ولا يزال سرها غامضاً

اما السلطان عبد الحميد الذي كان في الواقع رجلاً ذا شأن ونفوذ ، فقد اعتقد انه يعرف ما تحتاج اليه بلاده فجمع السلطة كلها في يده ، ولكن حظه المنكود دفعه لان يفكر تفكيراً حائداً عن الحقيقة ، فغلبته الظروف على امره ، ولم يستطع صد التيار الشديد الذي اكتسحه وغمره ، ومع ذلك فقد استطاع ان يحفظ — وان كان قد لاقى في سبيل ذلك ما لاقى — للامبراطورية كيانها ٣٢ سنة اخرى

وكان السلطان عبد الحميد يرغب في الاصلاح كرغبة السلاطين

الذين سبقوه ، وكان يسلم بان قانون تنازع البقاء يقضي بضرورة التطور وفقاً للظروف المتقلبة ، ولكنه كان يرى ان يتم التطور بطريقة اقرب الى العقل ، وابعد عن التطرف ، خلافاً للطرق التي لجأ اليها اسلافه من السلاطين المبتدعين

اما « الدستور » فكان كلمة لا يكاد يفهمها السواد الاكبر من الاتراك الذين كانت نسبة المتعلمين بينهم لا تزيد عن عشرة في المائة

اما دستور ١٨٧٦ فقد وضع « على الرف » كما يقول الغربيون . ولم ينعقد البرلمان . والواقع ان عبد الحميد كان يعتقد اعتقاداً جازماً ان الوقت لم يحن بعد لاستدعاء الاعضاء وعقد جلسات جديدة ، ومع هذا فقد شجع النهضة الفكرية . ومهد السبل امام الشبان لاعتناق الآراء الغربية . واخذ الطلبة الاتراك يقبلون على الجامعات الغربية ، وانضم العدد الكبير من صغار الضباط الاتراك للمدارس الحربية الاوربية ، وكانت البلاد « تستورد » العدد الكبير من خيرة الاساتذة ، وكانت غلطه سراي « اكسفورد تركيا » مركزاً للثقافة الاوربية الحديثة

ولكن الاتراك من الناحية الاخرى كانوا يقاومون كل تدخل اجنبي ، وقد كان الاهلون يتوقعون الغزو الاجنبي كل لحظة ، وهذا ما جعل الاتراك يومذاك يحذقون فن الخداع . والخداع كما نعلم سلاح الضعفاء . والواقع ان عبد الحميد قد برع حقاً في هذا « الفن » ! .

فقد كان يروغ في مواقف متعددة روغان الثعلب فينجو من الاصطدام بخصومه وتمر الزعازع السياسية دون ان تمسه بضيم

٣

مصطفى كمال ايضاً

ثم جاء دور الصبي « مصطفى » الذي قدر له ان يقضي على عرش الخلافة ، بعد ان كان هذا العرش مدة الف سنة وطيد الاركان ، وإن يطرد آخر السلاطين من البلاد !

نشأ الصبي مصطفى في حي من احياء سلانيك الوطنية ، في دار صغيرة من الخشب ، كانت تظل ابوابها موصدة على الدوام ، وكانت شوارع ذاك الحي وحاراته ضيقة خاوية ، اذا استثنينا الصغار الذين كانوا يتلهون باللعب

وكان الناس يمشون في هدوء عجيب ، ويضعون على رؤوسهم الطرابيش او العمائم . وكان الرجل الذي يسرع في سيره موضع تهكم الناس وسخريتهم ، وكانوا يرون في هذا العمل ضياعاً للمهابة

وكانت المرأة لا تسير في الشوارع الا مع امرأة اخرى او مع

عدد من النساء و كانت لا تظهر شيئاً من ملامح وجهها الذي كانت تخفيه تحت «الحجاب»

والخلاصة ان سلانيك في تلك الايام كانت خاملة ساكنة وكان لا يعكر الهدوء الذي يسودها غير نداء الباعة الذين كانوا يعرضون كل اصناف الخضر وانواع الفاكهة والزهور

و كانت المرأة التركية في ذلك العصر ، بحكم العادات محصورة في دائرة العائلة ، ينكرون عليها الخروج من دارها خشية ان تنصرف الى مايلهيها عن شؤونها البيتية من اسباب التسلية ، كما كانوا يمنعونها منعاً باتاً من الاجتماع بالرجال ، بل ذهبوا الى ابعد من هذا في التضييق عليها ، فكانوا يحرمون عليها الظهور بجانب زوجها ، فاذا غابت الشمس لم يبق لها حق بان تخرج من دارها وتظهر في الشوارع

وكانت المرأة التركية هي الحاكمة المطلقة في مملكتها الصغيرة وموضع احترام زوجها واولادها ، كانت تعيش في جو حافل بعرائس الاحلام اللذيذة ، لا تفهم من شؤون الحياة الحقيقية القاسية شيئاً

وكان ابتعادها عن مشاغل الحياة واتعابها سبباً في انصرافها للحياة الزوجية ، والاتصال بالله عن طريق الصلاة والصوم والتقوى

وكانت زبيدة هانم والدة مصطفى تعيش بمعزل عن الرجال كبقية التركيات ، ولم تكن تعلم غير الشيء القليل مما يجري حولها في العالم ، بل كان حظها من التثقيف ضئيلاً ، ولكنها اذا كانت

فقيرة في « العلم » فقد كانت غنية في « الاخلاق »

اجل ، كانت هذه السيدة ذات شخصية قوية · حلوة · جذابة · هادئة ·

لم تقف زبيدة هانم في سبيل طموح ابنها ، بل شجعته على الاقتحام والسير في الطريق الوعرة المحفوفة بالاشواك ، وكانت تذعن لارادته ، وتنزل عند مشيئته ، وكثيراً ما كانت تعجز عن فهمه

واخيراً تركها · وقذف بنفسه في احضان العالم المملوء بالاتعاب وبالمجد ·· فكانت تحاول ان تخفي قلقها وحزنها ! ··

وفي عبارة موجزة كانت امرأة تعرف معنى التضحية ونكران الذات فهي التي غرست في ابنها الميول السامية التي يمتاز بها مصطفى كمال ، هذه الميول النبيلة ، والاخلاق العالية ، التي كانت السبب في بلوغه المكانة العالية التي يتمتع بها اليوم

وان ثقة مصطفى العجيبة بنفسه ، في اطوار حياته المختلفة ، ونشاطه الفكري الغريب ، وروح المخاطرة التي تغلغلت في اعماق نفسه ، واخلاصه النادر ، ونكرانه العجيب لذاته ، انما هو تراث ثمين من امه الفاضلة

ومصطفى رجل لا ينكر هذا بل يعترف به ويشعر شعوراً عميقاً بانه مدين لامه بالمجد الذى غمره ، وقد ظل يحبها حباً يقارب العبادة ، الى ان ودعته الوداع الاخير !

وكان حبه لها نادراً في تركيا ذاتها . تركيا التي اشتهرت بمحبة الابناء العجيبة لامهاتهم واحترامهم الشديد لهن ! ..

ومن العجيب ان يظهر مصطفى «المادي» كل هذه العواطف الرقيقة نحو امه ، وانه لمن العجيب حقاً ان يحافظ على التقاليد التركية العائلية في هذا الصدد ، وهو الذي وقف في طريق التقاليد فسحقها غير مشفق ولا راحم . وقد ورث مصطفى كمال عن والده الميل الشديد للتشبث بالحقائق كما ورث عنه الاعتدال والميل الى الطموح .

ولسنا نعلم حتى الان شيئاً كثيراً عن اصل عائلة مصطفى كمال فان الاتراك لا يعنون عناية كبيرة بحفظ الانساب ، وانما المعروف عن عائلته انها كانت قروية ، تسكن الاناضول في اواسط آسيا الصغرى ، وان افرادها قد هاجروا منذ عهد ليس ببعيد الى سلانيك وهي بلدة واقعة في جنوب البلقان ، وكانت في ذلك الحين من ولايات تركيا

وانت ترى في الزعيم السياسي مصطفى كمال الحيوية الغربية والصبر النادر ، والعناد الشديد ، هذه الصفات التي يتميز بها القروي الاناضولي ، عن غيره من القرويين الاتراك

أما والده علي رضا بك فكان رجلاً مستنيراً حراً رزق بمولود لم يمد الله في عمره فانتزعه منه ، كما أنه ليس لمصطفى غير شقيقة واحدة أصغر منه سناً

وكان الاب يشغل وظيفة صغيرة في دائرة الجمارك في ميناء سلانيك ، وكان لا يتقاضى غير راتب ضئيل ، بل كان لا يتقاضى راتبه في مواعيد منتظمة ، فكانت تمر الشهور فلا يقبض قرشاً بينما كان ينعم الرؤساء بالرواتب الضخمة ..

ولو كان علي رضا بك قد ترك ابنه تحت رعاية « الخوجه » واشرافه لهانت النفقات ، فان الخوجه كان كريماً لدرجة ان كان يقبل كل ما يقدمه له مصطفى ولكن علي رضا ابى الا ان يرسل ابنه الى المدارس العالية ، التى كانت تتطلب نفقات غير قليلة ، والتي كان الوالد يحسب لها حساباً في موازنته الضئيلة

وعلى هذا صمم علي رضا ان يترك الوظيفة المريحة وان كان دخلها صغيراً و يشتغل بتجارة الاخشاب ، وقد كانت رائجة في ذلك الزمن و كان يفكر في ارسال ابنه الى باريس ليتلقى العلم في كلياتها العالية بعد ان يتم الدراسة في المدارس التركية الكبرى

أجل ، كان يريد علي رضا بك ان يعني بتربية ابنه اكبر عناية ممكنة ، وكان يترك لله وحده تدبير وظيفة مناسبة له تتناسب مع جهاده وثقافته وطموحه

ومن هذا ترى ان الصبي مصطفى قد نشأ في جو عائلي مشبع بالسعادة ، فقضى طفولة نعم فيها بما ينعم الاطفال الذين يقدر لهم ان ينشأوا في اوساط عائلية مصونة بعيدة عن المنازعات والشقاق

كان يجد مصطفى اماً تحنو عليه الحنو كله ، وكان في نظرها كل ما لها في الوجود ، و كان يجد بجانبها شقيقة تلاعبه ، واستاذاً شيخاً يحببه في التعليم ولا يبغض المدرسة اليه ، ووالداً يوجب عليه احترامه بما يبديه نحوه من لطف، فكان مصطفى يبادر الى تقبيل يد والده كلما عاد الى البيت آخر النهار

ولقد كان الاحترام متبادلا بين الوالدين والابناء في تركيا ، فالابن الذي يحترم اباه لا يلقى منه غير الاحترام وكان الوالد التركي يراعي عواطف ابنه عند مخاطبته ، فلا يحدثه كما يحدث الطفل بل يضعه في موضع الرجال . بل كانت العائلة تعد الابن البالغ (بك) صغيراً تكرمه وتوقره كلما وجدته رصيناً هادئاً حتى ولو كان لا يتجاوز التاسعة

ويذكر مصطفى عن والده في مذكراته الخاصة : انه كان شديد العناية باناقة ثيابه ، حريصاً على الظهور امام الناس بمظهر الرجل النظيف ، وبمعنى آخر كان علي رضا بك يريد ان يظهر بجلاء للناس انه وان كان ضئيل الثروة فهو « جنتلمان » لا يقل شأناً عن ارقى الاوربيين

وكان من ناحية اخرى يريد ان يعتقد الناس فيه انه اوروبي في مظهره الخارجي ، كما هو اوربي في افكاره وميوله ، وانه ودع الثياب التركية القديمة .

ويظهر ان صحة علي رضا بك العامة كانت ضعيفة واهنة ، ويظهر انه ارهق جسمه فوق الطاقة ولم يرحم شبابه الغض فذوى قبل الاوان ٠

والذي نعلمه ان المرض قد عاجله وهو بعد في زهرة عمره فلازم الفراش مدة قصيرة ، ثم اختطفه الموت الذي لا يرحم ولا يشفق !

وترك علي رضا بك ارملة مع طفلها وطفلتها دون ان يترك لهم شيئاً يعولون به انفسهم ! اذ كان قد بدأ يتاجر بالاخشاب قبل ان يفاجله الموت بزمن قصير ، ولم تكن هذه التجارة قد درت عليه الارباح فماتت تجارته بموته ٠

وكان معاش التقاعد الذي تتقاضاه هذه الارملة الوفية ضئيلاً لا يسد رمق العائلة ، فاضطرت السيدة المسكينة الى الرحيل من سلانيك لاجئة الى شقيق زوجها الذي كان يقيم في قرية (لاغزان) التي تبعد عن سلانيك ساعتين

وكان عم مصطفى هذا يملك داراً يكتنفها حقل فسيح فاوجد للصبي عملا في هذه المزرعة ، وكان مصطفى قد اصبح على جانب من الكفاءة فاطمأن عمه ، وتفاءل له بمستقبل باهر في الحياة الريفية ، وبات يعتقد انه يستطيع ان يخلق منه فلاحاً شديد العزم ! ٠

وكانت مهنة الفلاحة تدر على اصحابها في ذلك الحين ارباحاً طيبة ٠

وعلى هذا انصرف الصبي مصطفى الى رعي الماشية ، وتنظيف المرابط ، ولم يكن يتأفف من هذه الاعمال ، بل كان يزاولها بشغف عجيب ، وعلى الاخص عند ما وجد انه قد تخلص من « المدرسة » واصبح حراً طليقاً يمرح كما شاء له الهوى في الحقول ، و يتمتع بالهواء النقي . وكان اشتغال مصطفى في الحقول سبباً في تقوية عضلاته التي اصبحت كالفولاذ

وكان مصطفى يرغب في الحرية ومن هو الذي يتمتع بالحرية اكثر من الفلاح ؟ فلمَ اذن لا ينصرف الى الفلاحة ؟ الا يريد مصطفى أن يكون هو وحده المتصرف في شؤونه ؟

اليس هو الذي يشتهي ان لايكون خاضعاً لاحد ؟

اليس كل هذا ميسوراً اذا اشتغل مصطفى بالفلاحه وكرس حياته لها ؟

كان مصطفى يجد لذة لا تعادلها لذة في طرد الطيور والغربان التي كانت تتلف الزرع ، وكانت شقيقته تصحبه احياناً ولكنه كان يفضل الوحدة ويصرف الساعات الطويلة في العزلة مستسلماً الى التفكير

اما زبيده خانم فكانت تنتظر لابنها مستقبلا آخر غير الذي ينتظره له عمه ، وغير الذي ينتظره مصطفي لنفسه !

٤

امثولة في عزة النفس

بعد ان قضى مصطفى زهاء سنتين متمرناً على الفلاحة اعلمته امه انه قد آن له ان يعود الى مدرسته في سلانيك ، وان عمته قد وعدت بالعناية به وتأمين نفقاته المدرسية

وتطلع الصبي الى وجه امه ليقرأ تأثير هذا الحديث في نفسها فوجد وجهها يطفح بشراً — وكانت قد استسلمت للوجوم والحزن بعد فراق زوجها الابدي — فكان هذا البشر تعويضاً كافياً عن الخسارة التي ستلحقه بسبب فقدانه حريته وحرمانه من الساعات الطويلة التي كان يستسلم فيها الى احلامه اللذيذة ، فنزل عند مشيئتها وكان قد بلغ الحادية عشرة

وكان الهواء النقي والتمرينات العضلية والمرح في الحقول ، قد اكسبته مرونة ونشاطا وحياة ، بل كانت هذه العوامل رأس ماله الصحي ، ومورد نشاطه وحيويته ، هذه الحيوية التي مكنته من تحقيق احلامه والقيام بالاعمال المدهشة التي قام بها فيما بعد ، والتي كانت تتطلب بنية من حديد

كما ان استسلامه للوحدة الساعات الطويلة قد غرس فيه الميل الى الانفراد والانعكاف على العزلة ، والرغبة في الاستقلال في العمل

دخل مصطفى مدرسة ثانوية اهلية — لان التعليم لم يكن اجبار يا يومئذ في تركيا — واقبل على التعليم بشغف ولكنه لم يكن في ايام تلمذته دمثاً طائعاً ، ومع هذا فقد اكتسب رضا اساتذته بشيء آخر غير الدماثة . . . اجل ، قد اكتسب محبتهم بمغالاته في شعوره بذاته ، وصلابة رأيه واصراره ، وتشبثه بالحق

واصابته بسبب ذلك كارثة قبل ان ينتهي من السنة الاولى .

تشاجر مصطفى وأحد رفقائه ، وعلا الضجيج ، واشتد الجدال كالعادة في ظروف كهذه ، ولسوء الحظ اقبل استاذ اللغة العربية ولم يكن يحب مصطفى — لشيطنته كما يقول — فانهال عليه بالضرب ارهاباً لبقية الطلبة ، فخضع مصطفى للنظام ، ولم يتمرد على استاذه مظهراً بذلك رجولة طيبة ، وان كان دمه قد اصبح يغلي كالبركان لانه كان على يقين انه قد عوقب ظلماً وعدوانا

دق جرس الانصراف ، وخرج الطلبة وعاد مصطفى الى بيته على ان لا يعود ثانية الى هذه المدرسة !

ونفذ ما اراد : . وكان هذا الحادث اول حادث اظهر فيه الصبي مصطفى انه في سبيل الاحتفاظ بالكرامة يهون عليه كل شيء

واعطانا امثولة بانه ينبغي ان نضحي بكل شيء في سبيل كرامتنا حتى بالتعليم ذاته

ولم يكن في سلانيك مدرسة اخرى نظير هذه المدرسة ؛ كما ان صعوبة المواصلات جعلت انتقاله الى مدرسة اخرى في بلد آخر امراً متعذراً ..

فكر مصطفى طويلاً للخلاص من هذه الورطة التي اوقعه فيها استاذ اللغة العربية ؛ ولكن هذا الاستاذ قد خدمه من حيث لا يدري ولا يشعر !

لم تهن عزيمة مصطفى ؛ وها هو يحدثنا عما نوى فعله في ذلك الحين قال :

« كنت قد تعرفت الى جاري الضابط قدري بك ، وكان لهذا الجار ابن يتلقى علومه في كلية حربية .. وكنت شديد الاعجاب بثياب هؤلاء الطلبة الرسمية الانيقة ، بل كنت احسد احمد كلما التقيت به على هندامه الجميل ، وفضلاً عن هذا كنت اقف مبهوتاً كلما التقيت في الطريق بضابط يتجول في ثيابه الزاهية الخلابة الرسمية ؛ فصممت على دخول هذه الكلية لاكون ضابطاً ولم يكن قصدي من وراء هذا العمل اكثر من تزيين جسمي بهذا اللباس الرسمي التركي البديع ! .. »

هذه كانت افكار « الصبي » مصطفى ؛ ولكنه لما نضج

عقله لم يعد يبالي بالمظاهر قدر مبالاته بالحقائق الملموسة ، بل اصبح يرغب في الحربية لتكون مهنة يخدم وطنه من ورائها لا ليلهو بالثياب الزاهية

ومما لا ريب فيه انه كان يتمنى ان يظل قريباً من امه ليطلعها على امنيته هذه لا سيما وهو يعلم انها لم تكن على استعداد لموافقته في افكار كهذه لانها تمقت الحرب ، وتمقت الضباط والجنود وكانت تخاف ان يصبح ابنها « جنديا » وان يقدر له ان يرسل الى ساحات القتال « ليموت » !

ولكن الاستاذ حافظاً الذي سبب خروج مصطفى من المدرسة الثانوية هو الذي مهد لمصطفى هذا المصير — عن غير قصد طبعاً — فقد دفع مصطفى الى التصميم على دخول المدرسة ، ومتى اراد مصطفى شيئاً فلا يصده عن عزمه ولا يثنيه عن ارادته غير الموت ، والموت وحده !

وعلى هذا لم يطلع مصطفى امه على ما كان ينوي ان يفعله ، كما انه اخفى فكرته هذه عن عمه ؛ وقصد الصبي الذي لا يتجاوز عمره الثانية عشرة احد اصدقاء والده واستعان به على دخول المدرسة الحربية ! . . . .

وكان صديق والد مصطفى ضابطاً من الضباط الذين احيلوا على التقاعد ، فاظهر له عطفاً اكيداً ، وقصد رؤساء الكلية الحربية في

سلانيك وتمكن من اقناعهم بقبول مصطفى فقبلوه بعد ان نجح في الامتحان ٠

ووجدت الام نفسها امام الامر الواقع الذي لا مفر منه ، فاستسلمت اذ لم تجد وسيلة اخرى غير الاستسلام ، وبعد ان ايقنت ان دخول ابنها المدرسة الحربية انما هو الحل الوحيد للخروج من الورطة التي اوقعه فيها المعلم حافظ

وكانت الكلية الحربية من المعاهد التي ينفق عليها «السلطان» من ماله الخاص ويشرف على التعليم فيها بنفسه

وكان الطالب الذي يكثر من الألاعيب والمجون ، او ينصرف الى الكسل والاهمال ، يرسل الى الجيش ليكون نفراً عادياً ، ويقضي في الجيش عدداً من السنين كالتي قضاها في المدرسة ليعوض عن الاموال التي صرفت عليه ٠ وقد يتاح له احياناً ان يصبح ضابطاً غير حامل للبراءة

وتعود مصطفى على الخضوع والنظام وكان يرى احياناً ان العدل لا يجري في مجراه ، فتثور ثائرته ولكنه يكبحها بقدرة عجيبة

وكان مصطفى يجد لذة عظيمة في دراسة الرياضيات وسرعان ما برع فيها لانه ميال بطبيعته للحقائق ، ووجد في العلوم الرياضية وضوحاً وجلاء كما وجد فيها ما يمكن ان يدرك ويلمس

وكان بطبيعته لا يميل الى الحظ والمصادفات ، او التخمين والتقديرات ، لهذا وجد في العلوم الرياضية حقائق مجردة يمكن ان يوثق بها ويركن اليها ، وكان يجد في حل المسائل الرياضية العويصة ما يصرفه عن ملاذ الحياة كلها ، وعلى هذا قدر بسهولة ان يحافظ على الاولية في صفه في الرياضيات ، ثم اصبح استاذها اعز اصدقائه واقرب الناس اليه

ويقال ان مصطفى قد اخذ اسمه — كمال — عن استاذه

قال استاذ الرياضيات « مصطفى » للطالب « مصطفى »

« من اليوم فصاعداً نلقب بمصطفى كمال حتى يفرق الناس بيني وبينك » ! . . . ثم جعله مساعداً له بصحح الدفاتر ويشرح المسائل العويصة للطلبة

وكانت هذه المعاملة الاستثنائية سبباً في تمكين اواصر الصداقة بينهما وزيادة ثقة مصطفى كمال بنفسه

ولم يكن الطالب مصطفى البارع في الرياضيات غريباً عن العواطف او مجرداً عن الاحساس الرقيق ، فقد وقع اسيراً للحب وتعلق بحب فتاة من جاراته تعلقا شديداً ، ولم يكن في امكانه طبعاً ان يتحدث اليها ، بل كان يتفاهم معها عن بعد ويطارحها الغرام عن بعد !

كان يعود من الكلية فيكوي ثيابه ، ويدعي بانه على موعد

مع رفقائه ، ولكنه في الواقع كان يخرج لمداعبة حبيبته . اما المداعبة فكانت تجري كما يلي :

كان يطوف حول الدار مئات من المرات فيقضي الساعات الطويلة يتجول ، ولا ينقطع عن النظر اليها ، وكانت تنتظره بفارغ الصبر وتطل عليه من وراء الشباك فتظهر له امتنانها واعجابها باناقته ، وكانت فاتنة حقاً واجمل ما فيها عيناها السوداوان

ولكن الحب لم يكن ليصرف مصطفى عن الطموح وعن الجهاد ، بل كان الحب وسيظل العامل الاكبر والدافع الرئيسي للشبان على المغامرة والكفاح في الحياة

٥

استانبول

انتقل مصطفى الى معهد اكبر في «مناستر» وهي من مدن مقدونية الداخلية الجميلة

وكانت المدينة في حالة هياج شديد يوم وصلها مصطفى وكان سكانها في شبه حرب اذ كان النزاع قائماً بين الاتراك واليونان بسبب جزيرة (كريت) وسكان كريت من الاقوام التي لا تهدأ ولا تعرف السكينة بل تميل الى الشغب المتواصل

وكان اليونان يدعون بان لهم الحق المطلق في جزيرة كريت لاسباب قومية وحيوية. وكان الاتراك من الناحية الاخرى لا يتنازلون عنها بل يعتبرونها جزءاً لا يتجزأ من البلاد التركية. اما الدول الاوربية الكبرى فلم تستطع ان توجد حلاً للنزاع القائم بين الاتراك واليونان وعلى هذا اضطرت ان تترك الامور تجري في اعنتها

ولنترك الان احد اصدقاء مصطفى يحدثنا عن صديقه وهو في الثامنة عشرة من عمره قال :

« كان مصطفى يعيش دوماً بمعزل عن الطلبة وكان يميل الى الوحدة ومع هذا لم يكن يظهر بغضاً لاحد من الطلبة ولم يكن يعامل

احداً بالجفاء والخشونة بل كان على النقيض فكهاً طروباً ، واغرب من هذا انه لم يكن يطرح نفسه على احد وكنا نحن الذين نطرح انفسنا عليه ونطلب منه ان يقودنا ونحن لا ندري الباعث على خضوعنا له

« وكان مصطفى يكثر المطالعة ولكنه مع هذا كان يفكر اكثر مما يطالع ، فيصرف في التفكير بكتاب ثلاثة اضعاف الوقت الذي ينفقه في قراءته

وفي ذات يوم قلت له :

« انك يا مصطفى لا تشترك معنا في اللعب ، وتفضل حياة العزلة على حياة الاجتماع فما الذي يحببك في الوحدة ؟ ولماذا لا تطلعنا على اسرارك ؟ وتحدثنا بما يجول في نفسك !! ما ذا تنوي ان تفعل حتى تستسلم الى التفكير الطويل العميق ؟

فلم اسمع منه غير هذه الجملة المقتضبة :

— سا كون واحداً من الناس !

— نحن نعلم انك ستكون واحداً من الناس ولكن ما ذا تعني بهذا القول الغامض ؟

— سأ كون واحداً من الناس !

— هذا شيء جلي يا مصطفى فانك لن تكون « سلطانا » !

— قلت لك سا كون واحداً من الناس !

ومن هذا الجواب المكرر ترى مبلغ عناده واصراره ·

كان مصطفى طالبا موهوبا ، وكان نفوذه على رفقائه قويا عجيبا · كان موضع ثقتهم ومع هذا فلا يتقيد برأي احد منهم ولا يعمل الا برأيه

وكان مصطفى لا يذهب لرؤية امه الا مرة واحدة في السنة

وكانت زبيدة هانم قد تزوجت برجل مثر ، من اهالي رودس ولم يقع هذا الزواج من نفس مصطفى وقوعا حسناً ، ولم يذكر شيئا في مذكراته عن زوج امه على الاطلاق فقد تجاهل وجوده ولكن هذا الزواج الثاني هو الذي ساعد زبيدة على ان ترسل الى مصطفى بانتظام المبالغ التي كان ينتظرها ويرحب بمقدمها ، بل التي كان لا يستطيع الاستغناء عنها كل من يريد ان يظهر انيقا امام الناس

وكان مصطفى في ابان العطلات المدرسية في سلانيك يتلقى الدروس الفرنسية سراً من رئيس دير فرنسي يدير مدرسة وكان يشدد على تلميذه مصطفى ويعنى به عناية خاصة فقد كان يرى انه يحصر كل جهوده في تعلم الرياضيات وحدها، وكان من نتائج اهتمام هذا المدرس ان اصبحت اللغة الفرنسية اللغة الوحيدة الاجنبية التي حذقها مصطفى والتي اصبح يتكلمها بطلاقة

واخيراً انتقل الى المدرسة الحربية في استانبول

وكانت «استانبول» في مطلع هذا القرن العشرين لا تزال

راقدة تستمتع بشمس شهرتها القديمة المائلة الى الغروب .

اجل ، كانت المدينة التي صورها الكاتب الفرنسي « بيار لوتي» لا تزال زاهية مشرقة ، فاتنة ، خلابة ، كانت مدينة الاسرار الغامضة والمتناقضات العجيبة ، والانقلابات الفجائية ، كانت مدينة الزهو والابهة والجلال ، كما كانت مدينة العوز ، والفقر ، والفاقة ، وكانت ترى فيها القصور الشامخة و« الفيللات » البديعة بجانب الاراضي الخربة والاطلال الداثرة !

كانت ترى آثار العصور المتوسطة بجانب المظاهر العصرية كان الصناع يصنعون الاواني النحاسية على طريقة اهل بيزنطة في العصور المتوسطة ، بينما على مقربة ومرأى منهم تمر احسن السفن في طريقها الى ميناء القرن الذهبي !

وكانت الاحياء المنفردة مدناً قائمة بذاتها في مظهرها الخارجي كما ان سكان كل حي كانوا يعيشون عيشة تختلف كل الاختلاف عن عيشة سائر الاحياء

وكانت استنبول القديمة مجموعة دور خشبية ، تحيط بها المساجد ذات ابهة وجلال

وكانت (بيرا) مدينة المسيحيين ، والسفارات الاجنبية

وكان القرن الذهبي ملتقى الشرق بالغرب

ولكن الشرق كان يفصله عن الغرب « جسر الامم » او

جسر « غلطه » الذي كان يتطلب الاصلاح والتعمير على الدوام

وكان يومذاك مزدحماً بحشد مختلط من الاتراك والعرب ، والارمن واليونان ، والالبانيين ، والمقدونيين والاكراد ، والسوريين والدروز ، والشراكسة

وكان الطربوش غطاء الرأس الرسمي يعتمر به الناس جميعاً ، وبه يميز الاتراك عن سواهم ، وكان هو شعار التركي ولو في الظاهر

وكان الاتراك الذين يقدر لهم النجاح والترقي هم الذين يمتازون عن غيرهم بالجرأة والاقتحام او الخبث والدهاء ... وكانت الحياة تتطلب جهاداً متواصلاً ، واقتحاماً متواصلاً

وكان من الممكن ان ينتقل الرجل بين يوم وآخر من نعيم موفور ، الى فقر مدقع ، ففي الصباح يرى مبتهجاً في حديقة قصره لاهياً كالاغنياء المترفين ، فاذا اظلم الليل ، نزعت عنه اوسمته ونياشينه وصودرت املاكه وجرد من خيوله وعرباته ، ومن اثاث بيته واملاكه ، ثم يرسل الى المنفى ...

وكانت الاقطار الشرقية القاصية هي التي ينفى اليها الاتراك عادة ! .

وهكذا كان التركي في قلق متواصل لا يعرف ماذا يضمر له الدهر الغدار

وكان بعض الاتراك يتعاطون الافيون والحشيش ، فغدت

هذه العقاقير المخدرة السامة مصدراً من مصادر البلاء للاتراك ولغير الاتراك

وكان مصطفى كمال يومذاك قد وصل الى درجة ضابط برتبة ملازم ثان وهو بعد في العشرين من العمر

ووجد مصطفى انه قد انتقل من المدرسة العسكرية وتخلص من قيودها الكثيرة ، الى حياة المدن المغمورة باسباب الترف والنعيم ، فالقى الكتب جانباً واراد ان يتذوق هذه الحرية ، فكان يرتدي ثيابه الرسمية التي كان اهلها محسودين عليها

وكان جسمه قد امتلأ وظهرت عليه دلائل الرجولة ، وفي عبارة موجزة وجد ان المائدة قد اعدت ، وما عليه الا ان يمد يده ليتناول ما يريد ويقطف ما يحلو له

وهذا ما فعله فكان يرضي اهوائه ولذاته دون ان يثير حوله شبهات الناس واقاويلهم

ولكن مصطفى لم يستسلم طويلاً الى الغرام الفاسد ، بل وقع في شراك الحب الطاهر ، وكانت الفتاة التي هام بها فاتنة حقاً ، وقد التقى بها في احد القصور العظيمة في (بيرا) ، وكانت هي من بنات الاسر الممتازة بالثراء والجاه « لا قومية » لانتمائها الى جنسيات عديدة وهي تعتبر العالم كله وطناً واحداً — في حديثها وفي مظهرها وفي اذواقها وميولها

وكانت الفتيات اللواتي من هذا النوع يختلطن بالرجال سافرات الوجوه

وهن على جانب كبير من الثقافة والتعليم ... كالنجوم يحوم الرجال حولهن ، ويجد الشبان مايحببهن اليهم ، فكانت بضاعتهن رائجة رواجاً عظيما . وعلى هذا لم يكن من الغريب ان يقع مصطفى كما وقع غيره ، اسيراً لاحداهن ، وكان من الطبيعي ان لا يفوز مصطفى بقلب هذه الفاتنة الا بعد ان يقف على شيء من اساليب الاغواء في الغرام

وكان عليه ان يشعرها بميزاته التي تميزه عن غيره من الشبان ، والا لما التفتت اليه ولما اعارته شيئاً من حبها وعطفها ، ولكنه لم يبذل شيئاً من الجهد في استرضائها ، بل تمادى في ترفعه حتى ختم حبه الاول بخاتمة محزنة غير موفقة ، وقد يكون السبب في فشله انه على الرغم من اعجاب الفتيات بجماله ، كن لا يرضين عن « فتوره » ازاءهن ، وعدم تهالكه عليهن ، ولهذا لم يكن في المجالس المختلطة التي تجمع بين الرجال والنساء بطلاً

وانما كانت بطولته تتجلى في معارك الوغى لا في معارك الغرام

٦

قصر يلدز

بنى السلطان عبد الحميد مقره الملكي في ضواحي استنبول ، وكان قصر يلدز مملكة قائمة بذاتها متعددة المباني والقصور ، منها الكبير ومنها الصغير ، مصنوعة من الاحجار والرخام وتحيط بها الاشجار الباسقة

وكان السلطان قد خصص لموظفيه ، وضباطه وخدمه قصوراً خاصة تفصلهم عن العالم الخارجي

ولا يؤذن لهم بالخروج الا باذن خاص من جلالته ، حتى ان الاتراك انفسهم كانوا يجهلون ما يجري وراء هذه الاسوار العالية

وكان السلطان قد اعد القصور اعداداً كاملاً بحيث اصبحت مستوفية كل وسائل الحياة واسباب النعيم والرفاهية . هنالك صناع للسلطان يزاولون شتى الصناعات ، وفي مزارعه وحدائقه واسطبلاته الخاصة الحاوية مئات الخيول الاصيلة ، الوف من الزراع والخدم وكان شديد العناية بالحيوانات مولعاً بها كل الولوع

وكان تحت ارض يلدز سراديب ملأى بالكنوز والتحف الاثرية الثمينة كما كان للسلطان مرصد خاص

وكان عدد الطباخين الذين يشتغلون في قصره الملكي فحسب ثمانمائة طباخ !! ...

وكان جلالة السلطان نفسه ـ ظل الله على الارض ـ يسكن هذا المعقل الحصين سجيناً بمحض ارادته ، وكانت دلائل الشيخوخة قد ظهرت عليه بعد ان مر عليه في الحكم اكثر من ثلاثين سنة

لقد كان هذا السلطان ـ فيما مضى ، يحمل جسماً صلباً مستقيماً ، ولكن هذا الجسم قد ذوى ومال الى الانحناء

وعندما كانت تجري الاستقبالات الرسمية كان السلطان يسند يديه الصغيرتين ـ وكان يغطيهما بقفاز ابيض ـ على سيف عثمان ، وكانت قبضة هذا السيف تكاد تلامس لحيته ، وانفه كان اشبه بمنقار الطائر ، اما رأسه فكان يظهر ضخماً نظراً لضخامة لحيته التي كان يخضبها بالحناء

وكانت عيناه في ايام الشباب واسعتين متقدتين ، تشعان ذكاء وفطنة ، فرقدت على مر السنين في اعمق تجاويفها

وكانت نظراته تدل على الاضطراب والقلق كما تدل على الحذر والريبة وابتسامته الضعيفة لا تخفي احزانه وهمومه

وكان حتى ذلك الحين يفوق معظم الدبلوماسيين الاوربيين ورجال السياسة المتفننين ، اجل كان يفوقهم دهاء ودساً ويفوقهم من اتوفهم ! ولكنه لم يجن من وراء خداعه واحتياله غير تأجيل ساعة

موت الامبراطورية ، وتأخير ساعة الموت ولفظ النفس الاخير ، شأنه في ذلك شأن الجنود الذين يجالدون رغم جراحاتهم حتى يغلبوا على امرهم بعد طول الكفاح

وكان السلطان عبد الحميد قد فقد بعض ولاياته الاوربية وافلتت منه مصر ، وتونس ، وكان الفرنسيون قد بدأوا يستوطنون مراكش ، والنمسا تتوغل في البلقان ، والشبح الروسي مخيفاً يضع شتى العراقيل في طريق الاتراك

.....

والواقع ان كل الذين يقاومون روح العصر ، ويحاولون ان يوقفوا سرعة الحوادث المتحركة ، تتحول مساعيهم وان كانوا لا يرمون من ورائها غير الخير — الى نكبات ، وتنقلب مساعيهم الاصلاحية الى مجهودات ضائعة لوجه الشيطان ، ان لم تكن تجلب لاصحابها شدة العناء والفشل · وعبد الحميد هذا لا ننكر انه كان يريد انقاذ بلاده كما اننا لا ننكر حسن نيته ورغبته الحارة في اصلاحها ولكنه برغم ذلك قد عرضها الى الخطر ، ثم قادها الى الخراب

وكان الرجل محقاً — كما يظهر لك فيما بعد — عند ما ارتأى بان الامبراطورية العثمانية لا يمكن ان تحفظ من التجزوء وتصان من التقطيع الا عن طريق الحكم الاوتوقراطي في اوسع معانيه واتم اشكاله

ولكن الظروف القاسية جعلت اوتوقراطيته الحكيمة المعتدلة تنقلب الى استبداد مطلق صارم ، وبعد ان كانت دكتاتوريته ضرورة موقتة لسلامة الدولة وحفظ كيانها من التجزوء والاندثار ، اصبحت على كر السنين اعتسافاً لا يطاق ، وطغياناً لا يحتمل ، فكان من الطبيعي ان تصاب البلاد بالشلل ، ولكن هذا البناء الضخم الذي اخذت احجاره تتساقط حجراً حجراً ، كان لا يهوى منه حجر الا بارادة جلالة السلطان

وكانت فكرة القومية قد بدأت تتسرب من الغرب ، فتقضي على شبه « الاتحاد » الكائن بين الامم المتباينة التي تؤلف « الدولة العثمانية » ذلك الاتحاد الذي كان قائماً على الخوف من استبداد السلطان وجبروته

وكان من المنتظر انه متى تأصلت فكرة القومية وتغلغلت في النفوس ينهار هذا البناء الشامخ .... وهذا ما حدث فعلا .

وعليه فقد اصبح يسهل علينا الان ان نفهم لماذا قاوم عبد الحميد الروح القومية بمثل هذا التعصب الشديد ، ولماذا كان يحاول ان يقضي على كل رجل « وطني » ويقتل كل فكرة وطنية ، وهذا يفسر لنا السر في اضطهاده الشديد لاعضاء «تركيا الفتاة» الذين كانوا يتقدون حماساً وغيرة على بلادهم

وكل ما نذكره له من المجهودات المثمرة مده السكة الحجازية

وهو عمل من الاعمال العظيمة حقاً

وكان غرضه من هذا تسهيل المواصلات وتحسين طرق النقل وترغيب المسلمين في الحج يتوافدون اليه من انحاء العالم ، وكان يرى ان وجود هذا العدد العظيم من المسلمين في مكان واحد من شأنه ان يزيد في اتحادهم وقوتهم

والواقع ان السلطان عبد الحميد لم يوفق في مشاريعه الكثيرة فالعلوم الحديثة التي اباح دخولها الى المدارس اصبحت مصدراً جديداً من مصادر الخطر .

ووجد انه قد اصبح من الضروري ان يقتل الروح الجديدة التي تولدت عن التعليم الغربي ، كما انه لما اخذ ينظم الجيش رأى ان كبار الضباط الذين جاء بهم من الممالك الاوربية قد استسلموا لليأس ووجدوا ان جهودهم ضائعة عبثاً فركنوا الى الراحة والخمول ، واخذوا يصرفون اوقاتهم في اللهو

وكان الضباط الذين يرسلون الى الخارج ليزدادوا خبرة وعلما لا يسمح لهم بالانتفاع من هذه الخبرة وهذا العلم متى عادوا الى بلادهم بل كان السلطان يعمد لنفيهم الى الاجزاء القاصية من الامبراطورية

اما الاسطول فقد لازم الموانيء حتى اعتراه الصدأ واكله

اجل ، كان السلطان يريد ان يسد كل فجوة سداً محكماً لتخوفه من تسرب الافكار الغربية الى بلاده

والمرجح ان عبدالحميد كان في أعماق قلبه يشعر بان الجهود التي يبذلها في مقاومة الآراء الغربية والنزعات الاوربية انما هي جهود ضائعة ومجهودات تبذل لوجه الشيطان ، وانه كلما قاومها عاد بالبلاد الى الوراء وزادها وهناً على وهن

والارجح ان هذا الفشل الذي اصابه في كل مشروع قام به او حاول تنفيذه انما هو الذي جعله يصاب بالاضطراب العقلي الحاد

وكان يعتقد في داخل نفسه ان الضغط لا يولد غير الانفجار ولهذا كان يترقب الانفجار في كل لحظة

ومع ان عبد الحميد كان يمتاز عن بقية السلاطين بمواهب فذة كثيرة ، الا ان تخوفه المتواصل واضطرابه العقلي ووساوسه التي كانت تملأ عقله قضت على ذكائه وحذقه كما قضت على ارادته الحديدية ومقدرته على الجلد ومواصلة العمل ، دون ان يشكو من تعب او ملل .

كان يتخوف ان يحدث له كما حدث للسلاطين الذين سبقوه وكثيراً ما كان يفزع عند ما يقرأ في الصباح النشرات المهيجة التي يلصقها اعضاء جمعية تركيا الفتاة في الليل على اسوار يلدز الخارجية يحضون بها الشعب التركي على الهياج والشغب ويطلبون خلع عبدالحميد ويتهددونه بالاغتيال اذا لم يعتزل العرش فوراً ! ،.

وعليه فاننا لا نعجب كثيراً اذا كانت حياة هذا الرجل الذي

يعيش بين القصور ابعد ما يكون عن الهناء والسعادة والطمأنينة

وكيف يطمئن هذا الرجل وحياته مهددة كل لحظة ، وهو يجد نفسه مضطراً لتبديل فراشه كل ليلة ، وعدم وضع سريره في مكان واحد اكثر من مرة واحدة ، واخفاء مكان نومه حتى عن اقرب الناس اليه ؟

وكان الطعام الذي يجلب للسلطان يوضع في اطباق مغطاة ومغلقة لا تفتح الا في حضرته ، ولا يتذوق شيئاً من الطعام الا بعد ان يأكل منه احد الامناء من اتباعه المخلصين

وكان هلعه يزداد احياناً . وقد حدث مرة ان القائد فؤاد باشا وهو رجل لا تخلو حياته من غرابة ، ومن اعضاء تركيا الفتاة كان يريد مقابلة السلطان ، فلما قابل مولاه تقدم للانحناء ثلاث مرات كالعادة وحسبما تقضي به التقاليد ، ولكنه تعثر في سيفه وزلت قدمه ، فارتمى الى الامام ، فاشتبه السلطان في هذه الحركة وخيل اليه ان فؤاد باشا كان يحاول اغتياله ، فسحب فوراً مسدسه الذي كان يحمله على الدوام واطلقه على فؤاد باشا ولكن الحظ خدم فؤاد باشا فلم يصب الا بجرح بسيط و يالله كم تفعل الوساوس !

٧

جواسيس عبد الحميد

كان السلطان عبد الحميد اذا ارتاب بامانة احد ، بنى ارتيابه على اسباب صحيحة او موهومة ، وكانت حياة العزلة التي يحياها تزيد في مخاوفه ، وتغذي وساوسه ، وكان له عذره في ذلك الى حد . فكبار موظفيه اصحاب المقامات الرفيعة في الدولة كانوا قد تأثروا بموجة السخط التي عمت البلاد ، وكانوا ينضمون سراً او جهراً الى الثوار والناقمين

ولكن التهديدات العديدة ، والقنابل التي القيت عليه في حفلات « السلاملك » وروح التبرم التي كان يلمسها في كل مكان ولا يجهل خطورتها ، هذه وغيرها لم تكن لتحوله عن الطريق التي اختطها لنفسه ، او لتصرفه عن انفاذها ، بل كانت المقاومة تزيده جموحاً وعناداً واصراراً

اجل ، كان هذا الحاكم الحذر يود الوقوف على كل ما تفعله رعيته ، ويريد لو نفذ الى قلب كل منهم ، واطلع على مكنوناته وخفاياه ، فكان من الطبيعي ان يحتاج الى عدد من الجواسيس والمخبرين . ولم يمض وقت طويل حتى تضخم عدد جيش جواسيسه

الذين صاروا يتتبعون له كل شاردة وواردة ، و يعدون على الاهلين انفاسهم ! ..

وبلغ بهؤلاء الجواسيس ان كانوا يتنكرون باثواب الشحاذين الممزقة ، و يقضون الساعات الطويلة في التجوال ، علهم يظفرون بشيء يرضون به ولي نعمتهم ! و كان البعض منهم يتخصص للخدمة في دور الاشراف فيؤدون الاعمال « الصغيرة » ولكنهم يفوزون بالاخبار « الكبيرة » حتى فقدت الثقة بين الناس

و كان اذا دخل رجل مجهول احد المقاهي التركية انقطع الناس فيها، عن الحديث الجاري بينهم باصوات خافتة الى ان يتأكد هؤلاء من نيات ذلك « الضيف » الذي دخل على غير معرفة سابقة ، ولا تعود اليهم طمأنينتهم الا بعد ان يوقنوا انه ليس من عيون السلطان ولا من جواسيس القصر ! ...

وكانت حقائب الاخبار تحمل كل يوم الى السلطان فيفرغ ما فيها من التقارير ، و ينصرف الى دراستها بدقة ، وكان هؤلاء الجواسيس اذا اعيتهم الحيل ، وفشلوا في اصطياد الاخبار ، ونبش الخبايا عمدوا الى الخيال و « فبركوا » ما شاءوا ويأتون في آخر النهار بتقارير كلها تلفيق واختلاق منسوجة نسجاً دقيقاً ، وكان السلطان لا يضيع « اتعابهم » سواء أكانت هذه التقارير صحيحة او مزورة فيكافئهم ويجازيهم فاذا سئل في ذلك قال : « لا بأس في ان

يسرقوا اموالي ما داموا هم في خدمتي وانا اثق بهم »

والواقع ان الذين كانوا يعملون تحت أمرة السلطان كانوا يثرون سريعاً ، وكان بسخائه يجبرهم على الاخلاص له والتفاني في خدمته

كان معظم الموظفين يخضعون لارادته ، ولم يشذ منهم الا فهيم باشا الذي كان بغيضاً على الرغم من ذكائه ، وكان لا يبالي بالمبادىء العالية ، واشتهر بالطمع والجشع وكان يشغل مقاماً عالياً في دائرة البوليس السري

وحاول السفير الالماني المرشال (فون بيبرستين) ان يريح استنبول من هذا الموظف المخيف الذي كان يروع الاهالي ، وقد رمى بذلك الى اكتساب محبتهم اذ كانوا غير راضين عنه ، فانتهز فرصة حادث تافه وقع فيه فهيم باشا اذ اتخذ تدابير غير قانونية ضد تاجر الماني ، فأصر الهر (فون بيبرستين) على ضرورة معاقبته ونفي عياله الى بروسيا ، وبعد ان نجح السفير في التأثير على السلطان وقف بعض الاتراك في طريقه يتقدمهم الداهية السوري احمد عزت باشا وسكرتير الدولة تحسين باشا

وكان من الطبيعي ان تبتلع رواتب آلاف الموظفين والهبات المبذولة بسخاء للرعايا المخلصين جميع واردات الدولة ، وان تكون سبباً في فراغ الخزينة واحلال الفوضى المالية في ادارات الحكومة ، ان عبد الحميد كان تركياً من حيث فن الاقتصاد والتركي لا يجيد هذا

الفن ، فلم يمض زمن حتى اضطربت شؤون تركيا المالية

والواقع ان خزانة الدولة كانت لا تعرف الامتلاء في اي وقت من الاوقات ، بل كانت فارغة على الدوام ، فاضطر الاتراك ان يسمحوا بدخول رؤوس الاموال الاجنبية الى بلادهم ، ثم ضاعت ثقة الماليين في باريس وبرلين بالدولة العثمانية فكانوا لا يقدمون لها اموالهم الا بفوائد فاحشة ، بعد ان يستولوا على واردات الضرائب والجمارك ، وهذا كان فاتحة التدخل المالي الاجنبي الذي جلب الى تركيا الخراب الجديد فوق خرابها القديم

وكانت الرقابة على ادارة البريد شديدة والسلطان يحرم على الاهلين في استنبول الانتفاع بالتلفون لشدة خوفه من المخابرات السرية وتدبير المؤامرات !

كما ان الصحافة التركية كانت خاضعة للمراقبة الصارمة لايجوز لها ذكر شيء عن الاعتداءات على الملوك ، حتى انها كانت تنشر اخبار موتهم بكل ايجاز وتحفظ

كتبت مرة احدى الصحف ما يلي :

« توفيت الامبراطورة اليزابت في جنيف ، وكان لحادث اغتيالها اثر سيء في نفوس الاوربيين ، فحذفت لجنة المراقبة العبارة الثانية المتعلقة بالاغتيال »

ولكن على الرغم من هذه التدابير الشديدة كانت المؤامرات

تدبر في الخفاء فارتأت السلطات التركية ان تقبض على الضباط المتحمسين — وكان بينهم مصطفى كمال — واودعتهم السجون

وقد صمم اسماعيل باشا المراقب العام ان يقف في هذه القضية موقفاً حازماً جداً وهو يقول :

« اذا كانت البلاد لا يمكنها ان تعتمد على الجيش ، فعلى اي قوة اذن تعتمد » ؟ واذا كانت روح الثورة قد تغلغلت في نفوس الضباط والجنود الى هذا الحد ، فالدولة اذن قد باتت على وشك الانهيار واصبحت على ابواب الفناء ·

واختلى خلوة طويلة بالسلطان عبد الحميد ، واقترح على جلالته ان يصدر ارادته السنية بايقاع اشد العقوبة على مصطفى وجماعته ، كما انه غمز من قناة مدير المدرسة الحربية وحاول ان يجعله شريكاً في جريمة التآمر ، بحجة انه لولا تفريط رضا باشا ، ولولا ميوله الوطنية الخفية والظاهرة لما كان مصطفي وغير مصطفى ممن يتجرأ على الوقوف في وجه السلطان

واراد اسماعيل باشا ان ينتهز هذه الفرصة للايقاع بمنافسه القوي واستمرت القضية معلقة عدة شهور ····

وكانت السيدة زبيدة هانم قد اسرعت الى استنبول فلم تأذن السلطات لها برؤية ولدها مصطفى كمال ، فاضطرت الى الاستسلام وملازمة الصمت الى ان يفعل الله ما يشاء

وقد كتب مصطفى كمال في مذكراته :

« كانت أمي تواصل البكاء ايل نهار حتى ابيضت عيناها من الحزن الدائم ! ....»

ولم يكن رضا باشا في هذه المدة مستسلماً للاقدار كما فعلت زبيدة هانم فكان يدبر المعارك الحامية والحادثة في قصر يلدز للايقاع باسماعيل ، وكان السلطان يريد الاحتفاظ برضا ليظل رقيباً على اسماعيل وشوكة في جنبه . واخيراً وجد القائد رضا الفرصة سانحة للتدخل في القضية ، بعد ان اهملت زمناً طويلا ، فحاول تبرئة الضباط الذين كانوا من تلاميذه بحجة ان الاعمال التي قاموا بها لا تخرج عن حد نزق الشباب ، وانهم لم يختبروا الحياة ، ولم يفهموا السياسة وما تتطلبه من حذر ، وانهم في شؤونهم الحربية مثال النشاط والمقدرة وان الجيش يفتقر اليهم افتقاراً شديداً

وكان السلطان من الناحية الاخرى على يقين بان هناك منافسة شديدة بين اسماعيل باشا ورضا باشا بل ان هذه المنافسة موجودة بين كبار الموظفين جميعاً ، وان من مصلحته بقاءها ، لانها السبيل الوحيد لتشتيت شملهم ، ومتى اتحدوا ضده تعرض عرشه لا محالة للسقوط كما جرى لعمه عبد العزيز ، فاراد اذن ان يبتكر حلاً مرضياً للطرفين فكانت ارادته السنية كما يلي :

« ينفى الذين اساؤا التصرف الى ابعد مكان في الامبراطورية ويحظر عليهم العودة »

ولم تمض ٢٤ ساعة حتى كان مصطفى يسير تحت الحفظ مع رفاقه الى السفينة تقلهم الى منفاهم الجديد

وسمحت السلطات لام مصطفى برافقة ولدها وملازمته حتى ساعة الوداع ، وبعد ان ودعته وداعاً مؤلماً اذ وقفت على الشاطىء حتى غابت الباخرة وراء (سيراجليو) وهناك روضة كانت خاصة بالسلطان وهي اليوم تضم تمثال مصطفى من البرونز يقوم شاهداً على تقدير الانسان لجهود الانسان ، وان انكرها وجحدها طويلاً

٨

مصطفى كمال في دمشق

قضى مصطفى ٨٠ يوماً في البحر قبل ان يصل الى ميناء (بيروت) ثم ارسل الملازم الشاب الى (دمشق) وهي مدينة بعيدة عن عاصمة الامبراطورية العثمانية، يستحيل على المنفي وفاقاً لارادة السلطان ان يخرج منها ..

وكانت تعد دمشق .. دمشق المشهورة بجمالها .. في نظر السلطان عبد الحميد منفى، ويا له من منفى جميل! ..

ان دمشق تقع في واد يشبه بالقدح المسطح قليلا يحتضنها في رفق، وتحيط بها حدائق يندر ان تقع العين على اجمل منها، وتزدان بالمساجد ذات القباب اللامعة والمآذن العالية

وكان التجار الدمشقيون يقيمون في قصورهم البديعة، ينظرون الى الاتراك الفاتحين نظرة الازدراء، وان كانوا خاضعين لحكمهم، وانهم ليشمخون بانوفهم على الاتراك اعتماداً على تراثهم العربي، وحضارتهم العربية العظمي

ولكن السلطان نفى مصطفى الى دمشق لا ليلهو ويستمتع، بل اقصاءً له عن مهد المؤامرات والدسائس

***

والآن نتحدث عن الولاة الذين كانوا يتمتعون بسلطات واسعة واعتادوا شراء الغانيات من الشركسيات وملء اسطبلاتهم بالخيول العربية الاصيلة ، وتزيين ابنية الحكومة بالسجاد العجمي الفاخر

هؤلاء الولاة كانوا ينعمون بالحياة المرفهة الى الحد الاقصى ، فحوالى غروب الشمس يجتمع الوالي ورفاقه في بهو قصره ، حول صينية نحاسية كبيرة يوضع عليها الشراب والسجاير الفاخرة يمضون جانباً من الوقت في الشرب والتدخين والسمر

ثم يصفق الباشا فيقبل الخدم بالعشاء الذي كانت الوانه لا تقل عن اثني عشر لوناً من افخر الطعام ، ويأخذ المدعوون بعدئذ في التهام الحلوى ، و يختمون ذلك كله بشرب القهوة والتدخين ، ويطول السمر الى الهزيع الاخير من الليل

وكان من الطبيعي ان ينام الوالي الى الضحى ، فمن سهر الليل نام النهار وكانت اعماله الرسمية لا تتطلب أكثر من ساعتين او ثلاث ساعات لانهائها . ولم يكن الوالي وحده الذي يحيا هذه الحياة بل ذلك شأن المتصرف ، والقائمقام ، وان كانت ولائمهما طبعا اقل قيمة من تلك

وكان الوالي يعرف كيف يعامل الناس بالرفق ويحترم عواطفهم و كان يرى في الظروف العادية بشوشا رحيما ، يجامل ضيوفه ويفض المنازعات مستعينا بابتساماته ، وكلماته اللطيفة المهدئة للاعصاب ،

وكان يستمع الشكاوي بصبر ويظهر عطفه على المظلومين ، ويعدهم بالمساعدة والنظر في شكاويهم وقضاياهم

وبينما كان هؤلاء الولاة ينصرفون الى ملاهيهم وملاذهم كانت الشوارع تترك وشأنها دون عناية ، وكانت الجسور تنهار وتنهدم ، وكانت اشجار الغابات تقتلع من جذورها وتحرق ، وكانت الموانىء تمتلىء بالرواسب ، والاراضي الصالحة للزراعة تهمل فتصبح بوراً وخراباً ، فاذا اقبل احد الموظفين مدفوعا بغيرته الوطنية واراد ان يلفت نظر مولاه الى الحالة التي وصلت اليها البلاد ، لم يسمع من جلالته الا هذه الجملة :

« خير لك ان تصمت اذ ان لا دخل لك على الاطلاق في شؤوني الخاصة وان اعمالك لا تتعدى حفظ الامن ، وجمع الضرائب » والويل له اذا عاد الى الاعتراض بعد هذا الحديث المفهوم ! ..

وحاول مصطفى في بادىء الامر ان يثير سوريا وفلسطين ويضع نواة لحركة ثورة ، لكن حركته وئدت في مهدها ولم يقدر لها اي نجاح فادرك ان القومية العربية شيء والقومية التركية شيء آخر ، وان العرب لا يفكرون الا في استقلالهم لا يطلبون عنه بديلا ، فكان هذا درساً لمصطفى لن ينساه مدى الحياة

وكان مصطفى يتمنى ان يصل الى مقدونيا ، وكانت العناصر الثائرة قد تجمعت في سلانيك على الرغم من الرقابة الشديدة .

والتدابير الصارمة فاصبحت القبلة التي يحج اليها الوطنيون من كل صقع وواد

وعلى هذا اخذ مصطفى يفكر في طريقة تمكنه من الوصول الى سلانيك ولكنه كان في حاجة الى ما يحميه هناك ٠

وكان شكري باشا يتقد وطنية وصلاته بالسلطان مرضية ، فكتب اليه مصطفى كمال شارحاً له ما يريد بجلاء وصراحة وسأله ان يستخدم نفوذه في القصر لنقله الى سلانيك

ومرت اسابيع ولم يستلم مصطفى كمال جواباً على رسالته واخيراً في ظهر احد الايام بينما كان مصطفى على وشك مغادرة المعسكر في يافا اقبل شخص مجهول ووضع في يده ورقة عليها الجملة الآتية

« احضر الى سلانيك وستجد فيها من يحميك ٠٠٠ »

واخذ يعد العدة فوراً وقدم له اصحابه ما يحتاج اليه من المال للسفر ووعد الميجر احمد بك القائد العام في يافا بانه سيبلغه فوراً اذا شعرت السلطات بغيابه

تنكر مصطفى في ثياب سائح اوربي وسافر الى سلانيك عن طريق اليونان فلما بلغها زار القائد شكري باشا الذي ما كاد يراه عائداً بمثل هذه السرعة حتى صرح له بانه لا يستطيع ان يتحمل مسؤولية فراره من الحامية ، وان التدابير التي قد تتخذ في حقه ستكون صارمة دون ريب ، وافهمه انه غير راض عن السلوك الذي سلكه

والمجازفة التي قام بها ، وختم حديثه قائلاً بانه لا يستطيع ان يقدم له اي مساعدة

فوقع هذا الكلام غير المنتظر موقعاً سيئاً جداً في نفس مصطفى وايقن ان الآمال التي عقدها على شكري باشا قد تلاشت ولكنه برغم ذلك ابى العودة ، واصر على البقاء في سلانيك ..

ووجد الاصدقاء الذين كانوا يعدونه بالمساعدة يتهربون منه ولا يوافقون على اي اقتراح يقترحه بحجة انهم لا يستطيعون المجاهرة بآرائهم المعارضة للسلطان ، وانهم انما يشتغلون في الظلام وتحت طي الخفاء وان الجواسيس يراقبونه مراقبة شديدة و يرهقونه بالاسئلة

واخيراً جاءه احد رفقائه وكان طالباً معه في عهد الدراسة ، واعلمه ان هناك جمعية سرية تسمى « جمعية الاتحاد والترقي »

٩

جمعية الاتحاد والترقي

لم يكن مصطفي حتى هذه الساعة قد سمع باسم « جمعية الاتحاد والترقي » — هذه الجمعية التي قدر لها ان تتمتع بشهرة يندر ان تتمتع بها جمعية . تأسست بادئ الامر في باريس ، وكانت تضم المنفيين الى هذه العاصمة الفرنسية سواء كان باختيارهم او جبراً . وكانوا من الكتاب والصحفيين والاساتذة والطلبة الذين لم يكونوا قد اختبروا الشؤون السياسية ، وما تتطلبه من حيطة وحذر ومراوغة فكانوا يصرحون بآرائهم المتطرفة وميولهم الثورية ، دون ان يتسرب الخوف الى قلوبهم ، او يقيموا للسلطان اي وزن او قيمة ، فاصبحت هذه الجمعية اقوى جمعية سرية قام بتاسيسها الشبان الاتراك الذين تشربوا بفلسفة اوغست كومت ، وتشبعوا بالديموقراطية الفرنسية ، وامعنوا في دراسة الثورة الفرنسية ، فارادوا ان يسلكوا السلوك الذي سلكه الثوار الفرنسيون ، وان يستعيروا منهم اسلحتهم السياسية وكانوا يثقون من نجاحهم اعتماداً على نظرية التطور ، وان البلاد لا يمكن ان تظل على حالتها الراهنة من الضعف . وكان زعيم هذه

الجماعة الثائرة احمد رضا بك وهو من الشخصيات المحترمة عند الناس

كان احمد رضا بك من طبقة الاعيان يتقد ذكاء ، وعلى جانب كبير من الثقافة ، ولكنه كان قد قضى ردحا طويلا من الزمن بعيداً عن وطنه ، وعلى هذا ضعفت فيه النزعة القومية ، وكان يحاول ان ينقل الحضارة الغربية الى بلاده

وكان فرع باريس هذا منظما تنظيما دقيقا ، وكان برنامجه متطرفاً ووسائل الدعاية التي يعتمد عليها قوية متينة ، وعلى هذا اصبح اعضاء هذه الجمعية الباريسية يتحكمون باعضاء اللجان الاخرى ، وكان لهم جريدة باسم «الانباء» تهرب الى استنبول مع البريد الاوربي ، فيتلقفها جماعة من الاتراك يتعهدون توزيعها سراً الى اصحابها ، وكانت النشرات السياسية تهرب ايضاً بالطريقة عينها

اما فرع برلين فكان تحت رئاسة البرنس صباح الدين نجل شقيقة عبد الحميد ، وكان هذا الفرع مؤلفاً من المعتدلين ومن وزراء الدولة السابقين ، او كبار موظفيها ذوي المواهب السياسية الممتازة ، ولكن هؤلاء لم يكونوا قد نظموا اعمالهم ، بل كانوا يسيرون على غير هدى وكل قصدهم ان يدخلوا «الاصلاحات» للبلاد . وعند ما كانوا يسألون عن برنامجهم كانوا يعترفون بان لا برنامج لهم ، وان كل ما يطلبونه هو «الاصلاح» وان تنظم شؤون الدولة على نحو الحكم الالماني

أجل ، كانوا يقترحون توحيد الشعوب المتعددة التي تتكون منها الامبراطورية العثمانية ، وان تؤلف بينها ما يشبه الحلف الالماني، ولكن أعمال هذا الفرع اذا قارناها بأعمال الفرع الباريسي لا تعد شيئاً مذكوراً ، لان القائمين بها مفتقرون الى النشاط السياسي ، كما ان افكارهم الغربية هذه لم تلق أي ترحيب لدى الاتراك .

واخيراً استطاع فرع سلانيك ان ينتصر على الفروع الاخرى، إذ بدأ أعضاؤه يعدون العدة للثورة ، وانضم اليهم بعض رجال الدين فازدادوا قوة على قوة ، كما انضم اليهم صغار الموظفين أمثال طلعت الذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزارة ، والذي كان في ذلك الحين ينتقل بين دوائر البوستة والتلغراف ككاتب بسيط !..

ولكن الاغلبية الساحقة من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي —فرع سلانيك— كانوا من الضباط المتعلمين أصحاب النفوذ القوي في الجيش ، وكانوا قد تلقوا علومهم على يد اساتذة المانيين من أصحاب المواهب الحربية الراقية ، أمثال الجنرال فون دير جولتز ، وعلى هذا قوي فرع سلانيك بفضل نشاط رجاله ومواصلتهم الكفاح ، وحسن تصريفهم الامور ، بينما كان الفرع الباريسي يسير طبقاً للروح والنظريات الدستورية الفرنسية ، وبمعنى آخر كان رجال الفرع الباريسي هم الذين يغذون الفرع السلانيكي بالنظريات والآراء الحرة العصرية ، ويبعثون في زملائهم الميل الى النضال والتفاني

وكانت المحافل الماسونية وعلى الاخص المحفل الايطالي الاكبر في سلانيك ترحب باعمال هذه الجمعية، وتنتصر لها انتصاراً أدبياً، وكانت الجلسات تعقد في غرف المحافل الماسونية التي يستحيل على الجواسيس ان يصلوا اليها مهما بذلوا من جهد . وكان كثير من أعضاء هذه المحافل مندمجين في جمعية الاتحاد والترقي وبهذه الوسيلة استطاعت الجمعية أن تضاعف عددها وتقوي نفوذها بفضل المعونة التي كانت تتلقاها من الاحرار ، كما ان اعضاء الاتحاد والترقي كانوا ينتفعون بالاساليب الماسونية في الاتصال باستنبول ، بل في التقرب من القصر ذاته .

وكان العضو الجديد لا يقبل الا اذا كفله عضو قديم ، ثم يجري له فحص دقيق . وكان العضو لا يعرف من اعضاء الجمعية اكثر من اربعة . وكان زعماء الاتحاد والترقي يعملون دائمًا من وراء الستار ، وكانت اوامر الجمعية وقراراتها تطاع بلا قيد ولا شرط

وكان لا بد من القسم بالقرآن الكريم على ان يظل العضو امينًا لجمعية الاتحاد والترقي حتى النهاية ، وكان الخونة يحاكمون امام محاكم سرية .

ويشك كثيراً في ان مصطفى كمال استطاع ان يخضع لجمعية الاتحاد والترقي الخضوع الذي يتطلبه الزعماء ، فكان من الطبيعي الا يميل الى رتبة عالية فيها ، وهو من جهته لايدلي باي معلومات في هذا

الموضوع ، كما انه لا يدون شيئاً في مذكراته الخاصة ·

ولكن من المحقق انه وان كان لم يصل الى درجة رفيعة ، فانه كان على اتصال بالجمعية ، وكان يشترك مع الاعضاء في نضالهم السياسي ، ولكنه شعر بانه ما زال مغلول اليد لا يجد فرصة لمخاطبة الجماهير والتقرب منها ، لانه ما زال يعد هارباً ، وكانت الجمعية من الناحية الاخرى تعرف هياجه السياسي فلا تسمح له بشيء

واخيراً وصلت اخبار هرب مصطفى الى استنبول ، فاصدرت السلطات الاوامر بالقبض عليه ، ولكن جميل بك الذي اصبح وزيراً للخارجية فيما بعد كان من الوطنيين ومن اصدقاء مصطفى الاوفياء فاعلمه بوصول الامر بالقبض عليه ، وانه ليس في وسعه ان يمهله اكثر من يومين للرحيل والعودة الى يافا ولكن كانت الاخبار قد وصلت الى يافا بالقبض عليه فاسقط في يد مصطفى كمال ، ولم يدرِ ماذا يفعل الا ان الظروف الطيبة ارادت ان تخدمه في هذه المرة وتفصيل ذلك فيما يلي :

« حدث بعد فرار مصطفى بقليل ان نشب نزاع عنيف بين تركيا من جانب والادارة المصرية الانكليزية من جانب اخر ، فان الانكليز لم يكونوا يكتفون بالمطالبة بشبه جزيرة سينا باسم مصر بل كانوا يرومون الاستيلاء على العقبة ايضاً ، وهي واقعة في الطرف الشمالي الشرقي من البحر الاحمر ، وتعد مفتاحا لقلب بلاد العرب ·

وكانت تركيا من الجانب الاخر تأبى التنازل عن هذا المركز الحربي الحصين بل عمدت الى حمايته فارسلت جيشاً تركياً قويا يصد عنه الاعتداءات المفاجأة

وسمع مصطفى كمال بهذه الاخبار فقصد فوراً الجيش التركي وانضم اليه فنجا طبعاً ، وكان الجيش تحت قيادة صديقه لطفي بك الذي رحب به كل الترحيب ، كما ان صديقه القائد في يافا ارسل الى استنبول يؤكد للسلطات بان الاشاعات التي راجت عن مصطفى كمال كانت نتيجة سوء الفهم ، فقد ظهر بانه كان يقيم طوال هذه المدة في بئر سبع ! . وان النزاع الذي كان قائماً بسبب العقبة قد ختم في مصلحة الاتراك الذين احتفظوا بالمدينة و بالميناء

و بئر سبع هذه هي المدينة التي خرج منها يعقوب لزيارة اولاده ومنها عاد الى دمشق

***

ورأى مصطفى ان الافضل والاسلم معاً ان ينصرف الى الهدوء — موقتاً على الاقل — فلم يقم بعمل يشتم منه الخروج على القوانين كما انه لم يظهر روح التبرم الذي كان يظهرها على الدوام ، وعلى هذا بدأ الرؤساء يرسلون التقارير الضافية عن حسن سلوكه مؤكدين انه قد تبدل تبدلا تاماً ، وانه قد اصبح يكرس كل جهوده لواجباته

الحربية و يترقبون له مستقبلاً باهراً ، وكانت هذه التقارير تصل الى مولانا المبجل في قصر يلدز العامر فيفرح بها و يقول لمن حوله : ان عقوبة النفي قد اصلحت مصطفى كمال ، كما اصلحت غيره ، وانها اسفرت عن اطيب النتائج

استغرقت هذه الحوادث سنة كاملة ، نقل بعدها مصطفى الى سلانيك نقلا رسمياً في هذه المرة ، وعهد اليه امر الاشراف على سكة حديد مقدونية ، فوجد مصطفى نفسه في موقف يساعده على القيام بالدعاية دون ان يثير حوله الشبهات ، وانه بات من الميسور له السفر الى كل انحاء تركيا فيكون الصلة بين الفرع الرئيسي للجمعية في سلانيك وسائر الفروع الاخرى في انحاء تركيا

واذا كان مصطفي كمال قد خدم جمعية الاتحاد والترقى فانه لم يكن يوافق كثيراً على برنامجها . وكان من عادته ان لا يقبل شيئاً الا بعد ان يدقق في فحصه كل التدقيق ، ولا يظهر الحماس المتقد الذي يظهره بقية الاعضاء ، لهذا كان يعد من الاعضاء المتواضعين ، والواقع انه كان يبتعد عن المواقف التي تجعله يبرز في الطليعة ، و بمعنى اوضح لم يكن قائداً من قواد الاتحاد والترقى

ونحن نختم هذا الفصل بحادث طريف يستحق التدوين

بعد ان ترملت زبيدة هانم للمرة الثانية كانت تقيم مع ابنتها الوحيدة في دار متسعة وسط المدينة ، وكان هذا المسكن الرحيب

اصلح من غيره لعقد المجتمعات السرية ، وقد جاء عنه في مذكرات مصطفى كمال ما يلي :

« حدث ذات ليلة ان عقدنا جلسة سرية في هذه الدار ، وارتابت الخادمة بسلوكنا فذهبت تواً الى امي واعلمتها ان مصطفى ورفاقه في الطابق الاعلى يتآمرون على شيء ، وانها قد وجدتنا نتحدث في امور لم تتعود ان تسمعها ، كما انها وجدت اكواماً من الذهب امامنا على الطاولة »

ويجدر بنا ان نذكر — وهذا لا تجده في مذكرات الغازي — ان الجمعية كانت تصل اليها الاموال بوفرة ، وعلى الاخص من اصحاب العقارات المقدونية الواسعة ، بسبب حرب العصابات ، فكانوا يؤيدون كل حركة ترمي الى الضرب على ايدي هؤلاء العابثين بالامن

قال مصطفى كمال في مذكراته :

« صعدت امي بعد ان سمعت حديث الخادمة الى الطابق الاعلى دون ان تحدث صوتاً على الاطلاق ، ووقفت برهة على الباب تصغى الى احاديثنا لتدرك نوعها ، وهل هي من النوع الثوري كما قالت الخادمة ام لا ، ثم عادت الى غرفتها بهدوء كما جاءت

وانتهت الجلسة السرية ، وخرج الاعضاء ، وعدت الى غرفتي لانام ولشد ما كانت دهشتي اذ اقبلت امي وكنت ظننتها قد نامت منذ وقت طويل وابتدرتني بالحديث قائلة :

اسمع يا مصطفى ، يا بنيّ ، اريد ان تقول لي بصراحة اذا كنت حقيقة تتآمر على «البادیشاه» البادیشاه الذي تجمعت فيه قوى القديسين السبعة ! ..

وكنت حتى تلك الساعة لم اخبر امي بشيء من اخبار مساعينا السرية ، ولكنني وجدت انه لم يعد من الضروري كتمان شيء عنها او ابقاؤها في حالة الجهل ، فاجبتها بصراحة

« نعم يا امي . نتآمر على الرجل الذي تقولين عنه ان قوى القديسين السبعة قد تجمعت فيه . فهو رجل ضعيف حقاً ، ونحن نحاول ان نجرده من القوة الباقية التي يتمتع بها لتحرير البلاد من شره انك يا امي تعيشين في عالم يختلف كل الاختلاف عن عالمنا ، وربما لا تستطيعين ان تفهمي الاسباب التي حملتنا على الوقوف في وجه هذا البادشاه الذي تتصورينه قويا وهو في الواقع اضعف الناس ، وان كل ما نرجوه منك يا اماه ان تتركينا وشاننا ولا تقفين في طريقنا »

وايقنت امي ان مخاوفها تحققت فهالها الامر واضطربت ايما اضطراب ، ولكنها عادت فكبحت عواطفها واستسلمت قائلة :

« اني اخشى ان لا يقدر لك النجاح يا مصطفى ... وارجح انك ستفشل ! انك ابني الوحيد ولست احتمل مصيبة فقدك ، فمجرد اشتغالك بالسياسة يملأ قلبي غماً ، سواء قدر لك النجاح في التغلب على البادشاه او الفشل !

— ولكني يا اماه قد انضممت الى المعارضين واصبح من المستحيل ان اتهرب من العهد الذي قطعته على نفسي ، ولا اظنك ترضين لي ان اكون مهزلة بين رفقائي وعرضة لتعييرهم !

— كلا يا مصطفى كلا اود ان تحافظ عَلَى عهدك مهما كلفك الامر ، فان الرجل الذي لا يحترم كلامه لا قيمة له عندي ، واني لا افهم من السياسة ما تفهم ولم اتلق من العلوم ما تلقيت ، وعلى هذا فكل ما اريده منك ان تنجح .... نعم ينبغي ان تنجح !

ومنذ تلك الساعة كنت اشرك امي في مؤامراتي ، كما اشرك اختي ، وكنت اجد من امي ما شجعني على المضي في سبيلي ، وكنت اجد من اختي ما يدفعني الى مواصلة النضال السياسي »

١٠

دستور سنة ١٨٧٦

تعددت الجلسات السرية وطالت ، واخذ الاعضاء يعرضون اقتراحات شتى تنم عن ضعف الثقة بنجاح الثورة ، ولكنها على الرغم من ذلك قد نجحت في مقدونية نجاحا محسوساً فانه في الثالث والعشرين من تموز كان البطل نيازي بك قد سار مع اتباعه الى (مناستر) بين عزف العازفين وتطبيل المطبلين ! . .

اجل ، احتفل الاتراك بافتتاح عصر جديد هو العصر الدستوري فاطلقت فيه المدافع وعلقت النشرات قبل ظهر الثالث والعشرين من تموز في كل انحاء سلانيك عن اعلان الدستور ، فحاول مدير البوليس ان يزيل هذه الاعلانات ، فاطلق الثوار عليه الرصاص فزاد الهياج واخذ السكان يتنافرون في الشوارع ، واخذ الضباط يعتلون الكرامي في وسط الطريق او في شرفات الدور يخطبون الجماهير التي تألبت حولهم .

وقد بلغت السلطات البلدية سراً ان تذعن لاوامر اللجنة المشرفة على هذه الحركة ، فاستسلمت دون اي تمنع بعد ان وجدت ان رجال

الجيش والبوليس قد ابوا ان يقاتلوا الشعب وهذا عين الشعور الذي بدأ في كثير من مدن البلقان التركية .

وابلغ السلطان عبد الحميد جماعته اعلان الدستور عن طريق وسيطه فريد باشا ، وامر اليهم برغبته الحارة في سماع قرارهم النهائي في هذه الشؤون المضطربة كلها .

واختلى سعيد باشا بكامل باشا وهما من رؤساء الوزراء سابقاً واخذا يتفاوضان مفاوضة خاصة قصيرة اعلنا في نهايتها قرارهما المشترك الصريح بان ليس هناك حل آخر غير اعادة الدستور

ويظهر ان السلطان كان لا يتوقع شيئاً غير هذا التصريح ، فاتخذ التدابير الحازمة السريعة التي كان منها احالة فريد باشا على التقاعد .

واما الداهية سعيد باشا الذي كانت له اليد الطولى في خدعة سنة ١٨٧٧ السياسية الديكتاتورية ، فقد عهد اليه برياسة الوزارة واختيار زملائه الوزراء

وذاعت الاخبار البرقية في طول البلاد وعرضها في مساء اليوم عينه ، بان عظمة السلطان قد « تعطف » فاعاد دستور سنة ١٨٧٦ وتفضل به على الامة العثمانية ؟

وما ان اقبل الليل حتى احتشد الالوف في الحي الذي اشتهر فيما بعد بحي الحرية ، وكان في احدى شرفات الفندق بعض الضباط

الشبان بينهم مصطفى كمال وهو صامت يؤثر العزلة التي الفها غير متأثر بمظاهر الحماس

واحتشد جمع كبير امام قصر يلدز ليظهروا ولاءهم للسلطان ، ولكنه رأى ان لا يظهر نفسه امام هذه الجماهير المتدفقة المحتشدة ، التي ابت ان تتفرق فما كان منه الا ان امر بجلب فرقتين حربيتين وقام الجنود ببعض الحركات العسكرية ثم تحولوا الى مكان غير الذي قصدوا اليه ظاهراً ، وكان من الطبيعي ان يلحق بهم عامة الشعب وبهذه الطريقة تخلص السلطان منهم . اما في المدن فلم يكن يسمع غير نداء واحد : بادشاهم شوق ياشا ... ليحيي السلطان !

اجل تم هذا الانقلاب دون ان تراق دماء كثيرة ، وانهار النظام الحميدي من الصدمة الاولى ، كما ينهار البناء المتصدع المتداعي

ووجد الثائرون انهم قد اجبروا ، ربما رغم ارادتهم على صيانة السلطان ذاته ، وكان الاتراك قد تعلقوا تعلقاً شديداً بعظمته بعد اعلانه الدستور ، وكان هذا التعلق هو الذي انقذ عرشه قبل اي عامل من عوامل المقاومة التي بذلها ، وصب الجمهور غضبه على بطانته الذين كانوا مستشاري سوء يخدعون مولاهم

واما اغلبية الموظفين الذين كانوا يشغلون المناصب الدقيقة في الدولة ، فقد استطاعوا الفرار بارواحهم ، ولم يتمكن الثوار من قتل

فهيم باشا ذلك الذي كان يلقي الرعب في قلوب اهالي استانبول جميعاً فمزقته الجماهير الهائجة في بروسه

وكان تحسين باشا سكرتير الدولة العام الرجل الوحيد الذي بقي في وظيفته، وعند ما طلبوا اليه ان يهرب في اقصر وقت ممكن، التفت الى الترجمان الذي اشار عليه بالاختفاء في احدى السفارات وقال له بالفرنسية

Je n'ai pas d'iradé اي « انه ليس هناك ارادة سنية » ! . .

ارادة سنية تخوله الابتعاد عن وظيفته ... وفي صبيحة اليوم التالي قبض عليه وأسيئت معاملته ثم القي في غياهب السجن !

وكان عبد الحميد لا يزال رئيس الدولة اسما، اما في الحقيقة فكان قد خسر سلطته تماماً

واما يلدز فقد اهمل حتى تخرب، واختفت معالم زينته الملكية وزالت عنه مظاهر الفخفخة والابهة، وخلت غرفه الرحبة، بعد ان ظلت حيناً من الدهر تغص بالوزراء ورؤساء الجيش والسفراء واصبح السلطان « واجهة » دستورية فحسب ولكنه لم يكن قد بلغ من الضعف الى حد القناعة بالمركز السيء الذي وصل اليه، وانما ترك تلك القناعة لخلفه الذي بلغ به الوهن مبلغه

والواقع ان القوة الادارية الحقيقية كانت في ايدى حزب « تركيا الفتاة » وكان قد بلغ عددهم ثلثمائة عضو، وما زال في نمو

بعد اعلان الدستور حتى انه في شهور قليلة اصبح عدد الاعضاء فيه يزيدون على مائة الف

والواقع ان الحزب لم يكسب اعضاء جدداً فحسب ، بل ان الاموال باتت تصب في خزينته باستمرار

وقد قدم السلطان ذاته للحزب من ماله الخاص ٧٥٫٠٠٠ ليرة وعين نفسه رئيس شرف لجمعية تركيا الفتاة

اما فرقة المتآمرين السريين فقد تضخمت حتى اصبحت حزباً سياسياً ، وبلغ من سطوتهم انهم كانوا هم الذين يعينون اعضاء المجلس النيابي فكانت اغلبيته منهم

وفي خريف سنة ١٩٠٨ قبل افتتاح البرلمان بزمن قصير ، عقد مؤتمر من اعضاء الحزب في سلانيك ، و كان هذا اول مظهر من مظاهر المباهاة بالقوة ، وكان رئيس الحزب في ذلك الحين هو الباريسي الانيق احمد رضا بك ، فوقف يخطب في اعضاء المؤتمر متباهياً ، فاظهر سروره بنجاح الحزب وتوفيقه التام ، وا كد ان المالك الاوربية ذاتها قد اظهرت حسن نيتها نحو الحركة الوطنية ، واعلنت رضاها عن حالة البلاد

وتوقفت الاصلاحات التي كانت تجرى في مقدونية فجأة

واما الضباط الاجانب في الشرطة والمراقبون الرسميون فقد انسحبوا ، بل ان ارقى المالك الاوربية العريقة في ديمقراطيتها لم تعد

تجد في تركيا التي كانت تحذو حذوها وتسير على منهجها اي نقيصة

اجل ، رأى الاوربيون انه لم يبق لهم مجال للتدخل في صميم شؤون تركيا الداخلية بعد زوال الاسباب

وشعر الاتراك انهم يمرون في عصر لم يكونوا يشتهون اجمل منه ، وان الساعة قد حانت ليروا بعيونهم ان كل امانيهم تحققت ، وان البلاد على ابواب مستقبل زاهر

اما الوف الفارين من تركيا فقد بدأوا يعودون الى وطنهم من باريس ، ولندن ، وبرلين ، والقاهرة ، وكان هؤلاء هم اقدر رجال السياسة ، وقد ساعدتهم ظروفهم الخاصة في التضلع من النظريات الدستورية التي كانت مقبولة اكثر من غيرها في القرن التاسع عشر . وكان هؤلاء المثقفون يتوقعون من اعماق قلوبهم ان يطبقوا المعلومات التي استقوها في اثناء اقامتهم خارج البلاد ، وان يحمل قانون الغرب الى بلادهم التي تحررت ولم يكونوا مفتقرين الى الذكاء ولا كان ينقصهم الحماس الجدير بالثناء ، والعزيمة الصادقة والرغبة الحارة في طلب الاصلاح

ولكن علتهم الوحيدة كما يحدث كثيراً في الشرق انهم قد انخدعوا بالافكار الغربية المزوقة ، والآراء الخلابة البعيدة عن العالم الحقيقي ، الذي نعيش فيه ، فكانت نتيجة الانخداع بالمظاهر انهم كانوا على حد تعبير احد الرجال الدبلوماسيين في ذلك الحين :

« كثيراً ما يخطون الخطوة الثانية قبل الاولى ! »

وسرعان ما اصبح هؤلاء الساسة المتضلعون في الشريعة المدنية نظراً لا كثريتهم الساحقة ، اليد العليا في حزب تركيا الفتاة

ووجد الذين اشعلوا نيران الثورة انهم اصبحوا في المؤخرة وفي ذيل الحزب وكان منهم ضباط غير راضين عن وجودهم في المراكز الحكومية ، فنيازي بك قد اعتزل بين التلال ، وقصد انور برلين كمرافق حربي

وايقن اعضاء حزب الاتحاد والترقي ان من يملك الجيش فقد ملك القوة كلها ، فسعوا حتى اصبحت السلطات ترجع في التعيينات الجديدة الى سياسة حزبية ، فكل الضباط حزبيين اكثر منهم فنيين او حربيين

واستأذن احد اعضاء الموتمر الرئيس ان يعرض سوالاً فسمح له فقال :

— هل من مبرر لوجود جمعية الاتحاد والترقي ؟

ثم استطرد :

« لقد كانت في الاصل جمعية ثوروية ، والثورة قد انتهت وفزنا بالدستور بعد الكفاح الشديد ، وعلى هذا فالسيطرة قد خرجت من يد الحزب وانتقلت الى السلطات الدستورية الشرعية ، وان ديكتاتورية الحزب لم تكن افضل من الاستبداد الحميدي

وعلى هذا فقد اصبح بالامكان الاستغناء عن الجمعية ولم يبقَ من حاجة اليهـا ، واقترح العضو بان تحل الجمعية فهتف له الاعضاء هتافاً عالياً »

اما هذا السائل فلم يكن غير « مصطفى كمال » ! .

اخذ الاعضاء يتساءلون عن اسم هذا المتكلم الذي وقف ذلك الموقف الحازم ، وحاول ان يهدم الرأي السائد في ذلك الحين فقيل لهم انه « مصطفى كمال » وانه قد اشترك في الحركة الوطنية ، ولكنه لم يكن من الشخصيات البارزة ، وهـذا كل ما كانوا يعرفونه عنه !

ووقف الدكتور ناظم بك — لسان حال السياسيين — وقد كان موقف رجال السياسة يختلف كل الاختلاف عن موقف رجال الحربية معترضاً فقال :

« ان اعمالنا لم تنجز وانما هي قد بدأت »

والواقع ان الشعب كان في حاجة الى التثقيف والاستنارة ومراقبة اعمال الدولة مراقبة دقيقة ، طبقاً لاحكام الدستور ، وان توسد شؤون الحكومة للموظفين المختبرين لان الموظفين الاحداث عادة لم يكونوا قد اختبروا الشؤون العامة الاختبار المطلوب ، ولهذا كانت الرقابة يومئذ من الامور الواجبة حتماً

وكان لا بد بعد اتساع اعمال حزب الاتحاد والترقي من وجود لجنة مركزية ثابتة لمراقبة اعمال الدستور

وقد انتخب مجلس السبعة بطريقة شديدة التعقيد ، وبقيت اسماء هؤلاء السبعة مكتومة عن بقية اعضاء الحزب ، وكان على الاعضاء ان يجتمعوا مرة كل سنة ليقدموا الى الحكومة التعليمات الضرورية

وبعد هذا العهد الذي يبشر بالخير بزمن قصير اصطدمت السفينة بالصخرة الاولى ، بعد ان كان كبار الملاحين في الدولة يحاولون تسييرها الى ميناء الديموقراطية بسلام مستبشرين متفائلين

اجل اعلنت النمسا والمجر ان البوسنة والهرسك ينبغي ان تعد من املاك الامبراطورية النمسوية المجرية

وفي عبارة موجزة انهار صرح البلقان الذي حاولوا ان يحفظوه مشيداً راسخاً في مكانه كالاهرام واجتاح امامه « حراس السلام » حتى اوصلهم الى ساحات الحرب العالمية

اما البرنس فرديناند البلغاري الذي كان حتى ذلك الحين تابعاً للسلطان فقد اغتنم هذه الفرصة الملائمة واعلن استقلال بلاده ، بينما بلاد اليونان وضعت يدها نهائياً على كريت ولم يكن في وسع تركيا وهي تعاني اوجاع الثورة وآلام الانقلاب ، ان تعترض ادنى اعتراض على ما جرى فاكتفت بمقاطعة البضائع النمسوية

وكان مصطفى كمال من بين الضباط الذين قاوموا سياسة حزب

تركيا الفتاة ، وسعى للتأثير على سير الحوادث ولكن مساعيه لم تكلل بالتوفيق ، ولم يكن في وسعه ان يستصوب الاعمال التي قام بها الثوار ، ولكن من الناحية الاخرى لم يكن يملك اي قوة لتبديل خططهم وقد ابى ان يكون آلة صماء في ايديهم وهو لو اطاع يومئذ لنال ارفع المراكز ، وعلى هذا رحب بالفرصة التي سنحت له للفرار من هذا الجو المثقل ، فرحل الى طرابلس الغرب في مهمة عسكرية

وطرابلس هذه اقليم افريقي كان من بقايا املاك الدولة العثمانية وهي محصورة بين مصر وتونس

ولم تكن مهمة مصطفى كمال هينة ، فقد كان العرب والبربر في تلك الاصقاع على غير وفاق مع الاتراك ، والسبب الحقيقي في ذلك ان القبائل المجاورة لهم في تونس المستعمرة الافرنسية ، كانت تأتيها الاموال والاطعمة بسخاء ، بينما اهل طرابلس يجدون انفسهم فقراء محتاجين الى القوت الضروري فالحكومة التركية كانت قد اهملت البلاد حتى اصبحت بوراً ، ووجد السكان انهم مقيدون في حريتهم دون طائل

وسكان هذه البرية من المتعصبين لتقاليدهم الدينية ، ويعدون اي تبديل فيها كفراً كما انهم لا يعرفون شيئاً عن المدنية الاوربية والديمقراطية الاوربية

ولسنا نعلم بالدقة مبلغ نجاح مصطفى كمال في المهمة التي جاء من اجلها الى طرابلس الغرب ، و يشك كثيراً انه نجح في استمالة سكان هذه المنطقة الفرنسية ، ولكننا مع هذا لا نستطيع ان نقول بان الجهود التي بذلها مصطفى لم تثمر بتاتاً ، والدليل على ذلك انه لما نشبت حرب طرابلس الغرب بعد ذلك بزمن قصير حاربت القبائل العربية ببسالة مدهشة الى جانب مصطفى كمال

وفي بداية شهر شباط (فبراير) عاد مصطفى كمال الى سلانيك وفي طريقه عرج على العاصمة ونزلها بضعة ايام وشاهد تبديلا في الوزارة احرى ان يقال عنه انه تبديل روائي تمثيلي ، فسعيد باشا الذي كان يسميه السلطان الصدر الاعظم اضطر الى التنحي عن العمل ، وافسح الطريق لكامل باشا ، وكان كامل باشا في ذلك الحين كهلا في الثامنة والسبعين من عمره

ولد كامل باشا في جزيرة قبرص ، وارتقى في عصر عبد الحميد بسرعة عجيبة وكان من الضباط الحميديين القلائل الذين يلقون من الاهلين التقدير ، حتى ان السلطان خاف عاقبة هذا التعلق فمال عنه واعرض

وفي خريف سنة ١٩٠٨ استقبل الاتراك السفير الانكليزي الجديد السير جيرارد لوتر استقبالا حماسياً عند وصوله الى استبول فاخرج الاتراك الخيول من عربة مركبته ، وسيروها بانفسهم وقد

رأت اللجنة انه بامكانها الانتفاع بخبرة كامل باشا السياسية وان اختلاطه بكل طبقات الشعب لا ينجم عنه غير بث السلام بين هذه الطبقات ، و يساعده على اجراء التسويات المرضية

وكانت اغلبية اعضاء الاتحاد والترقي يلقبون بالاتحاديين تمييزاً لهم عن « الاحرار » وكان مبدأهم الاساسي ان كل فرد من رعايا الامبراطورية يخوله القانون مثل الحقوق التي يتمتع بها الاتراك ، وعليه ما عليهم من الواجبات

١١

ثورة سنة ١٩٠٩

لكي يتصور القارئ مبلغ الاختلاف بين عقلية اليوم ، والامس ، نذكر ما قاله حاكم اليمن ، في جنوب بلاد العرب عند ما سمع بالمساواة في الحقوق المدنية على الرغم من الاختلاف الديني قال :

« وعلى هذا فمن اليوم وصاعداً ينبغي ان لا اسمح لاحد بتلقيب المسيحيين بابناء الكلاب » ! ...

وقد يكون هذا الشعور وليد عزلة المسيحيين ، وعدم اختلاطهم في ذلك الحين بالمسلمين ، كما يعزى الى رفضهم التنازل عن امتيازاتهم المتعددة ، ولكن الاتحاديين بدأوا يعملون بنشاط على خلق امة متجانسة ، وحتموا ان تكون اللغة التركية هي اللغة الرسمية في المدارس كلها ، و كان من الطبيعي عند ظهور هذه الروح ان يقضي على الاتحاديين عناصر الامة المتعددة

والواقع ان الاتراك لم يرحبوا بالمدنية الغربية العصرية ، وكان عدد الراغبين فيها لا يزيد على بضعة الاف ، بينما كان الناقمون عليها

٢٠ مليوناً يأبون التنازل عن عاداتهم التي توارثوها منذ اجيال عديدة

وكان العصريون رجالاً ونساء عندما يظهرون بالازياء الاوربية في الشوارع لا يلقون من الشعب غير السخط والاستهزاء

وحدث ان عدداً من النساء تجاسرن فخرجن على التقاليد وسرن في الشوارع سافرات فهجم عليهن العامة ، ووجد البوليس صعوبة عظيمة في ابعاد الاذى عنهن

وشاع على اثر ذلك ان احمد رضا بك رئيس البرلمان التركي اقسم انه سيمر بعد زمن قصير على جسر غلطة في قبعة طويلة ، وسيري ما يحدث له فكان هذا التصريح الجريء سبباً في تنظيم اعمال الاتراك الاقدمين ، وتكوين جمعية لمقاومة هذه الروح العصرية التي تفشت ، وقام « صغار » العلماء بدعاية واسعة النطاق ونجم عن هذا الهياج ان كثرت الخطب وراجت سوق الاحاديث

اما الاتحاديون فقد طلبوا من الحكومة ان تستقيل فرفض كامل باشا رئيس الوزارة الاستقالة ، وعاضده الاحرار ، ووقف رجال الدين حيارى بين الحزبين ، واصبح موقف اعضاء البرلمان حرجاً مرتبكاً فظهر على المسرح عدد من الممثلين ووقفوا من وراء الستار يسحبون الحبال ، و يجتذبون القوة المسلحة و يصعدونها على المسرح

ولما انعقدت الجلسة في اليوم التالي سار الجنود حتى وصلوا الى جامع « ايا صوفيا » وكانت ابنية البرلمان قائمة بالقرب منه ، وكان يطل على البحر · ووجد الجنود سفينة حربية راسية على استعداد للقيام بكل ما يطلب منها ، ودخل عدة مئات من ضباط تركيا الفتاة عنوة الى المجلس ، وابى كامل باشا ان يدخل مجلساً انتهكت فيه حرمته على هذه الصورة ، وصمم النواب الوطنيون ان يقترعوا على عدم الثقة بالوزارة ، فسقطت وتولى حسين حلمي باشا الحاكم العام السابق على مقدونية رئاسة الوزارة الجديدة ، فاطمأن الوطنيون وبعد هذا التبديل وهدأت العاصفة اذ كانوا على يقين انه لن يحاول ان « يلاعبهم » كما لاعبهم غيره من قبل

وكانت شكوى الوطنيين الرئيسية من عبد الحميد انه قد اضاع بعض اجزاء الامبراطورية

وادرك البرنس صباح الدين زعيم الاحرار في تركيا الفتاة ان الفرصة قد سنحت اخيراً ، وعلى هذا وضع مشروعاً لخلع عبد الحميد سراً واجلاس البرنس يوسف عز الدين الشاب مكانه ، ثم يظهر هو على المسرح كرئيس للوزراء

اما يوسف عز الدين نجل السلطان عبد العزيز المحبوب فقد لاحقه الشؤم ولازمه سوء الطالع

كان يوسف عز الدين من نواح كثيرة يشبه عمه عبد الحميد

في نشاطه العجيب ، وخفة الحركة ، ماهراً في اشياء كثيرة ، وكان في الوقت عينه يظهر من التحفظ ما كان يظهره عمه ، وهو يحاكيه في عصبية المزاج ، وكان مهذبه الخاص يقول انه سيصبح يوماً ما « عبد الحميد الثاني » ! ولكن في ابان الحرب الكبرى عند ما كان على عتبة العرش ختمت حياته خاتمة محزنة محفوفة بالاسرار ، فقد وجد كما وجد والده من قبل ، في صبيحة يوم من الايام ميتاً ، وبعض شرايينه مقطوعة

ولما شاهد احد الفرنسيين هذا المنظر صرخ قائلاً On L'a suicdé اي انهم سببوا له الانتحار !

اما البرنس صباح الدين السياسي الممتاز ، فقد اظهر هو ايضاً تأسفه لحدوث هذه الكارثة التي كان يتصور انها تلتصق بالبيت العثماني وتلازمه الى الابد

والواقع ان ثورة تموز سنة ١٩٠٨ على الرغم من نيات القائمين بها ومقاصدهم قامت على اكتاف الضباط دون استعانة بالجيش ، بينما حركة نيسان سنة ١٩٠٩ قام بها رجال الجيش دون استعانة بالضباط

اما كيف بدأت الثورة فمن الاسرار التي لم تكتشف بعد ، ولكن المعروف الان ان حسن فهمي بك محرر احدى الصحف الدينية ، وهو رجل في حد ذاته لا قيمة كبيرة له ، اطلق علية

الثوار الرصاص ليلاً وهو يسير على جسر غلطة فاردوه قتيلاً . اما الجناة فقد لاذوا بالفرار ولم يعثر عليهم كما انه لم تعرف الاسباب الحقيقية التي دفعتهم لاقتراف هذه الجريمة . والبست القضية ثوباً سياسياً واغتنمها المعارضون فرصة مكنتهم من تسيير سفينة المعارضة بقوة كما يشتهون

وازداد الهياج في الليل وكانت الخمور قد بدأت تلعب دورها فجدد الجنود حركة اطلاق الرصاص ، كيفما اتفق ، كما انهم استمروا يقتلون الضباط بكثرة ، وكان يخشى ان يحدث جماعة من الثائرين مذبحة

اجل كانت المدينة في ايدي الجنود ! . وحصنت اطنة ومرسين ، وسدت الطرق الموصلة لاستنبول في وجوه القادمين وكانت تحرسها مدافع محشوة وامامها المدفعيون على استعداد لاطلاقها

اما المشهد العظيم فقد مثل امام مسرح صوفيا التاريخي ، ففي عصر اليوم الثاني والعشرين من نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٩ كان العساكر يتمرنون كالعادة تحت قيادة ضباطهم ، ولكن في صبيحة اليوم الثالث عشر عندما خرج سكان استمبول من بيوتهم وجدوا الشوارع مكتظة بالجنود وقد حاصروا ضباطهم . وكان الضابط الذي يبدي اقل مقاومة ، او يحاول ان يمنع الفرق من السير يرمى بالرصاص ! وسرعان ما انتقلت الفتنة من معسكر الى آخر واخذ الجنود يهتفون :

فلتسقط تركيا الفتاة !

فلتسقط تركيا الفتاة !

وسواء أ كان عبد الحميد اشترك اشتراكا فعليا في تحريك الجنود ام لم يشترك ، فاعضاء تركيا الفتاة يؤكدون انه هو الذي دفعهم الى ذلك ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يأتوا بدليل مقنع على صحة هذا الاتهام ، فان مجموعات الاوراق المالية التي كان يعثر عليها في جيوب الثائرين قد تكون من خزينة السلطان كما قد تكون من خزينة رجال الدين

ولكن الامر الذي لا نشك في صحته هو ان عبد الحميد لم يحاول اعادة الحكم الاتوقراطي للبلاد ، وهو وان كان من الممكن ان يوفق في ذلك الا انه لم يفعل

اما التاريخ فسيذكره دوماً على انه كان متعطشاً للدماء

ولو انه خرج من وراء ستار الدستور الذي اجبر على اعلانه ، واعلن الحرب الدينية على اصحاب البدع العصرية ، لكن السواد الاكبر من الشعب سار وراءه في حماس واي حماس ، ولكن السلطان عبد الحميد لم يكن يتحيز لحزب من الاحزاب ، بل ترك الحوادث تكتسحه امامها ، فلم يتمكن من التأهب لها او الوقوف في وجهها ، وهو في الواقع لم يتخذ اي تدبير لصد العصاة ، ولم يستخدمهم لغاياته الشخصية بل حافظ على الدستور وخضع لعامة الشعب ، وان

كان لم يظهر اي عطف على اعضاء تركيا الفتاة

وبلغت صحة عبد الحميد حد الوهن كما ان ارادته كانت قد ضعفت ولم يبقَ امامه وسيلة يلجأ اليها غير الدهاء ، وكانت خطته الحيادية قد حرمته من عطف بقية الذين كانوا ثابتين على ولائه ، ولكنه وجد ان الاتراك جميعاً قد نفضوا ايديهم منه ولم يجد بينهم من يصونه فقد اصبح كبش الذبح !...

وقد كان بين الضحايا رجل عربي يشغل مقاماً عالياً هو النائب الامير محمد ارسلان ، فقد قتله الثائرون خطأً وهم يظنونه محرر جريدة « وطن » الذي كان مكروها في تلك الايام

ولكن هذا الخطأ المفجع ارتدت نتائجه على السلطان ، فبعد ان كانت الجالية العربية تسند السلطان باعتباره خليفة ينبغي ان ينزل من قلوب المسلمين ارفع مكانة انقلبوا عليه فاصبحوا يجاهرونه بالعداء

واخيراً طلب السلطان من الفرق ان تنسحب فانسحبت وعادت الى معسكراتها، ولكنهم قاموا ليلاً بحفلة استعراضية قبل انسحابهم فاخذوا يطلقون الرصاص في الشوارع طول الليل ، وكان من جراء هذا الهياج ان قتل وجرح عدد من الرجال والنساء والاطفال الآمنين في دورهم

وطلب الجنود تبديل رئيس الوزارة ورئيس مجلس النواب

فأجابهم السلطان الى ما طلبوا ، فلم يقفوا عند هذا الحد بل طلبوا ان يكون وزير الحربية أدهم باشا قاهر اليونانيين ، فعينه السلطان فوراً ، فعادوا يطلبون رؤوس بعض الزعماء المكروهين من الشعب فلم يستطع السلطان اجابة طلبهم

وعمد الثوار في المناطق الواقعة جنوبي اطنه ومرسين الى ذبح الارمن ، وقد فتكوا بهم دون ان يستطيع هؤلاء الى الهرب سبيلا الا قليلا قصدوا استانبول واحتمى البعض الاخر في السفارات الاجنبية

وكان لا يمر يوم واحد الا على مخاوف جديدة ، واصبحت الحكومة موضع سخرية الناس وهزئهم ، ولم يستطع رئيس الوزارة الجديد الذي كان محايداً ولا غيره من وزرائه ان يتخذ تدبيراً حاسما

وكان من الطبيعي ان يفتح الاجانب عيونهم الى هذه البلاد التي تسودها الفوضى الداخلية فبدأوا حملتهم التهديدية ، بل بدأوا في التوغل فعلا

وكان ما يجري في تلك الايام المضطربة يدفع الانسان قسراً الى الاعتقاد الجازم بان الانحلال الداخلي للامبراطورية العثمانية ذلك الانحلال الذي كان متوقعاً منذ زمن بعيد قد وقع فعلاً

١٢

خلع عبد الحميد

انتشرت الاشاعات بان العساكر تركوا مقدونية متوجهين الى العاصمة!

واستطاع بعض الفارين من اعضاء تركيا الفتاة الوصول الى سلانيك يتقدمهم « رضا بك »

والواقع ان هذا الرجل كان جريئاً في (القول) جباناً في (العمل)

وقف مرة يصرح امام اعضاء المجلس التشريعي بانه قد صمم على السير على جسر غلطة مغطياً رأسه بقبعة طويلة، ولكن هذه الجرأة التي اظهرها في تلك الجلسة لم تسفر عن شيء، فان الجسر والمارة على الجسر لم يشاهدوا صاحبنا في قبعة طويلة ولا قصيرة!

ونطوع للفصيلة الثالثة بعض البلغاريين واليونانيين اما الفصيلة الثانية فقد عسكرت بين « مقدونية » و « استنبول » وكانت كثيرة التردد في باديء الامر، ولكنها على وجه العموم كانت موالية للسلطان، ثم عادوا فوعدوا بمساعدة رفقائهم في مقدونية بعد

ان تأكدوا من الوفد الذي ارسلوه الى العاصمة ان الاشاعات الرائجة عن اغتيال الضباط كانت صحيحة

وكان قائد « جيش الانقاذ » او « جيش الخلاص » محمود شوكت باشا وهو عربي المولد طويل القامة دقيق الوجه ، عيناه غارقتان في محاجرهما وقد قال عنه الجنرال فون در جولتز ما يلي :

« لم اعرف رجلاً في تركيا كلها يشبه محمود شوكت باشا في بعد نظره وثاقب فكره »

ولما كان مقرباً من عبد الحميد كان من الطبيعي ان يرتفع في درجات الترقي السريع حتى وصل الى وظيفة حربية رفيعة ، كما سنحت له الفرص الطيبة للسفر الى الخارج في مهام حربية ، فدرس النظريات الحرة وتشبع بالمبادىء الحرة التي كانت رائجة في اوربا ، وحاول نقلها بعد عودته

لم يكن يعرف الخوف .. فهو صادق العزيمة كجندي ، ولكنه كان جباناً متذبذباً في الشئون السياسية على نقيض مصطفى كمال الذي كان قائداً باسلاً وسياسياً باسلاً

ومع ان الظروف وحدها هي التي خدمت محمودشوكت ومكنته من ان يلعب دوراً باتاً الا انه ظل على الدوام متردداً

واخيراً وجد نفسه في موقف لا يسمح له بالتردد او الاختيار بين شيئين ، فكان الطريق المفتوح امامه هو طريق الديكتاتورية

فسلكه وذهب ضحيته ، فقد اغتيل كما تنبأ هو لنفسه

وكان الطوق الحديدي الذي علق في رقبة استنبول يزداد ضيقاً على مر الايام .

وانعقد البرلمان في تلك الايام المضطربة ، واخذ الاعضاء يتباحثون في ملاءمة تلك الظروف لاجراء التفاهم مع الجيش في سلانيك ، ولكن حدث ان الاعضاء اثناء استغراقهم بالجدال فوجئوا بصورة مفزعة فقد حاصر البرلمان ٢٠٠٠ جندي وتقدم بعضهم يطلبون مقابلة رئيس المجلس

وليتصور القارىء حراجة موقف هذا الرئيس فانه قطع الامل من الحياة وادرك انه مائت حتماً ، ولكنه أبى أن يتقهقر فتقدم اليهم ولشد ما كانت دهشته اذ وجد ان الجنود الذين جاءوا هم ابعد ما يكون عن التفكير في استعمال العنف ، وانهم قد انابوا عنهم خطيباً مفوهاً في الستين من عمره ، وكان الضابط الوحيد الذي رافقهم ، ليحدث الرئيس وليبين له ان الحامية في « خادم كوى » قد جاءت كلها لتستقصي عما تم في قضية الدستور ، وعما اذا كان في خطر كما أشيع أخيراً

وتنفس الرئيس الصعداء ، وعادت اليه الطمأنينة فاخذ يرتجل خطاباً يدل على الذكاء استطاع به أن يعيد اليهم الطمأنينة التي فقدوها ويؤكد لهم أن الدستور بخير لم يمسه أي ضير

وما ان انتهى الخطيب من خطابه حتى اهتزت اعصاب الجنود اهتزازاً عنيفاً فاستسلموا للهتاف ، وهتفوا ما شاءوا من اعماق قلوبهم للبرلمان ، ولرئيس البرلمان ، ثم انصرفوا وسلم عنق الرئيس واعناق الاعضاء معه ! ! ....

اجل ، انصرف الجنود في هدوء ، وعادوا الى المحطة ليؤموا استنبول ولـكنهم بدلاً من ان يركبوا القطار الخاص الذي جاءوا فيه عائدين الى معسكرهم احتلوا المحطة ، وكان احتلالهم الفجائي سبباً لذعر الاهلين الذين حاولوا ان يفهموا السر في هذه الحركة فلم يدركوا له معنى ولم يفقهوا مرمى

أما حوانيت المدينة فأغلقت فوراً وساد الهرج والمرج وضعفت الحركة التجارية ، ونصب الجنود الخيام قرب المحطة وظل الاهلون الى ساعة متأخرة من الليل حتى عرفوا المقصد الحقيقي من هذه المناورة العسكرية واليك البيان :

تقع « خادم كويـ » على بعد ٢٠ ميلا من استنبول وقد اختار قادة « جيش الخلاص » هذا المكان ليكون ملتقى الجيوش ومن ثم يستولون عليه دون اراقة دماء ذكية

ورأوا ان يجعلوا الحامية المخلصة تنتقل من هذا المكان بالحيلة ، وكان ضباطهم قد اتصلوا سراً بسلانيك وجعلوا يموهون على الجنود ان البرلمان والدستور في خطر ، وان عليهم ان يذهبوا بلا ابطاء الى

استنبول ، وان يدافعوا عن حقوقهم المهضومة ، وان تدخلهم الفعلي في هذه القضية الوطنيةهو من الامور المستحبة، بل من الامور المحتمة الواجبة ، وان الامة لن تغمض عيونها عن افعالهم و تضحياتهم بل ستجازيهم احسن الجزاء ، ثم أعد لهم قطار خاص الى استانبول

وبعد ان انتهت مهمتهم الوطنية ؟ ٠٠ وانتصروا للدستور ودافعوا عنه ! ٠٠٠ رغبوا في العودة الى خادم كوى ، فبلغهم انه حدث في اثناء غيابهم ان فرقاً من سلانيك جاءت الى معسكراتهم واحتلتها ، وان عودتهم في الوقت الحاضر هي من الامور غير المرغوب فيها حقناً للدماء ، فوجدوا ان خير وسيلة هي ان يبقوا في استانبول

وقد شمل قصر يلدز الحزن والكآبة طول المدة التي كانت الفرق المعادية للسلطان تتقدم وتتوغل ، فانقطع السلطان عن اصدار « الارادات » وكان حتى ذلك الحين في اطمئنان على حياته

وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٩ اجتمع زوار السلطان في السلاملك كالعادة ، وصلى منهم من صلى في مسجد الحميدية القريب من قصر يلدز ، وكان السلطان يذهب كل يوم جمعة الى هذا المسجد والناس يترقبون زياراته هذه ليحظوا برؤية الخليفة

وكان يصطف الجنود على الصفين ترحيباً بعظمته

واختفى الضباط فلم يشاهد الناس واحداً منهم، وفرغت الاماكن

التي كان يقف فيها السفراء الاجانب في هذه الحفلات

وكان السلطان قد بلغ السادسة والسبعين ولكنه كان لا يزال يشعر بالقوة والنشاط

وسار السلطان بين الجنود الذين هتفوا له هتافا أعلى من هتافهم في أي وقت مضى

« بادشاهم جوق باشا »

وكان الاتحاديون قبل ذلك بزمن قصير قد ساروا الى العاصمة محتمين بالجنود ، وأخذوا يطالبون بعزل عبد الحميد ، ولم يبتوا في هذه القضية الا بعد مجادلات طويلة حارة .... أما الضباط فقد طلبوا قتل عبد الحميد ولكن بقية المجتمعين أبوا مجاراتهم في هذا العمل الطائش

وفي يوم الجمعة ذاته أذيع بيان على سكان استنبول بامضاء محمود شوكت باشا زعيم « جيش الخلاص » جاء فيه :

«ان الاشاعات التي راجت عن خلع السلطان لا أساس لها من الصحة بتاتا »

ويظن ان مصطفي كمال هو الذي وضع هذا المنشور تهدئة للاعصاب وتطييباً للخواطر ، و كان يتوخى من وراء عمله هذا اخفاء نياته الحقيقية وجذب الجماهير اليه

وفي مساء يوم السبت دخلت فرق سلانيك الى العاصمة استنبول في هدوء تام !

ووجد الجنود ان لا فائدة من المقاومة التي تتطلب تضحية غير ضرورية

وفي منتصف يوم الاحد كان محمود شوكت باشا قد احتل العاصمة وملأ السجون متحاشياً الاقتراب من قصر يلدز ، ومهاجمة الجنود التي تحميه ، ولكنه استطاع بطرق الاستمالة و الاغراء أن يجتذبهم اليه ويستميلهم بشتى الطرق ، فانسحبوا في هدوء وتخلوا عن السلطان

وكانت البلاد تترقب قرار شيخ الاسلام، واجتمع اعضاء مجلسي النواب والشيوخ واخذ الناقمون يعددون مساوئ السلطان وجرائمه واحدة واحدة فقام احد الاعضاء وقد هالته كل هذه المخازي يرتكبها رجل على رأس الدولة فألقى على شيخ الاسلام السؤال التالي :

« هل لممثلي الشعب في ظروف كهذه أن يخلعوا الخليفة ؟ »

فلم يكن من شيخ الاسلام إلا أن أجاب في عبارة هي آخر ما وصلت اليه الاجوبة في البت في مصير الحكام :

« نعم » ! . .

وفتحت أبواب يلدز في المساء وساد صمت الموت في أبنيته العديدة . أما رجال البلاط والخدم فقد تركوا مولاهم في حيرته

وهربوا بعد أن حملوا ما يمكن حمله من الغنائم والاسلاب

وأخذ عبد الحميد ينتظر وطال به الانتظار ، و كان ابنه الاصغر لا يفارقه لحظة واحدة

.. وعبد الرحمن هذا صبي في العاشرة كان السلطان قد أبقاه بجانبه في أيامه الاخيرة مجنا يصونه فان المسلم الحقيقي يتردد طويلاً قبل ان يلحق أي أذى بالاولاد الصغار

ودخل ثلاثة نواب وأبلغوا سكرتير السلطان الذي ظل أميناً لجلالته حتى الساعة الاخيرة ، انهم جاءوا يحملون في جيوبهم اماني الشعب وقراراته !

فطلب السكرتير منهم تقديم الاوراق التى معهم فقدموها فأخذها تواً الى السلطان الذي لم يسعه الا ان تأوه وقال :

« لا مرد لقضاء الله ! ان هذا القضاء ليملأ قلبي غما لأني قد عشت طول حياتي لا ابغي غير مصلحة شعبي ولكن ارادة الامة فوق كل ارادة

.. نعم ينبغي ان اخضع لارادة الامة فهي فوق كل شيء ! »

وبعد ساعات كان السلطان يودع قصر يلدز وينتقل تحت الحفظ الى سلانيك حيث وضعه الثوار في « قصر الاتيني »

واصطحب السلطان عدداً من حريمه اللواتي وجدن في هذه الرحلة شيئاً من العزاء والراحة

.. وكيف لا يشعرن بعزاء وقد عشن الى تلك الساعة سجينات ولم يكن قد ركبن قطاراً بعد !

وسمع السلطان ونساؤه اصوات المدافع تعلن بجلاء تولي شقيق السلطان على العرش !

اجل ، كان السلطان الجديد محمد رشاد قد قضى الثلاثين سنة الاخيرة من حياته سجيناً في قصر شقيقه ، وكان السلطان قد اقام حوله بعض الجواسيس لمراقبته مراقبة دقيقة لانه كان يتوجس خيفة منه

وكان السلطان يجزل للجواسيس العطاء لكي يأتوا اليه بكل صغيرة وكبيرة

وكان من جراء ذلك ان اعتل جسم محمد رشاد وانحلت قواه وتقوست رجلاه نظراً لثقل جسمه وغلاظته ، وكان وجهه الاسفنجي اصفر اللون، وكانت عيناه تدلان على ميل فطري للاحتيال والمكر ، ولكنه كان خجولاً يهلع لاقل شيء

واخذ هذا الكهل المطمئن على حياته يحتفظ بمهارته وشرفه طوال سني الاسر ، وكان يدهش الذين يخالطونه بوفرة معلوماته وغزارة مادته العلمية التي كانت تبدو جلية من حديثه .. هذا هو الرجل الذي عرف بعد تتويجه بالسلطان محمد الخامس

... واقام بعد تتويجه في قصر ضولمه باغجه الواقع على شاطيء

البسفور ، ولا بد ان يكون قد لاحظ ان الخدم قد تبدلوا بعد هذه السنوات الطويلة التي قضاها في الاسر وان رجال البلاط قد تبدلوا ! وانه اذا كان سجين شقيقه فيما مضى ، فقد اصبح سجين جمعية تركيا الفتاة التي كانت رقابتها عليه اشد من رقابة الشقيق ، والتي كانت السلطة كلها قد انتقلت ليدها .

واسرع انور عندما جاءته هذه الاخبار فعاد من برلين !

١٣

في طريق المجد

لقد كانت حالة تركيا بعد عزل السلطان عبد الحميد اشبه بحالة روما قبل ظهور قيصر ... حروب اهلية ... منازعات حزبية ... اذ ان المعارك لم تكن كلامية بل كانت قوى الامة الحربية في اصطدام عنيف تحاول كل منها هدم الاخرى

وكان اعضاء اللجنة التنفيذية لحزب « الاتحاديين الاحرار » تمييزاً لهم عن « المعتدلين » من انصار تركيا الفتاة ، لا يريدون شيئاً غير الديكتاتورية الحزبية كما هو الحال في السوفييت اليوم

كان الحزب الاتحادي يبعث الوفود الى المناطق المهمة في البلاد ، وكان هؤلاء المبعوثون من عمال التلغراف احياناً ومن الضباط احياناً اخرى ، وكانت المهام المطلوبة منهم لا تخرج عن تشديد الرقابة على الموظفين ... وعد انفاسهم .. وبث روح الوطنية في نفوس الاهلين ، ونشر الدعاية الواسعة للمدنية الاوربية بين سواد الشعب

ولم يكن القائمون بنشر هذه الدعاية العريضة من الرجال الذين يفتقرون للذكاء ، او الذين يحجمون عن تنفيذ ما يطلب منهم

بدقة واخلاص ·· ولكن الزعامة الحقيقية كانت مفقودة ·· فلم يكن بين الاتحاديين من له شخصية « لينين » الثورية ولا عبقريته الفذة

بل لم يكن بينهم من هو في صلابة « تروتسكي » وعلى هذا لم ينجح الحزب الاتحادي في كبح جماح رجال الحكومة كما تتطلب الظروف في تلك الساعة الشديدة الخطورة

وكان في كل مرة يقرب الحزب من النجاح وجمع السلطة في يده — هذا ولا شك لمصلحة البلاد ذاتها — تقوم المعضلات في وجهه

·· ويبدأ الاوربيون مناوراتهم التهديدية التي كانت تضيع معها مهابة الثائرين ، والتي كانت تشل قواهم وتضعف عزائمهم ، وعلى هذا ترجع السلطة العليا للخصوم وللناقمين على الاحرار

اجل ، كانت البلاد في اضطراب واي اضطراب ، وما كانت الحوادث التي تحدث اقل غرابة من الروايات التي تمثل على الشاشة البيضاء ، وزراء يسقطون ووزراء يجلسون مكانهم بسرعة البرق !

ابواب البرلمان لا تفتح الا لتغلق ، واعضاء يعقدون الجلسات ويقضون الليالي في الجدل الشديد ، والصخب والهياج ، تارة يستسلمون لليأس ، وطوراً يعود الامل فيعمر قلوبهم

وزراء يجلسون على مقاعدهم وهم لا يدرون أينهضون منها الى

النفي والتشريد ، او الى بيوتهم لينزووا فيها حرصاً على رقابهم ...

كثرت الاشاعات .. راجت الاقاويل ... عمت الفوضى !

وكان اعضاء الاندية السياسية يجتمعون سراً ، ويحكمون اغلاق الابواب درءاً للطوارىء ودفعاً لتطفل الجواسيس الذين كان لا يحلو لهم الا ازعاج هؤلاء الأعضاء والقاء الرهبة والفزع في قلوبهم!

وكان لا يقبل العضو الا بعد ان يفوه بكلمة « السر » وكانت كلمة السر تتبدل بعد كل جلسة .

ويكفي ان نذكر ان العضو كان يعود في بعض الأحايين مع جاره لينام بعد ان يكون قضى الشطر الاكبر من الليل في النقاش والجدال ، فيجد هذا الجار الذي يسير معه قد خر امامه جثة هامدة وان القاتل قد ولى الادبار !

وكانت الجملة التي يكثر الاتراك من ترديدها في ذلك الحين هي ان محمود شوكت باشا هو الذي قهر عبد الحميد ! وكان رجال الجيش يلاقونه بالهتاف الشديد .. وكانت الخطوة التالية — لو كان فعل — توصله حتما الى الديكتاتورية ولكنه خاف من العواقب وتهيب الموقف .. فتراجع .. ثم اختفى !

وقد تحدث « مصطفى كمال » عن العظمة الانسانية لبعض اصدقائه فقال :

« قصدت ذات ليلة قصر الكريستال ، في « حي الحرية » الذي

لا يبعد كثيراً عن فندق اولمبيا ، فوجدت الصالون مملوءاً لدرجة الاختناق ... لم اجد مقعداً واحداً خالياً .. فسرت الى الطابق الاعلى وهناك جلست بالقرب من بعض المعارف الذين كانوا امام موائد الشراب . وأخذت اصغي الى احاديثهم التي كانت في موضوع « الوطنية » .. الوطنية المتقدة .. الحماسية .. وجدتهم يتحدثون عن الثورات ، فكانوا يقولون بان البلاد تفتقر الى زعماء من « نوع آخر » .. غير النوع الذي كان موجوداً في ذلك الحين .. من النوع الاكبر على حد تعبيرهم ... اذا كانت البلاد تريد حقيقة ان تخرج من الورطة التي وقعت فيها ، وحالة الفوضى التي كانت تئن منها شر أنين !

ولكن هؤلاء المتحمسين لم يكونوا يعلمون السبل لتحقيق اغراضهم الوطنية هذه ! كما انهم ما كانوا يتساءلون عن الصفات التي تتطلبها الزعامة الحقيقية .

قال واحد منهم :

أريد ان اكون رجلاً كجمال بك . يقصد جمالاً الذي اصبح فيما بعد من رجال الحكومة الثلاثية المشهورة في التاريخ ...

فامنوا كلهم على حديثه وصرخوا :

يالله .. كم هو وطني ! برافو ! .. برافو ! .. لقد تمنيت أن تكون رجلاً عظيماً حقا ! ..

وقال ثانٍ :

ينبغي ان يكون الرجل هو ذاته عظيماً قبل ان يسعى الى تخليص بلاده !

وقال ثالث :

ان المقدرة على الحديث وحدها لا تجعل الرجل عظيماً .. دع الرجل أولاً « يخلص » لبلاده .. ولا ينتظر العظمة .. فالعظمة تأتيه من تلقاء ذاتها !

وبعد ايام قليلة جمعتنى الصدف في الترام بجمال بك ، وكنا في طريقنا الى فندق اولمبيا .. وكان جمال قد كتب في ذلك الحين افتتاحية احدى جرائد « سالونيك » فلما رآني قدم اليّ الجريدة التي كان ممسكا بها وقال :

— هل قرأت هذه المقالة ؟ — لا

— إذن اقرأها .

فقرأتها وأعدتها اليه

— وما رأيك فيها ؟

— لا تخرج عن اقوال الجرائد العادية .

— ولكن اسمع .. إني انا الذي كتبت هذه الافتتاحية . وانا لست من الكتاب العاديين !

— آسف . لم اكن اعلم انك « انت » الذي كتبت هذه المقالة

ولكني مع هذا كنت اتمنى ان لا تكون « انت » الذي كتبتها ·

واسطردت الحديث :

« لا تخضع يا جمال لاصحاب العقول الفارغة الذين يحاولون املاء ارادتهم علينا املاء · ان هتاف العامة وتصفيقهم هي حركات اقرب للهزل منها للجد · لاقيمة لها على الاطلاق · انك تقضي على مستقبلك، ان العظمة ليست عن طريق جذب الجماهير، والاستسلام لصغار الاحلام ، وهي ليست عن طريق قذف التراب في عيون الناس ، ولكن العظمة الحقيقية ان تبحث عن حاجات البلاد الاساسية القصوى ، وان تسعى الى تحقيق هذه الحاجات بكل ما وهبك الله من قوة · وعقل · ومواهب

أجل ، سيحاول الكثيرون ان يصدوك عن طريقك فلا تقاومهم ، ولكن لا تجعلهم يؤثرون عليك · سر في طريقك الى النهاية ولا بد ان تشعر بصغرك · وضآلتك · وحاجتك للمعونة، معونة ابناء وطنك لا معونة الاجانب · عندئذ تصل الى المجد · المجد الذي تحلم به وتنشده · عندئذ يمكنك ان تذلل العقبات التي تقف في طريقك · وتكون حقيقة من العظماء الافذاذ »

وكان جمال يصغي الى حديثي هذا وهو مستسلماً للصمت · وقد تأثر من انتقادي مقالته « الافتتاحية » · ولكن حديثي عن العظمة انساه مرارة الانتقاد »

١٤

مجلس السبعة

بعد سقوط السلطان عبد الحميد ونوال البلاد الدستور، انتهت تلك الحياة التي كان يتمتع بها الجندي التركي، اي حياة السكون والنعاس والكسل والخمول!

وبعد ان كانت لا تقضي الحامية في التمرينات اليومية غير مدة وجيزة، أصبحت تسير المسافات الطويلة المرهقة التي كانت تستغرق النهار بطوله، تؤدي المناورات العسكرية

وكان الجنود يتمرنون باستمرار على إطلاق الرصاص، واستعمال المدافع! وكان ذلك محرماً في العهد الحميدي!

وكان سير الجيوش في الشوارع مع فرقها الموسيقية الحربية مدعاة لسرور الاهلين الذي لا يوصف، وكان اغتباطهم هذا ينسيهم الفوضى التي استحكمت حلقاتها، ويحجبهم من الاضطراب الفكري الذي كان يتجسم في اوضح اشكاله، في الفصول المضطربة التي كانت تنشرها الصحف التركية في ذلك الحين

وكانت البلاد لا تخلو من اناس لا يرضون بهذه «التنظيفات»

العامة والجلاء والصقل ، بل كانوا يرون ان البلاد في حاجة الى الهدم والبناء من جديد

وكثيراً ما كانوا يخفضون درجة « الجنرال » الذي بلغ ٣٠ سنة من عمره في الجيش الى درجة « ملازم » بسيط امعاناً في القضاء على القديم !

وكان محمود شوكت باشا وزير الحربية يرى ان الجيش ينبغي ان يكون تحت امرة « الدولة » لا تحت تحكم « الاحزاب » ولهذا اصدر اوامره المشددة التي حرم فيها تحريماً باتاً انضمام اي ضابط لهيئة من الهيئات السياسية ، ولكن هذه الاوامر لم تنفذ وظلت حبراً على ورق !

كانت أشبه بالاصداف الفارغة التي لا قيمة لها !

كان مركز اقامة « مصطفى كمال » في « سالونيك » وكانت تزداد شهرته تدريجياً ، وكان على اتصال دائم بالمراكز التي يمكن الانتفاع منها في زيادة خبرته الحربية ، وكان يشترك في كل التمرينات الحربية والمناقشات العسكرية الفنية ، ويعني بكتابة مذكراته بصورة منتظمة وتدوين ملاحظاته الانتقادية فلا يترك شيئاً يراه او يسمعه الا انتقده وعرف قيمته الصحيحة

وكان يبث بين هذه المواد مقتطفات من كتابات « مولتكي » وفقرات عن « الحملات النابليونية » .. ولم ينس أن يكتب بالحروف

اللاتينية تحذيرات « نابليون » الدائمة لقواده

activité activité vitesse !

كما كان يدون كل ما يتراءى له عند دراسته الدقيقة للثورة الافرنسية . وكانت السلطات تعتقد بانه من اكثر الضباط طموحاً .

ووقع الاختيار عليه ليصحب الجنرال رضا باشا في البعثة التركية التي اشتركت في خريف سنة ١٩١٠ في المناورات الفرنسية الكبرى .

وكانت هذه هي المرة الاولى التي يتجاوز فيها حدود البلقان ، ويزور اوربا فرأى جيشاً عصرياً منظماً . كامل المعدات الحربية الفنية . رآه كتلة واحدة . . . . كتلة واحدة لا اثر للانقسام الديني فيها او التنازع الجنسي . . . او التطاحن الطائفي . . . هذه المنازعات التي كانت قائمة محتدمة في بلاده . . فكان يلاحظ كل شيء . . ويستفيد من كل شيء ! . .

وقد قال لي الجنرال حسين رضا باشا عن مصطفى كمال :

« إني أعلم ان مصطفى كمال من الضباط الصريحين وقد اظهر كفاءة ومقدرة . . . حتى في حل المشاكل التي حار فيها كبار القادة الفرنسيين ! . . . كان يحكم على الامور حكماً صائباً يدل على دقة الفكر واتقاد الذهن » !

وعاد « مصطفى كمال » الى بلاده وهو أكثر من اي رجل

آخر شعوراً بوهن الجيش التركي، واضطرابه، وافتقاره للنظم الحديثة

ولما كان عقل مصطفى كمال رياضياً في دقته لم يكن للتصورات الشرقية مكاناً في عقله كما كان لا يجاري التركي في محاولته لرؤية الاشياء كما «يجب» ان ترى لا « كما هي » في حقيقتها . . . وبمعنى آخر لم يكن يريد ان يظل مخدوعاً كغيره ، فكان يفصل فصلاً تاماً بين ما هو مرغوب فيه ، وبين ما يمكن الوصول اليه

كان يخرج في بعض الاحايين عن الهدف الذي يرمي اليه لشدة رغبته في تطبيق المعلومات الحربية التي نوصل اليها

ولم يتأخر عن ابداء رأيه في المناورات الحربية . كما انه في الوقت عينه لم يكن يتأخر عن انتقاد ما يرى انتقاده من التعليمات والاوامر التي كان يصدرها الرؤساء ، بل ذهب الى ابعد من الانتقاد فكان لا يطيع الاوامر التي يرى انها عديمة الجدوى ، وما الى ذلك من ضروب العناد والاصرار التي لا يمكن ان تحتمل في الجيوش الاوربية المنظمة، وكثيراً ما كان كبار الضباط يتضايقون من انتقادات مصطفى كمال ولكن الذي كان يضاعف من ضيقهم ان مصطفى كان في جانب الصواب دائماً . . . أجل ، كان مصطفى في جانب الصواب في آرائه السياسية كما كان في جانب الصواب في آرائه الحربية

وكان من الطبيعي ان يحاول الضباط التخلص منه وعلى هذا اوكلوا اليه قيادة إحدى الفرق البعيدة ، ولكن الحوادث السياسية عادت لجذبته بقوة ، وكانت شقة الخلاف تتسع بين «الحربيين» و«المدنيين» وبدلاً من تحسن الحالة بعد اعلان الدستور ، كانت الحالة تزداد سوءاً على سوء . . . : كانت هناك سلطة «منظورة» واحدة هي التي تتصرف في الامور ، ولكن بعد اعلان الدستور ضاعت هيبة هذه السلطة وأصبحت الفوضى متفشية في البلاد !

عادت عناصر الجيش المتجزئة الى التناحر والتنابذ

وكان حزب الاتحاد يزداد قوة ، ومع القوة تهديداً ووعيداً . . وكان يعتمد في قوته على الجيش . ولهذ كان يقرب من يود تقريبهم ويدفع بهم الى الوظائف العالية ليشغلوها . وانتعشت حركة التآمر والدس من جديد

وفي شتاء سنة ١٩١٠ — ١٩١١ بدأ صغار الضباط في «سالونيك» يلتفون حول «مصطفى كمال» فكان في بادىء الامر يجتمع مع افراد فرقته مرة كل اسبوع للبحث في بعض المواضيع المختصة بتنظيم الجيوش ، والقيام بالحركات العسكرية ، وعلى مر الايام انضم اليه بعض الضباط من الفرق الاخرى ، ولكن هؤلاء لم يعودوا يكتفون بالشؤون الحربية وحدها ! . . . ومرعان ما

أخذ الجواسيس ينقلون اخبار هذه الحركة الجديدة التي كانت تدعو للارتياب الى استنبول ! ..

وطلب « مجلس السبعة » معاقبة « مصطفى كمال » اشد عقوبة، وكان محمود شوكت باشا وزيراً للحربية في ذلك الحين ... وقد يكون موافقاً بعض الموافقة وقد لا يكون .. ولكن الذي حدث انه في ربيع سنة ١٩١١ . جرد مصطفى كمال من قيادة الالاي الذي عهد به اليه ، وكانت حجتهم في ذلك انه قد حاول استفزاز الجيش ليثور ضد الحكومة فاستدعى فوراً للعاصمة ...

وربما كان القصد من استدعائه على وجه السرعة زيادة التشديد عليه . وعهد اليه بعمل في القيادة العليا

وتوترت العلاقات توتراً شديداً بين الدول الاوربية في تموز سنة ١٩١١، فكانت فرنسا تريد ان تبقى هي الحاكمة المطلقة في مراكش وكانت انكلترا قد امتلكت السودان وحل مكان ادوارد السابع الذي توفي قبل ذلك بسنة واحدة « السير ادوارد جراى » وكان يخطب في مجلس النواب الانكليزي ويؤكد للاعضاء بان الحرب قد اصبحت على الابواب ، وان الاسطول البريطاني قد تجمع في بحر الشمال

وكان العالم الاسلامي يتتبع كل ما تجريه الدول الاوربية في قضية مراكش ويترقب اصطدامها العنيف ، وكانت الدول تريد ان تضع حداً لاستيلاء الممالك الكبرى على الولايات الصغيرة

وكان يتساءل الناس ترى هل يقدم غليوم الثاني وينتفع بهذه الفرصة الطيبة ، ويعلن للدول انه أصبح حامي حمى الاسلام

وطرحت الاسلحة المبيدة وهدأت الثورة في استانبول وبدأ الاتراك يستسلمون كعادتهم للاحلام اللذيذة ·· والآمال الحلوة·

وتمتع الاهلون بعصر ساده الوئام والكل يترقبون عصراً جديداً

ونعود الى يوميات أنور فنجده قد قال لنا جملة فيها كل المعنى قال :

«لقد تركتنا الدول الاوربية وشأننا !» ·

وسافر مصطفى كمال الى طرابلس مع بعض رفقائه واضطروا للذهاب عن طريق مصر ·· وكانت انكلترا هي الحاكمة عليها فارادت ان ترضي ايطاليا بملازمتها لخطة الحياد التام

فاتخذت التدابير الشديدة لمنع مصطفى كمال ومن معه من دخول البلاد

ووصل مصطفى كمال وجماعته الى الاسكندرية فقبضت السلطات على اثنين من رفقائه مع أنهما كانا متنكرين في ثياب بدوية

وحاولت السلطات القبض على مصطفى كمال ولكنه استطاع الهرب بفضل مساعدة ضابط مصري عرفه من شعره الاشقر وعينيه الزرقاء · وبعض الاوصاف الاخرى التي كانت قد وصلته عنه

وكان المصريون يعطفون على الاتراك عطفاً خاصاً ، ولهذا لم

يستطع الضابط تنفيذ الاوامر التي صدرت اليه ، وهرب بحيلة لطيفة فسافر مصطفى الى طرابلس الغرب التي طالما تمنت نفسه الذهاب اليها

ووجد مصطفى نفسه في موقف يدعو لليأس ، فان القلاقل كانت لا تزال مستمرة وقد أيقن انه عاجز لا يستطيع ان يفعل شيئاً ، وانه قد قطع كل علاقة بينه و بين السياسيين السابقين ، وان أعضاء تركيا الفتاة لا يقربونه منهم لانتقاده الشديد لأعمال الشخصيات البارزة بينهم ، ولانهم كانوا يتركون القيادة لعدد كبير منهم !

كانوا لا يثقون به ولكنهم في الوقت عينه كانوا لا يستطيعون جذبه اليهم . وكان هو من ناحيته لا يحاول البروز في الطليعة ، بل كان يتعمد ان يكون دائماً « في الذيل » .. أجل . لم يرغب في منافستهم على مراكزهم التي كانوا يحتفظون بها احتفاظاً شديداً

واخذ مصطفى كمال يتمنى العودة لبلاده في اقصر وقت ممكن ، ولكن الطريق المختصر كان موصداً ، ولهذا كان عليه ان يختار طريقاً آخر وهكذا كان فوصل الى ايطاليا ومنها الى تركيا بعد ان بقي مدة طويلة يتنقل في قطارات السكة الحديدية ، ماراً في رحلته على النمسا ، فهنغاريا فرومانيا

ولما دخل استمبول في نهاية تشرين ثاني سنة ١٩١٢ ورأى انه قد تم انهزام الجيش العثماني في اسبوعين الامر الذي أدهش العالم باسره

كان « ناظم باشا » القائد العام للجيوش التركية ، وزيراً للحربية ، وكان في ذلك الحين في اوج مجده ، وكان يحاول تخليص ارض الاباء وان يتحدث الناس عنه انه القائد الحربي الذي انتشلها من وهدتها ، ولكن خدعه الحربية قد فشلت كلها ، وكانت نتيجتها ان اضطر الى الهرب والفرار ، ووصل الاعداء الى ابواب العاصمة

وكان الجوع يفتك بالاهلين اكثر من فتك الرصاص !!! بينما تقع استمبول الغنية بالخيرات على مقربة منهم !! وكانت الكوليرا تحصد الجماعات المتلاحمة حصداً ! ! !

والتقى مصطفى كمال بامه وشقيقته بين الفارين من مقدونية وسالونيك وقد عثر عليهما بعد بحث طويل واستطاع ان يضعهما في مكان حريز ، ثم تقدم مصطفى كمال الى شبه جزيرة غاليبولي وانضمت اليه عدة فرق جديدة كانت قد وصلت من الاناضول

وكان « كامل باشا » رئيساً للحكومة في ذلك الحين ، قد قارب التسعين ، وكان « الداماد فريد باشا » الذي اصبح فيما بعد عدواً للكماليين — لاول مرة في تاريخ حياته رئيسا لمجلس الشيوخ ، ينتصر للملكية و يدافع بحماس عنها ، وقد تلقى علومه في اكسفورد ، ولا يختلف في مظهره الخارجي عن « الجنتلمان » الانكليزي ، وفي الوقت عينه كان ينتظر معونة الانكليز ومساعدتهم ، ولكن اصدقاء الانكليز وجدوا ان آمالهم قد خابت ! ! !

فقد طلبوا من تركيا — اذا استثنينا ركناً صغيراً في شمال العاصمة — ترك أملاكها الواسعة في البلقان كلها ، واهم جزيرة في بحر ايجه الواقعة امام الدردنيل

ولم يبقَ في حيازة الاتراك من الاراضي الاوربية غير استمبول والمضايق !

وكان البرلمان منحلاً في ذلك الحين فأراد كامل باشا ان يخلص نفسه من عبء المسؤولية ، فاستدعى عدداً من كبار الساسة والقواد وكوّن « ديوانا » على النظام القديم ينظر في هذه الشئون كلها

وطالت المناقشات واحتدمت ولم تسفر عن نتيجة ، ولكنهم عادوا فوجدوا ان القضية لا تحتمل التلكوء لان انور بك قد وصل الي العاصمة

١٥

١٣ زعيما على اعواد المشانق

وصل انور الى استنبول ، وانور هذا كان اكبر مقلق لراحة الاتحاديين ، فقد كان مصدر اتعابهم ومصائبهم

وسمعوا في تركيا ان خديوي مصر قد اكرم وفادته ورحب به اجمل ترحيب ، واولم له الولائم عندما مر في طريقه الى مصر

أجل ، وصل انور الى استمبول في الثامن عشر من كانون الاول سنة ١٩١٣ فوافق الاتحاديون على شروط الصلح بالاجماع بعد ان عقدوا عدة جلسات سرية

وفي الثالث والعشرين منه قبل اعضاء الديوان على الرغم منهم التنازل عن ادرنة والتخلي عنها !

ولم يشعر الاتراك بذل ومهانة كما شعروا يوم تنازلوا عن «ادرنة» وكان على « السلطان » ان يعلن موافقته بوثيقة رسمية يبعث بها الى لندن ، ولكن بينما كان السلطان يفعل ذلك سمعت اصوات ضوضاء في الخارج ، فنهض ناظم باشا وزير الحربية وخرج ليري ما الخبر ، فوجد ان انور قد احتل غرفة من غرف قصر الباب العالي ومعه مائتا رجل من اتباعه الاوفياء

وكان « ناظم باشا » يدخن سيكارته في ذلك الحين وقد وضعها في فمه ، فاقترب من هؤلاء وصرخ فيهم على صورة هي اقرب للمزح منها للجد :

« مرحبا يا شباب .. مرحبا يا شبان !!! لماذا كل هذه الجلبة ايها الاولاد ! الا تعلمون انه بصياحكم تعرقلون اعمالنا وتحرموننا من التفكير في جو هادىء !!! »

وهنا دوت عدة طلقات خر على اثرها ناظم باشا جريحاً جروحاً مميتة ! .. ووضع يده على صدره وقال :

« قضى الكلاب عليَّ !!! » ولا نعلم مبلغ هذه الرواية من الصحة !

ويؤكد الذين اشتركوا في هذه المؤامرة ان وزير الحربية قد ذهب ضحية رصاصة طائشة وانهم لم يكونوا ينوون قتله مطلقاً

وساد الهياج . فتقدم انور يحمل مسدسه في يده اليمنى ومسدساً آخر في يده اليسرى ، وقفز على كرسي وهدد بقتل كل رجل يقدم على تهديد سواه بالسلاح

واستطاع انور ان يفعل ما فعل نابليون بعد عودته من مصر ، فقد شتت رجال الحكومة ، وجعل نفسه رجل الدولة الوحيد الذي انعقدت عليه آمال امة باسرها ، ولكنه كان حتى هذه الساعة متردداً في ان يحمل كل هذه المسؤولية فترك الامر لحكمة محمود شوكت باشا

ودخل محمود شوكت باشا الى قصر الباب العالي كالزعيم الاوحد للامة ، هذا المركز الذي كان من الممكن ان يصل اليه لو كان قد اظهر شيئاً من الجرأة قبل ذلك باربع سنوات

اما الديكتاتوريون فقد كانوا يبررون رفضهم لشروط الصلح بنجاحهم الحربي

وكان اول عمل يطلب منهم تخليص قلعة ادرنة التي كانت محاصرة من البلغار ولهذا السبب فكروا في التقدم الى شواطيء بحر مرمرة في الاتجاه الشمالي الغربي

وكان انور بك الروح المحركة الفعالة في الحركة الوطنية وان لم يكن القائد الرسمي

واجتمعت فصائل الجيش في شبه جزيرة غاليبولي ، وكانت قد صدرت الاوامر لمصطفى كمال ان يكون في هذه المنطقة وان يتقدم الى الامام

وكانت الفرق التي يقودها مصطفى اول الفرق التي اصطدمت بجيوش الاعداء ، ولكنه ترك دون ان يقدموا له المعونة في احرج المواقف فانهزم شر هزيمة ، ولم يكن امامه وسيلة اخرى للنجاة غير الفرار السريع ... وفشل المشروع فشلاً تاماً ، فازدادت الريبة في مقدرة انور على القيادة الحربية ، وقلت قيمته في نظر سواد الشعب

وتزوج انور المحظوظ السلطانة نادية في جو محفوف بمظاهر الابهة والفخامة

ومنذ ذلك الحين ابتدأ يبدل نظام حياته ويعيش عيشة الامراء

واضطرت حكومة محمود شوكت ان تمضي عين الشروط التي رفضت قبولها ، بحجة انها مجحفة بحقوق الاتراك مضيعة لكرامتهم كأمة تعتز بماضيها

وبعد هذا الفشل الظاهر من جانب الاتحاديين بدأ المناظرون لهم يتقوون ، ويزداد نفوذهم ويدبرون المؤامرات سراً

وشعرت السلطات في استمبول ان حركة المؤامرات قد انتعشت من جديد ، ولكن حدث ان احد هؤلاء المتآمرين قد افسد الطبخة كلها فقام بعمل من اعمال العنف

وكانت الحكومة شديدة الحذر ، تتوقع انفجار الثورة في كل ساعة ولهذ احتاطت للامر ، وطبقت القانون العرفي بصرامة

وفي الخامس عشر من شهر (حزيران) سنة ١٩١٣ طلب من محمود شوكت باشاان لا يظهر امام الجماهير الا بعد ان يكون قد اتخذ آلاف الاحتياطات حفظاً لحياته ، ولكن يظهر انه كان في ذلك اليوم مسروراً سروراً غير عادي ومستسلماً لارادة الله كل الاستسلام فلما قيل له ان يكون على حذر كعادته صرخ فيهم :

« ان المستقبل بيد الله » !

وركب عربته من وزارة الحربية الى قصر الباب العالي ، ولكن ما كاد يفعل ذلك حتى دوت خمس رصاصات ووجد رئيس الوزراء مقتولاً في مكان قريب من مسجد بايزيد ، وكان يظن ان اغتياله انتقام لموت ناظم باشا

واقترفت حادثة الاغتيال هذه في انسب الاوقات فوضعت في ايدي اعضاء تركيا الفتاة سلاحاً ماضياً تقضي به على المعارضة قضاء تاما

وقام جمال بك وجمع السلطة الحربية كلها في يده ، واصبح الحاكم المطلق في استمبول ، وقد استطاع ان يقبض على ناصية الامور بشدة قبل ان يقف الاتحاديون على نياته

اما الداماد فريد باشا والبرنس صباح الدين ، فقد سمح لهما بالهرب ، واما المعارضون الآخرون فقد كان مصيرهم النفي ، وكان عدد القتلى من الزعماء ثلاثة عشر زعيماً !

ولما وصلت الاوراق للسلطان لامضائها لتنفيذ القتل في هؤلاء الثلاثة عشر وافق على قتل اثني عشر منهم دون تردد ، ولكنه لما جاء الى الاسم الثالث عشر سقط القلم من يده فقد كان المراد قتله هو « الداماد صالح باشا » ! ولم يكن الداماد صالح باشا غير صهر السلطان !

أجل ، جثا السلطان ذاته امام طلعت بك والتمس الرحمة لزوج

ابنته ، ولكن اللجنة التي كانت تحكم في البلاد كما تريد ، كانت تجد في قتل هذا الصهر مظهراً من مظاهر قوتها و بطشها ، ولم يكن ذلك لان للداماد صالح باشا السيء الحظ مقاماً بارزاً بين المعارضين بل لانهم ارادوا استغلال هذه الفرصة ليظهروا للملأ بطريقة واضحة جلية ان اقرب الناس للسلطان لا يجدون من يصونهم من غضب الاتحاديين الهائل ، ولا من يحميهم من انتقامهم المريع !

واجبر طلعت بك السلطان محمد الخامس على الامضاء

وفي صبيحة اليوم التالي كان صهر عظمته معلقا على المشنقة يعلن في افصاح ما بعده افصاح ان « اللجنة » هي التي تحكم البلاد لا « السلطان »

ومع هذا فقد كان لهذه التدابير الصارمة اثرها !

توقفت الحروب الاهلية ، وانقطعت المعارك الحزبية ، وتمتع الاهلون بالسلام ، ولم يجسر احد من المعارضين على المجاهرة بآرائه وانتقلت مراكز المعارضة فاصبحت في باريس ، ولندن

وكان المعارضون في الخارج يحاولون القضاء على ديكتاتورية الاتحاديين ، كما كان الاتحاديون يحاولون القضاء على السلطان عبد الحميد

وعلى الرغم من تكشيرات الدول الكبرى ، سار الجيش التركي في شهر اذار قاصداً ادرنة ، وكانت القيادة العليا في يد مصطفى كمال وانور

و بينما كان الجيش على مقربة من ادرنة طلب انور من القائد العام ان يأذن له بالانضمام الى الفرقة الامامية التي تسير في طليعة الجيش ٠٠ ولم تجد هذه الفرقة غير مقاومة ضئيلة من البلغار بين

ويوم عيد الثورة التركية في الثالث والعشرين من تموز (يوليو) سنة ١٩١٣ تمكن انور على رأس فرقة من المشاة من دخول المدينة ، وعلى هذا لقبه الناس بفاتح ادرنة كما جاء في البرقيات التي اذيعت في العالم كله

١٦

أنور باشا

وجاء شتاء سنة ١٩١٤ فوجدت تركيا في اوج مجدها و ناس ثروتها قد تضخمت

وكانت «صوفيا» مركزاً للملاهي وهناك رغبة ملحة من الاهلين في التمتع بملاذ الحياة الى ابعد حدود التمتع .. وترك الحروب ... والابتعاد عن سفك الدماء ..

وكان مركز الحياة الاجتماعية في صوفيا قصر السلطانة Ratsho Petrov وهي سيدة معروفة في كل انحاء البلقان بانها محدثة بارعة .. ومؤلفة من اقدر المؤلفات . وكان يجتمع في صالات استقبالها ساسة من الشرق والغرب ، فتجري الاحاديث في جو هادىء و بنجاح لا يمكن الوصول اليه عن طريق المراسلات الرسمية

وكان من بين ضيوفها الممتازين السفير التركي فتحي بك ، وهو رجل عالي ، ذكي ، رشيق و كان في الاصل ضابطاً ولكنه قصد باريس وتعلم السياسة من الساسة الافرنسيين ، واستطاع بعد عودته ان يشغل اعلى الوظائف في تركيا الحديثة

وكان «فتحي بك» لا يفارق مطلقاً ملازمه الحربي «مصطفى كمال بك» الذي كان قد وصل في ذلك الحين الى درجة « قائمقام »

وتوثقت العلاقات بين هذين الرفيقين منذ عهد التلمذة ، وكانت ثقة الواحد بالآخر غير محدودة ، على الرغم من اختلاف ميولهما وتنوع امزجتهما ، فان فتحي بك كان محدثاً بارعاً كما كان صريحاً الى ابعد حدود الصراحة ، بينما كان مصطفى كمال بك ناشفاً في حديثه ، كثير الوجوم والصمت . وكانت هيئته لا تختلف عن هيئة الجندي . وكان لا يشعر في غرفة الاستقبال بانه موفق في الحديث التوفيق الذي يصل اليه غيره كما ان مظهره الخارجي لم يكن ليجذب الغادات ، ولهذا لم يكن في نظر الشابات « بطلاً » او « شبه بطل » على نقيض فتحي بك الذي كان في نظر المرأة التركية مثلاً للجمال الذي تتعشقه في الرجل

وكان من بين الفاتنات في ذلك الشتاء ، في صوفيا ، ابنة الجنرال kovatchev وكانت لا تزال شابة في ربعان شبابها تزينها عدة خصل من الشعر الاسود كما ان فتنة عيونها السوداء كانت تترك من يتطلع اليها يقف حائراً امام هذا السحر وهذه الفتنة

وكان مصطفى كمال في مقدمة المفتونين بهذا الجمال الباهر ، ولكنه لم يكن يجيد حديث الصالونات ، ومع هذا كله كانت تجد

هذه الغادة « شيئاً » من السرور في التودد اليه والتقرب منه ، ولكنها لما كانت شديدة الولع بالرقص كانت تتركه لترقص مع العدد الذي لا يحصى من الشبان الذين كانوا يرتمون تحت اقدامها

وكانت كلما بدأت الرقص ، ترك مصطفى كمال القاعة فوراً لانه لم يكن يحتمل رؤيتها بين ذراعي رجل ! . فكان يختلي مع بعض رفقائه في غرفة منزوية وينصرف الى التلهي بلعب الورق ولكن « المغناطيس » كان يجذبه بشدة وعنف فيترك اللعب فجأة ، ويعود الى المرقص ليملأ عينيه من سحر فاتنته ثم يعود متحسراً الى لعب الورق !

وحدث ان انقطع مصطفى كمال فجأة عن دخول قاعة الرقص ، وتوترت العلاقات بينه و بين فتحي بك ، واقتصر على لعب البريدج على الرغم من الحظ السيء الذي كان لا يفارقه كلما لعب !

وراجت الاشاعات بان السر في هذا الانقلاب انه قد « كسف » كسفة لم يحتملها وان الكسفة كانت من الوزن الثقيل !

وسواء أكان قد انكسف او لم ينكسف فقد كان الرجل غير موفق في الحب وكان المجد الذي ينتظره والانتصار الذي يترقبه في المعارك « الحربية » لا « الغرامية »

***

تولى وزارة الحربية بعد وفاة محمود شوكت باشا المرشال عزت باشا ، وكانت هذه هي المرة الاولى التي يتقلد فيها هذا المنصب

وعزت باشا من اصل الباني ، ومن عائلة اقطاعية نبيلة · كان جنديًا قديراً ولكنه اضطر للاشتراك الفعلي في السياسة ! · · عرضت عليه وزارة الحربية في بادىء الامر فرفضها ، ولكن الذي دفعه لقبول هذا المنصب بعد رفضه اعتقاده الجازم انه اذا ابى فلا بد ان يتقلد الوزارة أنور ! · واذا تقلد الوزارة انور ، فخراب الوطن من الامور المؤكدة ، ودماره من الامور التي لا مفر منها !

وسرعان ما اصبح هذا الرجل موضع ثقة الناس جميعاً ، للصفات المثلى التي كان يتحلى بها · وفي مقدمتها دماثة اخلاقه ولطفه ورزانته ، واعتداله وفطنته التي كانت احدى مفاخره ، واخلاصه الذي كان يعترف له به حتى الناقمون عليه !

وابى « عزت باشا » الانضمام لحزب من الاحزاب · بل فضل ان يلازم خطة الحياد التام

ولكن الحياة لم تكن تتطلب في ذلك الحين الحياد ! ولهذا كان « الحياد » السبب الرئيسي في فقدانه لمركزه ، فاضطر الى اعتزال العمل بعد زمن قصير ، ولكنه كان يعود اليه كلما اشتدت الازمات وتفاقمت الخطوب · · اجل ، كان يعود كالطود الشامخ القوي ليسند البلاد في ازمتها ، وليؤدي واجبه الوطني في محنتها

وعند ما منحت الدول الاوربية الاستقلال للالبانيين عرضوا العرش على عزت باشا فرفضه وقال في تواضع :

« لا ارغب في العرش لانني افتقر الى الثقة بنفسي » ! هذا ما قاله طلعت عنه وقد يكون للرجل اعذار اخرى تبرر رفضه ، فان الجلوس على العرش ، حتى ولو كان الجالس عليه من الالبانيين ، كان يعد بلا جدال في مصلحة تركيا

وترك المارشال عزت باشا مركزه لانور باشا الذي اصبح جنرالا ، والذي استطاع وهو يعد في الثانية والاربعين من عمره ان يكون وزيراً للحربية ، ونائباً للقائد العام للقوات التركية كلها وكان القائد الاول هو « السلطان »

وحدث في الامبراطورية العثمانية ما حدث في روما القديمة . . قامت حكومة ثلاثية من : « انور — طلعت — جمال » !

اما انور فكان ابرز هؤلاء الثلاثة ، وكان الاتراك يرون في هذا الشاب الفاتن في ثياب الجنرال موضع آمالهم ، ويترقبون خلاص البلاد على يديه بعد ان ارهقتها الحروب الاهلية حتى اصبحت موضع سخرية الدول الاوربية

وكان انور باشا معبود الجيش . والحقيقة انه كان يتحلى بشجاعة نادرة ، وانا نذكر الحادث الآتي كدليل من الادلة الكثيرة على شجاعته :

حدث ان قامت الفتنة في الفرق الالبانية ، وحاول الجنود قتل ضباطهم ، فما كان من انور الا ان وضع نفسه امام فوهة المدفع وهو معبأ ، وطلب من الثائرين ان يطلقوه فتراجعوا مشدوهين مذهولين امام هذه الشجاعة العديمة النظير !

كان انور لا يعرف التفكير الهادىء وكان الخوف غريباً عن طبيعته و يصف Hans Kannengésser احد الضباط الالمان مشهداً يمكن ان يعد من المشاهد التاريخية العالمية ، اظهر فيه فطنته ، وكان لحكمه اكبر الأثر على تاريخ تركيا . قال : وكنت في العاشر من آب (اغسطس) سنة ١٩١٤ اقدم تقريري المعتاد لانور باشا وزير الحربية فدخل احد الخدم في حالة اضطراب .. وكانت هذه هي المرة الاولى التي ارى فيها احد الخدم يدخل على هذه الصورة غير المالوفة . وابلغ سيده ان الكولونيل « فون كريس » القائد المشهور ينتظر على الباب فقام انور فوراً لاستقباله وايقن وايقنت معه ، ان القضية لا تتطلب تمهلاً ولا ابطاء

جاء القائد يقول ان قلعة (جناق قلعة) قد ابلغتنا ان السفينتين الحربيتين الالمانيتين (جوبن و برسلو) واقفتان في مدخل الدردنيل ، تنتظران الاوامر التي تسمح لهما بالمرور

وهنا يتحدث انور فيقول :

— ولكني لا استطيع البت في قضية خطيرة كهذه الان ، فلا

بد ان اجتمع اولاً برئيس الوزراء !

القائد الالماني — ولكن ينبغي ان ارسل برقية فوراً فماذا اقول فيها ؟

ووجد انور ان الحكم في قضية كهذه من الامور المعقدة، وكان بطبيعته لا يعرف الخوف او التردد، ولكنه من ناحية اخرى كان يرى ان قضية كالتي عرضت عليه تتطلب تفكيراً، ولهذا تمهل قليلاً ثم قال :

— دعهما تمران !

وشعرنا في ذلك الحين ان حملاً ثقيلاً قد ازيح عن صدورنا، ومع هذا لم يكتف القائد بهذا التصريح فسأل :

وماذا نفعل في حالة ملاحقة السفن الانكليزية للسفن الالمانية؟ أنصوب الرصاص عليها ؟ اذا منعتنا عن المرور ووقفت في سبيلنا ؟

انور — لنترك الامور للمقادير فان قضية كهذه لا يمكن ان يبت فيها الا مجلس الوزراء !

الضابط الالماني — ولكن يا صاحب السعادة في احوال كهذه لا يمكن ان نترك الامور معلقة، ولا بد من اعطاء اوامر صريحة ؛ فهل نأمرهم باطلاق المدافع ؟

وعاد انور الى التفكير . ثم قال :

نعم !

وخرج القائد الالماني ، وعاد انور الى الحديث الهادىء كأن الاوامر التي اعطاها عادية وفي قضية عادية !

ومع ان انور كان مقتحماً متهوراً مجازفاً كما رأيت ، ومع انه كان متقلباً في ميوله في اكثر الاحايين ، الا اننا لا ننكر ان امنيته الكبرى التي كانت تجيش في صدره ، والغرض الاسمى الذي كانت تتوق نفسه الطموحة الى تحقيقه ، انما هو اعادة مجد الامبراطورية العثمانية ! .. أجل ، الامبراطورية العثمانية في ايام عزها القديم ومجدها التالد ! .

كان يشعر انور شعوراً عميقاً ان المقادير هي التي اختارته للقيام بهذه المهمة ، وتأدية هذه الرسالة ، وان الظروف وحدها هي التي احسنت اليه كل هذا الاحسان ، ودللته كل هذا الدلال فلم يعد ينهض من احضان نجاح ، الا ليرتمي في احضان نجاح جديد !

والواقع ان هذه الفكرة قد بهرته وكان يتصورها ممكنة التحقيق لدرجة ان غلبته على امره ، وجعلته يعيش في عالم الاحلام بعيداً عن عالم الحقيقة البعد كله ، كان مخدوعاً وكان يجتهد ان يبقي لهذه الصورة رونقها وجمالها ، ولو عن طريق خداع نفسه خداعاً متواصلاً !

وكان يخيل له في بعض الاحايين انه لا يمكن استعادة مجد الآباء الا عن طريق اتحاد الشعوب الاسلامية كلها ، ولكنه لما عمد الى

تحقيق هذا الحلم اصطدم بالدول الاوربية وبدلاً من ان يقود بلاده الى المجد ، دفع بها الى الخراب والدمار ، وقد يكون علة ذلك انه بقي طول حياته يقدر مواهبه فوق حقيقتها ، ويتعامى عن الحقائق الملموسة ، كان يخيل اليه انه يمكنه تحقيق كل امانيه ، نختم حياته القصيرة وهو يحلم ! ، اجل وهو يقتفي اثر طيف !

وكان لا يلقبه الذين عاصروه الا بالبطل ، ولكن الاجيال التالية لا تصفه الا بالمقتحم المخاطر !

١٧

طلعت باشا وجمال باشا

اما شريكه طلعت باشا فالارجح انه كان اكثر ساسة زمانه الاتراك دهاءً وفطنة فكان يحكم العقل دائماً ، ويجابه الحقائق في تروٍ ونبصر بالعواقب ، كان سياسياً عملياً كما انه كان لا يسمح لانور بجرفه في طريقه او يجذبه اليه

ولم يسمع عن هذين الرجلين ان خلافاً مستحكماً نشأ بينهما ، وان كان انور قد عاش في قطب ، وطلعت في قطب آخر ، هذه الحقيقة التى كانت تبدو جلية من مظهرهما الخارجي ، فقد كان انور النعومة كلها ، والظرف كله !.. كان صغير الجسم ، متوسط الطول ، وكانت يداه نحيفتين ،ووجهه لا يختلف كثيراً عن وجه المرأة الفاتنة ، وكان يحتفظ على الدوام بلطفه وبشاشته ، بل انه كان يظهر في احرج المواقف هدوءاً عجيباً في حديثه ، وكان شديد الارتباك عند ما تضطره الظروف للظهور امام الجماهير ، فكانت تبدو عليه دلائل الخجل ، وعلى هذا لم يكن يظهر امام الناس بمظهر الوزير الشرقي الذي له مهابته الخاصة

اما طلعت فكان على النقيض غزيراً في قوته، غزيراً في حيويته وكان الذي يراه لاول مرة يخيل اليه انه امام « دب » من النوع الانيس، بعد ان يرى جسمه الضخم، واكتافه الثقيلة المربعة، بل ان راحته كانت اكبر حجماً من اكبر راحتين

وكان الذي يجتمع به لا يسعه الا ان يثق به، لما طبع عليه هذا الرجل من الاستقامة، التي كانت تقود الناس الى ان يتحدثوا معه بحرية تامة، وتدفعهم لائتمانه على اسرارهم، ولكن هذا الرجل الذي كان لا يبدو الا طروباً، كان لا يترك الذين يلتفون حوله قبل ان يعصرهم عصراً، و يتغلغل الى اعماق نفوسهم، وبهذا استطاع ان يكون واقفاً على ميول السواد الاكبر من الناس وقد انتفع من هذه الدراسة النفسية للجماهير اكبر انتفاع

وكان انور يقيم في قصر من قصور الامراء يطل على البسفور، بينما كان طلعت يقيم في شقة من دار صغيرة في شارع من الشوارع القليلة الاهمية

ولكن في هذا الطابق الذي كان يفتقر للاثاث الفخم، كنت تجد جهازاً من اجهزة التلغراف، هذا الجهاز الذي كان يرتزق من ورائه، والذي يمكنه من ان يكون على اتصال دائم بعملائه واتباعه

وكان طلعت يتجاوز الحد في المباهاة باصله الوضيع ... كان يقول: انه هو الذي خلق نفسه من العدم ! ؟ ! واستطاع ان ينتقل

من موزع بريد الى ارقى وظيفة في الدولة ... رياسة الوزارة ...
وقد توصل الى ذلك بثباته وجهاده

كان يفتقر الى التعليم ، ولكن الناس لم يلاحظوا منه نقصاً وهو وان كان لم يعرف استعمال «السكين والشوكة» — وكان استعمالهما نادراً في تلك الايام — الا انه استطاع ان يترأس الولائم السياسية دون ان تظهر عليه دلائل الاضطراب ، فكان يعرف كيف يحتفظ لبلاده بسمعتها وكرامتها اينما حل

اما الشخص الثالث من رجال الحكومة الثلاثية فهو جمال باشا

وجمال هذا رجل صغير الجسم مربع ، ذو وجه ضارب الى الصفرة ، وذقن طويلة سوداء ، يشبه في سكونه الاسيوي ... ومن النادر ان تجده يغضب او يثور

وقد قيل ان جده كان شناقاً في استمبول ، وانه حذق فن الشنق الحذق كله .. وكان جمال يستطيع ان يكون فاتناً متى اراد فقد كان رشيقاً ... سهل الحركة .. بشوشاً .. طلق المحيا .. شغوفاً بالنساء .. مغرماً بلعب الورق ، صريحاً صراحة ظاهرة ... ولم يكن يفتقر للمواهب العقلية او لقوة التصميم ورسوخ العزيمة ... ولكنه لم يكن له مقدرة انور او مقدرة طلعت

واما من الوجهة السياسية فكان اقدر منهما على انتهاز الفرص واغتنامها

وكان جمال يحن الى فرنسا حنيناً خاصا : وبلغ من غرامه بها ان قصد في تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ باريس يطلب عقد تحالف بين فرنسا وتركيا ، ولكنه لم يلق الا الرفض اللطيف ، فانقلب حبه الى بغض ، واظهر عداوته الفجائية لفرنسا التي لم تكن تبادله الحب وانحاز بكليته ال جانب المانيا

ورأت السلطات ان جمالا يسبب لها اتعاباً وقلقاً مستمراً فارسلته الى سوريا لترتاح العاصمة منه وقد عينته والياً على هذا القطر الشرقي الجميل

***

كانت رئاسة الوزارة في ذلك الحين في عهدة الامير المصري « سعيد حليم باشا » ابن عم الخديو ، وحفيد « محمد على » الذائع الصيت الذي وضع اركان المملكة المصرية الحديثة ، وجعل تولي العرش عن طريق الوراثة

وكان سعيد حليم « جنتلماناً » ممتازاً ... ومهندماً انيقاً مثريا من كبار المثرين وفي وسعه ان يجذب مخاطبه بسهولة ، ويستميله دون عناء ، ولكنه في شؤون البلاد السياسية كان اشبه بتمثال على رأس الحكومة كان يتكل على المقادير ، و يظهر انها وحدها هي التي ستجلسه على العرش المصري ، بعد ظفر الدول الاوربية ولكن حياته قد ختمت خاتمة محزنة !

والواقع انه وان كانت نهاية الحكومة الثلاثية (انور – طلعت – جمال) غير سارة ، الا ان اعمالها بلا ريب ، قبل اشتباكها في السياسة العالمية كانت مصدر سعادة وهناء للبلاد ، فقد استطاع انور وطلعت وجمال ان يقضوا بجهودهم المشتركة على الشقاق الذي كان قائماً بين الاحزاب وتمكنوا بضربة واحدة من القضاء على النزاع الذي سبب الفوضى في الامبراطورية العثمانية مدة خمس سنوات

وانصرف طلعت الى البناء القومي والتعمير القومي ، بعد ان اطمأن بانه لم تعد ثمة حاجة الى جمع القوة في يده ، فأراد ادخال الحضارة الغربية للبلاد ، ولكن وقفت الامتيازات الاجنبية في طريق الاصلاح ، واعاقته تهديدات الدول الكبرى التي كانت لا تنقطع ! .

وكان في مقدمة الاسباب التي دفعت تركيا للدخول في الحرب العالمية رغبتها الشديدة في الغاء الامتيازات الاجنبية

اما ادارة سفينة البلاد فكانت تتطلب حذقاً واي حذق ، نظراً للصخور المتراكمة التي كانت تقف في طريقها ، وعلى هذا اضطرت تركيا الى الاتجاه للفنيين فطلبتهم من اوربا ، وكانت تختارهم من ممالك متعددة حتى لاتحرك حقد اي دولة ، ولكنها اضرت نفسها من حيث ارادت نفعها ، فان الدول كلها قد غضبت وان كانت قد حرصت على ارضائها واحدة واحدة

وقام بعض الانكليز بتنظيم البحرية وعهد للاختصاصيين بتنظيم الجيش كما مهدت تركيا لجماعة من اقدر الماليين من جنسيات متعددة على تنظيم المالية والسعي لايجاد موارد جديدة للبلاد

وعادت تسعى تركيا لتنظيم الجيش على النمط الالماني فارسلت تطلب هيئة حربية من الضباط الالمان ، ووجدت روسيا وفرنسا ان المانيا تحاول التوغل في الشؤون التركية الداخلية ، وان هذا التوغل ليس من مصلحة الدول الكبرى في شيء ، وعلى هذا بدأت كل منها تصرخ مهددة تركيا بسوء العاقبة ، اذا لم تتوقف التوغل الالماني

ولكن انور لم يصغ لهذا الصراخ ولم يبال بهذا التهديد والوعيد ، فانه ما تولى وزارة الحربية حتى اخذ ينظف الوزارة من الموظفين غير المرغوب فيهم ، ويعين صغار الضباط مكانهم . وكان يحيل الكبار على التقاعد ، اما بسبب عجزهم او لعدم ثقته من اخلاصهم ، بل ذهب الى ابعد من هذا فنفى شكري باشا الذي دافع عن ادرنة وحماها

وكثيراً ما يلام انور لسلوكه مسلكا لا يتفق الا مع مصلحته الشخصية البحتة وحدها ، دون اي تفكير في مصلحة الامة

ومما لا ريب فيه انه كان يريد توطيد النظام الذي وضعه مهما كلفه من ثمن !

وكان من ناحية اخرى يريد القضاء على العصابة السياسية التي تشل اعمال الجيش ، والتي كانت تضعف من قواه

وقد استطاع الوصول الى مكانة رفيعة عن طريق الخداع السياسي . وكان يعلم اكثر من غيره انه في مقدور شرذمة صغيرة من الاهلين اشعال نيران الثورة ان كانوا حقاً من اصحاب الارادة الحديدية والعزيمة الصادقة التي لا تلين

١٨

بطولة مصطفى كمال

وفي ربيع سنة ١٩١٥ اي في ابتداء السنة الثانية للحرب العالمية التي كانت قد التهبت في العالم كله ، توقفت المانيا عن محاولتها الاستيلاء على الاراضي الفرنسية وكانت كل منهما لا تستطيع قهر جارتها والانتصار عليها انتصاراً حقيقياً

وكان الروس قد تعرضوا لانكسار شنيع ، ولا يستطيعون النهوض من كبوتهم ، والنضال من جديد قبل ان تعمل الدول على وجه السرعة ، وبطريقة منتظمة ثابتة على مد روسيا بالذخائر الحربية التي كانت في اشد الحاجة اليها

وقامت الدول بشحن السفن .. ولكن هذه السفن المحملة بالذخائر الحربية لروسيا ، والتي كان لا بد ان تنعش المحاربين الروس وتبعث فيهم الامل من جديد قد حوصرت في مياه البحر الابيض المتوسط

وكانت قيادة الجيش التركي في ذلك الحين في يد الجنرال الالماني (ليمان فون ساندروس) وقد وكل هذا الجنرال امر قيادة احدى الفرق للقائمقام (مصطفى كمال بك)

وعندما وصلت هذه الاخبار الى صوفيا علم مصطفى كمال الذي كان يقيم فيها ، ان بلاده قد اشتبكت في الحرب الكبرى ، فقدم طلباً لقيادة فرقة من الفرق التي ستنزل للقتال ، ولكن انور باشا ابلغه ان مركزه في صوفيا ، اهم بكثير من المركز الذي يطلبه وانه خير له ان يبقى في مكانه

عندئذ ابرق مصطفى كمال لانور يقول : الحرب ! . الواجب الاهم في ساعة الخطر !

وطبعاً لم يتلق مصطفى رداً على هذه البرقية

وانتظر مصطفي كمال عدة اسابيع دون جدوى ، فجمع امتعته وصمم على السفر دون ان يتلقى تصريحاً من احد !

ولكن قبل رحيله جاءته برقية من اسماعيل كاكي باشا — الذي كان وزيراً للحربية بالنيابة للسفر !

وكان انور متغيباً عن العاصمة ، في حملة ضد روسيا ، وكانت خاتمة حملة « انور » هذه كخاتمة حملة « نابليون » سنة ١٨١٢ ، الفشل التام ! . . فانه لم يسلم من بين الـ ٩٠ الفاً الذين اشتركوا في هذه الحرب غير اثني عشر الفاً . . . قتل ووقع في الاسر من وقع . . . ومات الالوف جوعا . . . وذهبت الالوف الاخرى ضحية البرد . . . والثلوج ! ! . . . وجاء التيفوس يحصد شطراً كبيراً ممن بقوا على قيد الحياة ! ! . . .

وحاولت السلطات كتم اخبار هذه النكبة الكبرى ، ولكن انى لاخبار كهذه ان تكتم !

اختفى انور ثم عاد واضطرته الظروف الى الظهور فجاس في زاوية قاعة من قاعات احدى المؤسسات الخيرية ، وسرعان ما عرفته الجماهير فاخذت تهتف له هتافاً حماسياً

وفي آب (اغسطس) سنة ١٩١٥ حاول الانكليز الوصول الى استمبول وكانت زعامة الجيش في يد الجنرال كتشنر ، وتأهب الانكليز واستعدوا استعداداً كافياً للقتال ، وكانت تدل الدلائل كلها ، على ان الظفر سيكون حليفاً للانكليز ، نظراً لكمال عدتهم ولكن حادثاً لم يكن منتظراً قد حدث وقد قال الجنرال الانكليزي « هاملتون » عنه : انه كان بين الانكليز والظفر دقيقتان !

اجل ، استطاع جيش كتشنر الوصول الى (غاليبولي) وتمكن الانكليز من تشتيت الفرق التركية ، واضطر الجنرال « ليمان فون ساندروس » ان يعزل القائد التركي ، وان يعين الكولونيل مصطفى كمال مكانه

ظهر الكرلونيل مصطفى الشاب يقود الجيوش التركية بالقرب من (انافورطه) في موقعة من اشد المواقع خطورة ، بالقرب من الدردنيل وظلت الحرب مستعرة عدة ايام ولم تكلل الغلبة لواحد من الطرفين المتقاتلين

واخيرا اضطر الانكليز الى هجر فكرة الهجوم ، بعد ان ايقنوا انهم لم يستفيدوا شيئاً على الرغم من التضحيات التي ضحوها .. ولم يكونوا حتى ذلك الحين قد استولوا على اكثر من تل واحد من التلال التركية ! وكان بامكان الاتراك استرداد هذا التل لو حاولوا استرداده ، ولكن الجنود الاتراك كانوا في حالة الاعياء الشديد ، وكان القتال قد اضناهم وهد قواهم

وجاءت الاخبار لمصطفى بان الفرق غير راغبة في الاقتحام من جديد وانها ستظل ملازمة لخنادقها لان قواها قد نفدت

ولكن مصطفى كان يعرف كيف يتصرف مع رجاله ، ولهذا سار بين الخنادق بجرأته المعهودة واخذ يصرخ في جنوده :

« انكم تهلكون انفسكم ايها الابطال ! .. تهلكون انفسكم بمثل القتال المستمر ! ، واني موقن انكم بتم في حاجة قصوى الى الراحة ! اني لا اطلب منكم ان تحاربوا الا اذا وجدتم بلادكم العزيزة معرضة للخطر !

انتظروا ايها الابطال وارتاحوا حتى تحين الساعة المناسبة للقتال ثم اهجموا كالاسود .. اهجموا كالاسود دون ان تبالوا بالموت !

سأسير الان في الطليعة وادرس القضية بنفسي وعندما اجد الفرصة سانحة لاستئناف القتال ارفع يدي فتوقنون انه لا بد من الحرب وان لا مناص من التضحية ... وان الوطنية الصحيحة

تقسركم قسراً على الاستبسال وان محبة بلادكم هي التي ترغمكم على الحرب وليس مصطفى كمال !٠٠٠

وهتف له الجنود هتافاً عالياً

وتقدم القائد الباسل ولم يكد يسير بضع اقدام حتى رفع يده فلحق الجنود به !٠٠٠ نسوا التعب ٠٠٠ ونسوا انهم صمموا على عدم الحرب ! ٠٠ وعاد الحماس يدب فيهم وتجددت قواهم !

هذا الانقلاب النفساني وتلك الطاعة القلبية التي ظهرت من الجنود تذكرنا بما كان من مثلها في الجيش الافرنسي نحو قائده نابليون فقد كان مستولياً على شعورهم وقواهم استيلاء اشبه بالتنويم المغناطيسي وهذه هي صفات الجند المنتصر في كل زمان ومكان

ولما انتهى القتال قدم القائد مصطفى كمال تقريره عن المعركة للقائد الالماني العام ، وقدم مع التقرير ساعته التي تهشمت تهشيماً تاماً فقد اصابتها رصاصة كان من الممكن ان تقتل مصطفى ، اما ليمان ساندروس باشا فقد اخرج فوراً ساعته الذهبية وقدمها لمصطفى كمال ، واخذ منه ساعته المهشمة ليحتفظ بها تذكاراً للبطولة التي قام بها في تلك المعركة ، واعترافا له ببسالته وتضحيته

وفي ذات مساء كان يقيم مصطفى كمال بين الخنادق في مكان مكشوف وكان الانكليز يتناولون « شاي العصر » كالعادة ٠ وبعد

ان تناولوه مريئاً او غير مرئ ، اخذوا يمطرون الجيش التركي « ببراكينهم » النارية

وجاءت الطلقات الاولى والثانية والثالثة قريبة من مصطفى كمال ، وكانت الاخيرة على بعد ٢٠ ياردة منه ، ولكنه لم يتحرك من مكانه

وتقدم احد القواد يطلب من مصطفى ان يصون حياته ويهرب مع من هربوا ، ولكنه ابى وقال :

« لا اكون الا آخر من يهرب » ثم وضع السيكارة في فمه وكان من المؤكد ان الطلقة الرابعة ستصيبه ! ولكن لأمر ما لم يطلق الانكليز الطلقة الرابعة ، ونجا من الموت الاكيد !

ومنذ ذلك الحين اخذ نجم انور في الافول ونجم مصطفى في البزوغ

وظل المرشال ليمان في نزاع مستمر مع انور ، واشتدت الخصومة بينهما الى درجة ان صمم الجنرال الالماني على التخلي عن وظيفته ، وترك القيادة لمصطفي كمال ، وكان يقول بانه يعده اقدر ضابط انجبته تركيا ، وانه يملك « الحظ » الذي ينبغي ان يسعد به من يقدر له النجاح في هذه الحياة !

***

حل مصطفي كمال مكان القائد الالماني ساندروس باشا اخيراً

وفي ذات ليلة من ليالي كانون اول (ديسمبر) المظلمة ، تمكن الانكليز في جو محفوف بالكتمان الشديد من اخلاء المكان الذي احتلوه من ساحل غليبولي

اقلعت السفن الحربية بعد ان عبثت في سرعة تدعو الدهشة ، و بعد ان وجد الانكليز ان جهودهم العظيمة التي بذلوها ذهبت هباء وضحياتهم ضياعاً ... تركوا وراءهم عشرة الاف قتيل ! ... ألا يكفي ؟

وعاد مصطفى كمال الى استمبول وكان قد استطاع ان يخلق لنفسه شهرة عظيمة بين رجال الجيش

واخذ عامة الناس يتحدثون بنجاحه المدهش في معركة انافرتا بل كانوا يقولون انه هو الذي نجى العاصمة وخلصها !

وكثيراً ما كتب مصطفى للحكومة يحذرها من الاشتباك في الحرب على الرغم من افتقارها للاستعدادات اللازمة . وعلى الاخص بعد ان اضعفتها الحروب الداخلية المتكررة

اجل ، كان يقول هذا القول ، في الوقت الذي كان الالمان يسيرون في طريقهم الى باريس ! ! ، يسيرون الى باريس دون ان يلقوا في الظاهر اي معارضة على الاطلاق !

وكأن من الطبيعي ان يعد رأي كهذا سخيفاً وغير معقول ، فقد كانت تدل الدلائل كلها على ان الغلبة ستكون لالمانيا وحليفتها

تركيا ، وان مصطفي المتمرد لم يقل هذا القول الا بدافع ميله للتشاؤم وعدم رضاه عن الحالة في تركيا في ذلك الحين

ولكن مصطفى كمال لم يكن يتكهن ولم يكن يرجم بالغيب ، بل كان يتحدث عن خبرة و بعد ان درس حالة العالم دراسة دقيقة ، ولم يكن وحده هو الذي يحتفظ بهذا الرأي فقد كان كثيرون غيره يرون كما يرى و يرتأون كما يرتئي ، نعم كانوا يعتقدون ان المانيا قد خسرت الحرب سياسياً ، وانه لم يعد بوسعها ان تكسب الحرب حربيا

وكان يشك كثيراً في إمكان بقاء تركيا بعيدة عن الحرب ، فقد كان من الضروري ان يشق الحلفاء لهم ممراً في الدردنيل لكي يتمكنوا من الاتصال بالدول المتحالفة الواقعة في الشرق

وكانت روسيا من الناحية الاخرى تعد عدوة الامبراطورية العثمانية اللدودة

صمم البشوات الثلاثة ان يتحملوا « تبعة الحرب » على الرغم من فداحة هذه التبعة ، ووضعوا زملاءهم الوزراء امام الامر الواقع فاستقال ثلاثة من الوزراء من بينهم وزير المالية الممتاز جاويد بك

ورغب رئيس الوزارة البرنس سعيد حليم التخلي عن وظيفته ، ولكنه عاد فقبل البقاء امام اغراء اصدقائه والحاحهم الشديد ، ولكن لم يمض زمن طويل حتى احتل طلعت باشا مكانه

واستطاع الباب العالي ان يخلص البلاد من الامتيازات

الاجنبية ، فسرت نشوة السرور في انحاء البلاد من اقصاها الى اقصاها بعد ان ازيح هذا النير عن عاتق الشعب الذي كان يرزح تحته ! !

ربما كان التخلص من الامتيازات الاجنبية السبب الرئيسي الذي دفع الاتراك للاغتباط على الرغم من دخول تركيا في الحرب الكبرى

اما فكرة اشتراك تركيا في الحرب فلم تلق ترحيبا عاماً ، فقد كانوا يرون ان الحرب حاجة غير ضرورية ، وانها ضرب من ضروب المقامرة !

اما الطبقة المستنيرة من الشعب فكانت ملازمة للصمت ، والادهى من ذلك انها كانت تريد استغلال هذا الموقف الجديد لمصالحها الذاتية ! !

وكان كل ما يسمعه مصطفى كمال ويراه في استنبول بعد عودته من الدردنيل يزيده يقيناً بان بلاده قد سلكت طريقاً غير الطريق الذي ينبغي ان تسلكها !

ولم يستطع مصطفى كمال الاحتفاظ بوجهة نظره هذه ، بل حاول التأثير على اصحاب الشخصيات القوية ليؤمنوا بها ولكنه كان يقابل منهم بالفتور والتبرم !

ومع ان الاتراك كانوا قد وثقوا بمقدرة مصطفى كمال الحربية ، الا انه لم يكن هناك من يريد تشجيعه على التغلغل في شؤون البلاد

السياسية ، بل كانوا يقفون في وجهه عندما يحاول أن يشترك في سياسة البلاد اشتراكاً فعلياً

وكان الرجل الذي تزداد صلاته بمصطفى يصبح عرضة لريبة السلطات ومراقبتها

ومن الحوادث الطريفة التى حدثت في تلك الايام هذه الحادثة التي نأتي عليها بما يلي :

كان نسيمي بك وزير الخارجية ، قد اقترح دخول تركيا في الحرب

وجاءه مصطفي للزيارة فطلب اليه ان ينتظر في غرفة الاستقبال ، بينما افسحوا لزوار جاءوا من بعده للدخول على الوزير ، انتظر مصطفي الى ان خرج هؤلاء الضيوف ولما جاءه السكرتير يحدثه و يلاطفه و يطلب منه ان ينتظر

وبينما كان مصطفى يتحدث مع سكرتير الوزير دخل احد الخدم وقال موجهاً الكلام لمصطفى :

— البك الوزير يطلب مقابلتك

— دعه ينتظر

واخذ مصطفى يتحدث مع السكرتير اللطيف

ثم نهض مصطفى ودخل لمقابلة الوزير

اما الوزير فقد اخذ يتحدث مع مصطفى ، وكان حديثه

كله تفاؤل جميل ، ولكن مصطفى كمال ختم حديثه مع الوزير قائلاً

انك كوزير تقع عليك بعض التبعة . ينبغي ان تهتم بما ساحدثك عنه ! اذا سمحت للساسة ان يستمروا في تأثيرهم عليك ، فانك ستجد نفسك وجهاً لوجه امام معضلة اكبر مما تتصور ، ويتصور الساسة معك ! ..

اما الوزير فاضطرب وقال في كبرياء :

— اني لا ادري ما ترمى اليه !

— اقول ان البلاد تسير في طريق الخراب !

وانك تدعي الآن بانك لا تراها سائرة في هذا الطريق

طبعاً انك مضطر لان تقول هذا القول بحكم وظيفتك كوزير ولكن اعتقادك الشخصي ينبغي ان يكون غير هذا تماماً ، انك ولا ريب لا تجهل الحقيقة بتمامها ، وانك ولا ريب تعرف مصدر الداء ومكان البلاء !

بهت الوزير وصمت امام هذه الجرأة النادرة ، وتظاهر بانه قد فهم كل شيء !

ولكن هذا الوزير وغيره من رجال السلطة الحربية كانوا يعدون هذا الحديث من قبيل الاوهام ، ولهذا التفت الوزير الى مصطفى كمال وخاطبه بلهجة حازمة قائلاً :

اذا كنت قد جئت ايها الكولونيل لتبدي لي ارتيابك في حالة

البلاد فليس هذا وقت اظهار هذا الارتياب ، وليس هذا مكان اظهار هذا الارتياب ، انك قد اخطأت في حضورك اليّ فاني مع زملائي الوزراء نثق ثقة مطلقة بقائد الجيش العام ، وعلى هذا فاني انصحك بالذهاب اليه ليبدد لك مخاوفك ، ويقضي على الوساوس التي تساورك !

وفي صبيحة اليوم التالي ابلغ وزير الشؤون الخارجية القائد العام مادار من حديث بينه و بين مصطفى كمال ، وطلب منه ان يوقع عليه القصاص الذي يستحقه ، ولكن القائد ابى ان يوقع على مصطفى اية عقوبة ، بل رأى من الحكمة ازاحة هذا الضابط الخطر عن العاصمة الى القوقاس و بقي هناك اكثر من سنة دون ان تسنح له الفرص لان يؤدي عملا خارقا .

١٩

سقوط بغداد

لم يكن يتجنب مصطفى كمال القتال العلني ... ولم يكن يهرب من الحرب « على المكشوف » وكان لا يحاول مطلقاً اخفاء معارضته ، بل « نقمته » على الزعماء والقادة ، وكانت هذه العداوة الظاهرة سبباً في كثير من الاذى الذي صادفه ، كما كانت سبباً في كثير من الخير الذي لاقاه

ولم يشترك مصطفى كمال مع العصابات السرية التي كانت تعمل في الخفاء

واخذت الاوساط التركية كلها تنقم على وزير الحربية بعد الانهزام الذي رزىء به الجيش التركي ، على الرغم من الفوز في (كوت العمارة)

واخذ الاتراك يلقون التبعة كلها على « انور » لانه استسلم للالمان استسلاماً ، ولانه وضع الرقابة كلها في ايدي الالمان ، مع ان الواقع على نقيض ذلك فقد كان نفوذ هؤلاء الالمان ضئيلاً

ولما وجد الاتراك الذين كانوا ينتظرون المساعدة من الالمان

ان آمالهم هذه قد خابت صبوا جامات غضبهم عليهم ، واخذوا يرسمون الخطط لطرد كل الضباط الالمان وابعادهم من استنبول في ليلة واحدة !

وكان انور ذاته في خوف مستمر ولم يكن تخوفه دون مبرر فقد كان يتخوف ان يكون مصيره عين مصير زميله السابق محمود شوكت باشا ، ولهذا كان يطلب من سائق سيارته الحمراء السير في المدينة باقصى سرعة ممكنة ، وان تلحقها سيارة اخرى تحمل بعض الضباط المسلحين الذين وقع الاختيار عليهم لقوتهم العضلية الهائلة ومواهبهم الخارقة في اصابة الهدف

ومن بين الخطط العديدة التي كانت في دور التفريخ الخطة التي حبكها يعقوب جميل بك وهي جديرة بالذكر لانها تصور لنا الى اي حد كانت آمال الجيش معقودة على مصطفى كمال !

نظم الميجر يعقوب جميل ، مع بعض رفاقه مؤامرة لقلب الحكومة ، واخذ يحدث رفقاءه على النحو الآتي :

« ان اولئك الرجال الذين يعدون انفسهم كباراً هم في الحقيقة صغار وان البلاد تطلب ازاحتهم عن مقاعدهم ليحتلها رجال اشد وطنية واكثر اخلاصا ! » فاعترضه البعض قائلين :

« ان ازاحة هؤلاء من الامور الهينة ، ولكن قل لنا عن الشخص الذي ترى ان في وسعه اعادة النظام كما كان ؟ !

فاجاب فوراً :

مصطفى كمال ! ....»

ولكن هذه المؤامرة انفضحت واعدم يعقوب ورفاقه

وسمع بهذا الخبر مصطفى اثناء اقامته في القوقاس فتألم اشد الالم ! وصلته هذه الاخبار عن طريق الدكتور حلمي بك الذي كان قد اشترك في تلك المؤامرة ، ولكنه تمكن بحذقه من الفرار من استنبول واحتمى بمصطفى كمال !

وطلبت الحكومة التركية من مصطفي كمال ان يقبض على الدكتور حلمي ، وان يعيده بالحال فابرق مصطفى لهذه السلطات يقول :

« ان الدكتور حلمي قد اصبح منذ الان تحت حمايته »

ورأت السلطات ان « تلحس » هذه الاوامر فلحستها ! ...

وضاعت ارضروم ! .. وكان من الممكن ان يسدل الستار عن ضياع ارضروم ذلك الحصن الحصين الذي سقط في ايدي الروس ، وكان من الممكن ان تعمل السلطات على ستر هذه الفضيحة الكبرى ، ولكن حدث ان سقطت « بغداد » في اذار (مارس) سنة ١٩١٧ ... « بغداد » مدينة الخلفاء المقدسة ! وكان سقوط هذه المدينة الشرقية الكبرى نذيراً ببداية الخراب ! ولم يعد بميسور السلطات كتم هذا الانهزام الشنيع ، ووجد الاهلون ان آمالهم التي

عقدوها قد تبددت وبعد ان كانوا يذهبون في تفاؤلهم الى ابعد حدود التفاؤل ، انقلبوا فجأة فاصبحوا لا يقفون في تشاؤمهم عند حد معقول ... حتى اعضاء حزب الاتحاد والترقي الذين كانوا يرضخون لانور ... وكان انور يتحكم فيهم كما يشاء ... باتوا يريدون ان يضحوه اخماداً للهياج ، وترضية للشعب الثائر!

وكانوا كلما فكروا في تضحية انور حاروا في امرهم ولم يجدوا من بينهم من يستطيع ان يحل مكانه ، فقد كان « جمال باشا » من « هواة » الشؤون الحربية ولكنه لم يستطع ان يظهر اي براعة سياسية ، حتى في حكم الاقليم السوري الذي كان يديره!

وكان « المرشال عزت » يعد بلا ريب من خيرة القواد الحربيين ، ولكنه لم يكن بالسياسي او شبه السياسي لتردده وقلة حزمه ، ولهذا اخذت المصادر الرسمية ترشح مصطفى كمال

وبدأ المعارضون بالحملة على مصطفى كمال واحتجوا على التفكير في تعيينه بدلاً من انور ، وكانت حجتهم في ذلك انه لا يزال شاباً تجري في دمه ثورة الشباب ، ولا بد ان يقع في خطيئاتهم ، وفضلاً عن هذا فان الناس لا يعرفون عنه كثيراً!

والحقيقة انه ما من احد كانت تداخله ادنى ريبة في ان مصطفى عندما توضع قيادة الجيش في يده ، يعجز عن احداث انقلاب تام في الحكومة وسياستها ،

وهدأ المطالبون بضرورة اعتزال انور و بدأوا يطالبون باسترداد بغداد في اقرب وقت

وقصد انور القيادة العليا الالمانية يطلب المساعدة في إلحاح ولجاجة وبذل الالمان كل مافي وسعهم للانتصار لحليفهم وابقائه في مركزه

وكان من تدابيرهم التي لجأوا اليها انهم وضعوا الجنرال فون فالنكهاين وعدداً كبيراً من الفصائل الالمانية تحت تصرفه !

ورقي مصطفى كمال الى رتبة جنرال ، ولكنه لم يكن يرضى ان تكون القيادة بيد احد الالمان

وكان الجنرال فون فالنكهاين من الناحية الاخرى يختلف عن المرشال ليمان فون ساندروس في عدم معرفته اساليب المعاملة ، التي تفلح في التأثير على مصطفى كمال وجذبه ، وكانت نتيجة جهله ان اختلفت وجهات النظر ثم استحكم النزاع وتفاقم شره ، ولم يكن هذا العراك القائم بين الالماني والتركي دون سبب ، فقد كان مصطفى كمال يعد من العبث بذل اي جهد لاسترداد بغداد ، وان الجهود التي تبذل في استردادها ضائعة عديمة الجدوى ، بل كان يرى ان الاقدام على هذا العمل سيؤدي حتماً الى خسائر جديدة فادحة للجيش التركي ، ولهذا لم يكن يريد تضحية اسمه وشهرته في سبيل استرداد بلد لا امل له في استرداده

وعلى هذا اخذ يظهر للبلاد جهل المطالبين باسترداد بغداد، وخطل سياسة انور، و يبين الاذى الذي سيلحقها من جراء تنفيذ هذه السياسة العرجاء . ثم افاض مصطفى في خطبه بشرح الاضرار التي تكبدتها تركيا بسبب استسلامها للالمان الذين بسطوا نفوذهم وتغلغلوا في صميم الشؤون التركية الداخلية والخارجية

وذكر في خطبة له انه لا يريد لنفسه القيادة العليا للجيش، وانما هو يتركها لعلي فواد باشا

واشتمت السلطات من خطبه النارية رائحة الثورة العلنية

ولو كان مصطفى كمال في غير تركيا وخطب مثل هذه الخطب لوقف امام المحكمة العسكرية ليدافع عن نفسه وليرد عنها تهمة اثارة الرأي العام على الحكومة، ولكن السلطات الرسمية حاولت استمالته ففشلت، فلم يكن من وسيلة اخرى الا ان تعيده ثانية الى القوقاس

جاءت الاوامر لمصطفى فلم يرضخ لها في هذه المرة، وعلى هذا لم تجد السلطات وسيلة لاخفاء ضعفها الا ان تدعي كذبا بانها قد اعطته اجازة عدة شهور . لمناسبة « ضعف صحته » !

٣٠
البرنس وحيد الدين

كان مصطفى كمال يوم جاءه الامر بالذهاب الى القوقاس طائعاً او مكرهاً في حلب ، ولما عادت الحكومة فاعطته الاجازة المرضية الطويلة حاول ترك حلب فلم يتمكن لافتقاره للمال ، فاضطر الى بيع خيوله . وكان يملك عشرة خيول عربية اصيلة.

ولم يكن بين الضباط من يملك مالاً يستطيع به شراء هذه الخيول الثمينة . واخيراً تقدم جمال باشا لمساعدته واعطاه ٢٠٠٠ جنيه ثم ارسل له ثلاثة آلاف بعد عودته الى استنبول ، وبمعنى آخر ان مصطفى كمال قد باع خيوله العشرة بخمسة آلاف جنيه ، وقد انتفع بهذه الاموال عندما اندلعت نيران الثورة

ولم يبق مصطفى كمال مع امه عندما كان يقيم في استنبول. ولكنه استأجر غرفة في فندق

وعندما نرجع الى مذكراته نجد فيها ما ترجمته :

« كنت لا اميل منذ حداثتي للاقامة مع امي ، او مع احد من اقاربي واصدقائي فقد كنت افضل ان اعيش في وحدة ، ولقد احتفظت بهذه العادة طول حياتي

وفضلاً عن هذا فقد كانت افكاري تختلف كل الاختلاف عن افكار امي ، ولم اكن احتمل ان اسمع نصيحة أقرب الناس اليَّ وهم الاصدقاء الذين كانوا يحاولون صدي ، ولم يكن بالامر الهين ان اتنازل عن آرائي · لهذا رأيت في الوحدة من الراحة ، ما لم اجده في الاختلاط حرصاً على احساسات امي وعواطفها ، التي كانت تجرح بمعارضتي لها في آرائها ! »

والواقع ان مصطفى كمال شديد الحرص على ارضاء امه وهذا ما جعله يظل على الدوام بعيداً عنها لتكون على غير علم بما يجريه !

واخذ الناقمون يلتفون حول مصطفى كمال ، ويعرضون عليه شتى الاقتراحات التي كانوا يقصدون من ورائها قلب الحكومة ولكنه كان يقابل هذه الاقتراحات العقيمة بالاعراض التام

وكان مصطفى كمال ككل العظماء الذين ظهروا على مسرح التاريخ لا يتعجلون بالحوادث بل يستطيعون كبح عواطفهم والاصطبار حتى تحين ساعة العمل فيعملون بكل ما وهبهم الله من قوة

وفي العاشر من شباط (فبراير) سنة ١٩١٨ توفي السلطان عبد الحميد في قصر منعزل واقع على ضفاف البسفور ، ودفن في ضريح فخم كان قد أُعد خصيصاً له

وبعد وفاته بوقت قصير جاء رسول من قبل انور الى مصطفى

يظهر له رغبته في سفره معه للقيادة العليا الالمانية ، فوافق مصطفى واخذ يتأهب لتلك السفرة وسافر معهما الجنرال ناجي باشا الذى كان يلقي بعض المحاضرات في « الاكاديمي الحربية »

وقبل السفر بايام قليلة ذهبوا للتعارف بالامير الذي كان مرشحاً للسلطنة وهو ينوي السفر معهم

وهاك ما ترجمه مصطفى كمال في مذكراته في وصف تلك الزيارة :

« ساروا بنا الى صالون فسيح مفروش بالسجاد العربي ، وكانت الغرفة غاصة بالرجال في ثيابهم السوداء الرسمية

وبينما كنا واقفين اقبل رجل يرتدي الثياب الرسمية ، وكنا لا نعرف السر في وجوده ، ولكننا ادركنا من مظاهر الواقفين حوله انه ولي العهد « البرنس وحيد الدين » الذي سيعتلي العرش

اجل، رأينا البرنس وحيد الدين جالساً على طرف المقعد الملوكي .. وجلست مع انور على مقعدين امامه

اما سموه فقد عمد في بادىء الامر الى عادته من اغلاق عينيه كلما استغرق في التفكير ، ثم توقف عن التفكير فانفتحت عيناه وانفتح فمه ايضاً ، وهذا كل ما سمعناه منه :

— اني مسرور بلقياكما ؟

ثم عاد الى التفكير والى غلق عينيه وفمه معاً بحركة اتوماتيكية لا تخلو من طرافة

وحاولت ان اشغل عقلي واسترجع كل ما يمكن أن يقال في موقف كهذا فلم اجد شيئاً مناسباً ففضلت التريث حتى يفوه البرنس بحديث آخر غير هذه الجملة الترحيبية ، ولكن البرنس الفياض قد لازم الصمت ، فاخذت امتع نفسي بضرورة مجاراته في الصمت ، وان من قالوا « السكوت من ذهب » حكماء حقاً ، فان هذه الحكمة قد تجنبني من عاقبة الاقوال التي كنت على وشك ان اقولها والتي لا بد ان تغضب ولي العهد !

ولكنني وجدت فم الامير قد فتح فجأة فادركت انه يريد ان يقول شيئاً وعلى الأخص لانه قد فتح عينيه دلالة على عدم استغراقه في التفكير ، وسمعته يقول :

— سترافقوننا في السفر ، كما اعلم

فاجبته وقد شعرت بشيء غير قليل من الضيق :

— نعم . سنقوم بهذه الرحلة مع سموكم !

وانتهت المقابلة . . . ونهضنا . . وانصرفنا

واخذ ناجي يحدثني عن مخاوفه فقال :

يحق لنا ان نرثي لحالة هذا الرجل ! . . الذي سيعين غداً سلطانا . : ماذا ننتظر من رجل كهذا ؟ ! . .

فقلت لاشيء ! . . لاشيء !

اما البرنس وحيد الدين فهو شقيق عبد الحميد الاصغر وكان عمره في ذلك الحين يتراوح بين ٥٠ و ٦٠ سنة ، طويل القامة ، هزيل ، مقوس الظهر ، ذو وجه مائل الى الطول ، وانف كبير ناتيء وعظام وجهه بارزة !

وكان وحيد الدين قد تربى في القصر السلطاني طبقاً للتقاليد المتوارثة . ولم يكن قد ترك العاصمة الا مرة واحدة في زيارته القصيرة لفينا

وكان يعد شخصية قليلة الاهمية نظراً لسكونه العجيب ، وميله للنعاس المستمر ، حتى ولو كان في حضرة رجال السياسة

كما ان هيأته كانت تنفر الناس منه ، ولم تكن حياة العزلة التي يحياها من مصلحته في شيء ولكنه كان منصرفاً عن شؤون العالم السياسية الى ملاذ الحريم ! وكانت « مجموعته » التي يحتفظ بها اكبر المجموعات التي من نوعها في زمانه ! أليس الناس يهوون جمع كل ما يقع تحت نظرهم ، فلم لا ينشغل وحيد الدين بجمع النساء !

٢١

وفاة محمد الخامس وتولية محمد السادس

كان عبد الحميد يحب شقيقه الاصغر وحيد الدين محبة خاصة وقد ولد هذا الشقيق بعد موت والده ، كما ان امه قد توفيت بعد الولادة فوراً ، فاعتنى عبد الحميد بهذا الطفل اليتيم وعلمه ركوب الخيل واللعب بالسيف ، واستعمال المسدس ، وبنى له قصراً جميلاً وكان يساعده عند ما تقف العراقيل المالية في طريقه ..

اجل كان يفعل عبد الحميد هذا مع شقيقه الصغير ، في الوقت الذي كان يحبس الوريث الشرعي شقيقه الآخر الذي اصبح فيما بعد « محمد الرابع » ويشدد الخناق عليه ، بل لم يكن يسمح له بالابتعاد عن نظره لحظة !

وكان عبد الحميد يحاول ان يزيد من رغبة وحيد الدين في الوقوف على شؤون الدولة ، وكان يلقي عليه الدروس الدقيقة في اسرار الحكم وأساليبه

ومما لا ريب فيه انه كان يستخدمه كجاسوس له ، وكان يصغي الى احاديثه ونصائحه عند ما يقع في الظروف الحرجة ، وعلى

هذا تلقى وحيد الدين دروس السياسة من اربابها

وتدل الاعمال التي قام بها وحيد الدين على انه حذا حذو شقيقه عبد الحميد ، وسار على منهاجه ، وكان يعتقد مثله ان وجود الامبراطورية العثمانية يتطلب سلطنة قوية ، وان يكون الاسلام عماد هذه السلطنة

وكان يعد تسرب الافكار الغربية الى تركيا ضاراً بمصلحة البلاد في الصميم ، وقاضياً على تاريخها المجيد ، ولكنه من ناحية اخرى كان يضحي بكل شيء في سبيل احتفاظه بالعرش

وكان اصدقاؤه من الاتراك الطاعنين في السن الذين يتقيدون بالدين وبالشريعة ، وفي مقدمتهم الداماد فريد باشا الذي كان مقرباً التقرب كله من وحيد الدين ، وكان في امكانه ان يؤثر عليه تأثيراً قوياً

ووحيد الدين هو الذي اوصله الى رئاسة الوزراء عند ما سنحت له الفرصة ، ومما لا ريب فيه ان الداماد فريد كان يؤمل الوصول الى العرش بمساعدة « الاصدقاء » !

اما المنافس الثاني لوحيد الدين فكان البرنس يوسف عز الدين والذي لم يكن على اتفاق مع الغربيين ، ولكنه قد توفي فجأة وكانت وفاته محفوفة بالاسرار الغامضة

فلم يبقَ من طلاب العرش غير « وحيد الدين » وكانت صحة

السلطان الحاكم قد بلغت من الوهن الحد الاقصى وعلى هـذا لم يجد الشعب وسيلة اخرى غير اجلاس وحيد الدين على العرش

وسافر « مصطفى كمال » مع وحيد الدين وأنور

وقد تعمد وحيد الدين في هذه السفرة للقيادة العليا الالمانية ان يفتح فمه ، وان ينطق في الحديث ، فاخذ يفيض عن مقدرة مصطفى التي اظهرها في معركة «الدردنيل» واخذ يثني على بطولته واعجابه باعماله وهو بعد لايتجاوز الثلاثين من عمره

واخذ الجنرال « لودندورف » يشرح خطة الهجوم التي ينوي الجيش الالماني القيام بها

وكان السلطان ومن معه يسمعون هذا الشرح صامتين مغتبطين في دخيلة انفسهم مقدرين الفوزللجيش الالماني

اما مصطفى كمال فلم ينخدع بهذا الحديث ، واخذ يمطر الجنرال الالماني لودندورف باسئلة دقيقة عن مدى هذا الهجوم الذي ينوي الجيش القيام به

ولم يكن في وسع هذا القائد ان يدلي بأي معلومات عن نيات الجيش الالماني ولم يكن يريد طبعاً اطلاع الاتراك على الاسرار الحربية ، ولهذا تطلع مذهولاً من هذا الجنرال التركي الذي كان يخاطبه بمثل تلك الجرأة النادرة التى لم يعهدها في التركي من قبل واستطاع كتم عواطفه وقال له في هدوء :

« ان الامور معلقة على الاقدار ولكن خطتنا ان نهجم هجوما عنيفاً فاصلاً »

وكان مصطفى لا يؤمن بسياسة ترك الامور معلقة ، وكان يرى ان انور يعتقد عين الاعتقاد الذي يعتقده الجنرال لودندورف فانتهز اول فرصة سانحة للحديث وكانت بعد تناول العشاء وسأل الجنرال فون هندنبرغ السؤال التالي :

« اعتقد ايها المرشال انكم تنوون القيام بهجوم عظيم ، ولكنكم لا تفكرون في وضع خطة معينة لهذا الهجوم ، بل تتركون الامور للمقادير والظروف ، فهل لك ان تعلمني يا سيدي ، لفائدتي الشخصية النقطة الحربية التي تصوبون هدفكم اليها ؟ »

ونعود الى مذكرات مصطفى فنجد فيها ما تعريبه :

« ولم اكن انتظر من المرشال هندنبرغ العظيم ان يدلي اليّ بمعلومات دقيقة عن هذه القضية ، ولكني كنت قد استسلمت لليأس فكنت لا اهاب شيئاً ، كما ان الشمبانيا الفاخرة التي قدمت لنا يومئذٍ حلت عقدة لساني وجعلتني انطلق في الحديث انطلاقاً

وسمع هندنبرغ حديثي واصغى اليه بانتباه ، وكانت اجابته واضحة كما انها كانت تدل على ظرف

التفت الى مائدة قريبة منه وعليها بعض السجاير والسيكارات فتلطف قائلاً : « هل تود سعادتك سيجاراً او سيكارة » ثم قدم الي

سيكارة بيده فختم بعمله هذا الحديث وتخلص بمهارة من الاجابه »

واقبل القيصر لرد الزيارة لضيوفه الاتراك و كانوا يقيمون في احدى ابنية القيادة العامة ، فطلب مصطفى من ولي العهد المرشح للسلطنة ان يحدثه عن العلاقات بين المانيا وتركيا ، واملى عليه الحديث الذي ينبغي ان يقوله ففعل ، وكان الذي يترجم هذا الحديث لقيصر المانيا ناجي

قال المترجم عن لسان وحيد الدين :

« ان بلادي في حالة تضعضع للصدمات الشديدة التي لاقتها ، والتي لم يكن بامكان الساسة تجنبها باي حال . فاذا استمرت الحالة على هذا المنوال فلا يمضي زمن طويل حتى يقضى على تركيا قضاء تاماً ، ومع هذا فلم استطع للان ان احصل من جلالتكم على وعد بمساعدة المانيا لتركيا لاتقاء هذه الصدمات المحيقة في المستقبل »

ويقول مصطفى كمال في مذكراته :

وقف القيصر عندما سمع هذا الحديث وقال :

« يظهر لي ان جلالتكم تهتمون باشخاص يلقون بذور الريبة في نفس جلالتكم . اني اؤكد لجلالتكم ان النجاح مضمون وفي هذا القدر الكفاية ! ... » .

اما وحيد الدين فصمت وتظاهر بالرضى عن حديث قيصر المانيا ولكن مخاوفه كانت في الحقيقة ما زالت باقية

وانتهت الزيارة وخرج القيصر ولحقه وحيد الدين وناجي وصافح القيصر الوريث ومترجمه ، وكنت في ذلك الحين واقفاً على الجانب الايمن من الباب فتطلع القيصر الي برهة وكنت على مسافة قريبة منه وسار في طريقه فلم يصافحني

وكان له ما يبرر هذا العمل فقد كنت لا ازال جنرالاً ، وكانت الآداب المرعية تقضي عليّ ان اتقدم انا لمصافحته ولكني خالفت هذه التقاليد

ولعلة ما شعرت بعد خروج القيصر بان قواي كلها قد فارقتني فجمدت في مكاني ، واصبحت لا اقوى على الحركة

ولكن القيصر بعد ان تقدم ثلاث خطوات عاد فالتفت الي وقال : « عفواً اني لم اصافحك » !

ثم ضغط على يدي بشدة فشعرت ان قواي قد عادت الي . وانه قد اكسبني شرفاً بهذه المجاملة اللطيفة !

والخلاصة ان هذه الرحلة التي قام بها وحيد الدين وانور ومصطفى في سنة ١٩١٨ لم تكن محققة للغرض الذي كان يرمي اليه انور ، وهو ان يجعل مصطفى كمال يزداد ثقة في نجاح المانيا ، فان هذه الرحلة على النقيض قد زادته يقيناً بان الاتراك بانضمامهم الى المانيا قد راهنوا على الجواد الخاسر ، وقد جعل وحيد الدين يعتقد الاعتقاد عينه

ولم يكن هذا العمل بالامر الشاق فان وحيد الدين كان قد تأثر من الداماد فريد باشا فاصبح يعجب على الدوام بانكلترا ، ويعتقد ان موارد الامبراطورية البريطانية غير قابلة للنفاد ، وكان يضرب بها المثل في العظمة والوفرة

وبعد وصول مصطفى كمال الى استمبول بوقت قصير اصيب بمرض في الكلى ، فقصد فينا وعرض نفسه على الاطباء الاختصاصيين لمعالجته فنصحوه بالذهاب الى كارلسباد

وبلغه عند ما وصل الى كارلسباد ان السلطان محمداً الخامس قد توفي في الثالث من تموز (يوليو) سنة ١٩١٨ وان وحيد الدين قد اعتلى العرش باسم محمد السادس

وكانت الاخبار التي تصله تباعاً لا تدع مجالاً للشك في ان الامور قد بدأت تجري في التيار الذي يحبه ، وعلى المنهاج الذي يريده ، فقد كانت هيبة انور قد ضاعت وفقد الشطر الاكبر من نفوذه

ولم يمض وقت طويل حتى وصلة من احد اصدقائه الاوفياء برقية يقول فيها ان حضوره الى استمبول ضروري جداً

ولكن الانفلونزا ابت الا ان تعيقه في فينا ، فاضطر الى تأجيل السفر حتى شفي منها ، فغادر فينا فوراً وكله آمال

واخيراً وصل الى استنبول ! . .

٢٢
تركيا المفجوعة

لم يكن الجنرال انور راغباً في التنازل عن مركزه ، او التخلي عن قضية بلاده كما يتنازل الرجل الذي يغلب على امره ! . فأبى ان يرغم على الاستسلام ارغاماً .. وكانت ارادته قد ضعفت ولكنه كان جسوراً كما كان طول حياته ، فحاول لم شعث القوات المبعثرة الباقية التي نجت من المعارك الكثيرة . واصدر الاوامر السريعة لهذه الفرق بالقدوم الى العاصمة لمجابهة العدو بالقرب من (جتالجه)

وكان ينتظر ان تخمد العاصفة في اللحظه الاخيرة ، كما حدث قبل وقوع نكبة سنة ١٩١٢ ولكن الساعة كانت قد مرت فأبى حتى الذين عضدوه من قبل السير معه ، واتباع سياسته !

وكان مصطفى كمال في ذلك الحين لا يزال يحارب الانكليز في « حلب »

ولم يكن من الصعب على مصطفى ان يرى ان المانيا قد خسرت مع حليفاتها ، في تلك المغامرة التي اقدمت عليها ، ولكنه عرف ايضاً ان كيان تركيا ذاته كان في خطر ، وان البلاد لا يمكن ان

تتمتع بالسلام بالسرعة التي كان يتصورها الاهلون، وكان على مصطفى كمال ان يخلص بلاده من الازمة الخطيرة التي وقعت فيها

أجل ، شعر مصطفى كمال شعوراً عميقاً ، بان البلاد تناديه لينتشلها من الوهدة السحيقة التي سقطت فيها ، فارسل برقية الى « السلطان » اوعز فيها بان يتولى المرشال عزت باشا رئاسة الوزارة واقترح تأليف وزارة جديدة من اشخاص اورد اسماءهم ممن كانوا موضع تقدير الشعب وحبه ، وطلب لنفسه رئاسة وزارة الحربية ، وان يكون الحاكم المطلق على الجيش التركي كله

وجاءته الاخبار بعد ذلك بقليل بان طلعت وأنور قد سقطا ، وان عزت باشا قد عين رئيساً للوزارة ، وان اعضاء الوزارة الجديدة هم الاشخاص الذين جاء ذكرهم في برقيته ومن بينهم فتحي بك

وارسل له عزت باشا برقية خاصة قال فيها :

« اذا شاء الله أؤمل ان نلتقي كرفيقين بعد عقد شروط الهدنة » ! . .

ولكن بدلاً من ان يعين مصطفى كمال قائداً عاماً للجيش كما طلب ، اعادوه الى قيادة القوات المرابطة في سوريا الشمالية ، وكان لا يزال تحت امرة الجنرال ليمان فون ساندروس

وجاء مصطفى كمال الى اطنه الواقعة على الساحل الجنوبي من آسيا الصغرى . .

وهناك في غرفة صغيرة سلمه ليمان الامر الذي تسلمه من السلطان ولما استأذن المرشال الالماني بالانصراف قال عند توديع مصطفى كمال هذه العبارة اللطيفة :

« ان الشيء الوحيد الذي يدخل العزاء الى قلبي وسط هذه الظروف السيئة التي تحيط بنا ، هو اني سأترك « مصطفى كمال » خلفاً لي ! . . »

و بدأ رئيس الوزارة عزت باشا يجري المفاوضات لعقد شروط الصلح ، وكان الاعتقاد السائد انه اذا عقد صلح انفرادي سريع ، فمن الممكن ان تنجو البلاد من الورطة التي وقعت فيها دون ان تتحمل خسائر فادحة

و كان امل « المتفائلين » عظيماً بانكلترا فارسلوا الجنرال الانكليزي طاونساند الذي كان سجيناً في كوت العمارة الى الاميرال كالتورب الذي كان قائداً للاسطول الراسي في مرافىء جزيرة مودروس في مدخل الدردنيل . . ولكن هؤلاء المتضرعين قد اجبروا على الاستسلام بعد ان قطعوا الامل من شعور الانكليز معهم في محنتهم

اجل ، جرت المفاوضات على ظهر الباخرة سوبر التى كانت تقل قائد الاسطول الاميرال كالتورين في وقت قصير لم يسمح حتى باستشارة القوات الفرنسية المتحالفة مع الانكليز ! . .

وتم الاتفاق في الثلاثين من تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٨ وفي اليوم عينه عبر الجيش الفرنسي « مارتيزا » الواقعة بالقرب من « ادريانو بل » وكان في وسعه السير الى « استنبول » والوصول اليها بعد ايام قليلة

وكان من شروط الهدنة ان تعامل القوات البرية التركية معاملة رقيقة للحد الاقصى ، وان كان الاسطول التركي قد سلم كله للحلفاء ! ...

اجل ، لم يكن بين شروط الصلح اية مادة تنص على تجريد الجيوش من السلاح او تسريحها ، او تقديم ذخائرها الحربية ، ولكنها نصت فقط على ان الجيش التركي ينبغي أن يحل باسرع ما يمكن مع استثناء الفرق الضرورية لحماية الحدود ، والاحتفاظ بالامن في داخل البلاد

وفي خريف سنة ١٩١٨ كان « مصطفى كمال » من القواد العاطلين ! فعاد الى « استنبول » وعند وصوله الى هذه المدينة القديمة ، حيته بيهائها الدائم ! ... وجمالها الذي لا يفنى ! كانت قصور السلطان الفضية تسطع وتشع وسط النضرة التي لا تذبل والاخضرار الذي لا يذوى ! ... ، وكانت الدور ذات الالوان المختلفة البهجة ، تحيط بالمساجد الشاهقة ، تزين قبابها العالية الاهلة الذهبية التي ترمز للاسلام ، تشع عندما تسطع اشعة الشمس

اللطيفة ، في فصل الخريف ، المعتدل الحرارة ...

ولكن مع هذا الجمال كانت اساطيل الحلفاء قد تجمعت في مياه البسفور الزرقاء التي كادت تختفي وراء البوارج والمدرعات السنجابية ، برقاب مدافعها الطويلة مشيرة مهددة ، صوب الساحل هذه الاساطيل التي تجمعت والتي كانت مظهراً من مظاهر مباهاة الفاتح وجبروته . هذا الفاتح الذي كان الاتراك يترقبون هجومه ويهلعون من تهديده وانذاره

اما « استنبول » التي كانت في القديم دائمة الصخب والضجيج فقد رآها مصطفى كمال في خريف سنة ١٩١٨ راقدة في عزلتها الصامتة ، كانها مبطوحة مضنية الجسم منهوكة القوى ، فلم يكن يسمع صوتاً ولم تكن تظهر أية اشارة على وجودها وحياتها ، بل كان يخيل لمن يرى هذه المدينة انها قد اضاعت نطقها في اثناء الليل !

اجل ، كانت الشوارع فارغة ، وقد خمدت اصوات الباعة المتجولين .. واغلقت معظم المخازن والحوانيت .. وجفت فوارات المساجد وينابيعها

كان لا يقبل المساء الا ويخيم الظلام الدامس على الدور . لم يكن يجد الناس ضروريات الحياة القصوى . حتى الماء !!.

وكان اذا تجاسر اي انسان ، وخرج من داره ، هرول في سيره في خوف وذعر !

وكان يسمع الناس اصوات وقع اقدام الفصائل الصغيرة التي كانت تسير سيراً عسكرياً منتظماً ، هذه الفصائل الانكليزية المعروفة بغلاظتها ! . او الفصائل الفرنسية التي كانت كثيرة التهكم والسخرية !

وكانت « بيرا » على الجانب الآخر من جسر غلطه تعج عجيجاً كانت الاعلام ترفرف على كل الدور .. وكانت الشوارع غاصة بالجماهير المرحة الطروبة

اما نوافذ المخازن التي كان معظم اصحابها من اليونانيين فقد كانت مزدانة باكاليل الزهر ، والشرائط الزرقاء والبيضاء وصورة « فنزيلوس » ذلك المحامي الكريتي .. الذي هزم قسطنطين صهر قيصر المانيا !

اما الارمن ، الشعب الوحيد الذي كان يحق له ان يشكو من النظام العثماني فقد وكل الى « ولسن » — حامي العدالة ونصير القضية الارمنية !

اجل ، كان يجد الارمن من حنق الامة الاميركية على سياسة الاضطهاد التركية ، وسخطها عليها ضماناً اكيداً لنجاحهم في تكوين دولة مستقلة عظيمة في آسيا الوسطى !

.. وبمعنى آخر كانوا يطمعون في مساعدة الامير كان لهم على اعادة مجد « ارمينيا القديمة » !

وكان الاكراد — وهم من القبائل الاسلامية التي تقيم فوق التلال ، على الحدود الجنوبية — يصبون الى الاستقلال

وعلى هذا كانت عبارة « حق الامة في تقرير مصيرها » العبارة التي نسمعها من كل فم !

وكان يحق للاتراك ان يستسلموا لليأس و يجدون ما يبرر قنوطهم فان بلادهم قد استنزفت دماؤها حتى الموت !

نقص عدد نفوسها . وحصدت الحرب العالمية والحروب الاهلية المتواصلة مدة ٨ سنوات خيرة جنودها ... وانتاب الجوع جميع مدنها ... وقراها ... وخيم الفقر على ربوعها ونشر اجنحته على بلاد كانت في ايام مجدها عامرة مزدهرة !

وضاقت الدنيا في وجوه الاتراك فلم يجدوا منفذاً واحداً للنجاة ، ولم يمد صديق يد الاغاثة ... بل لم يكن ينتظر الاتراك المساعدة من اية ناحية ! ... وفي عبارة واحدة :

أيقنوا انه قد حكم عليهم بـ الاعدام

وان الامبراطورية العثمانية التى ظلت سقيمة اكثر من قرن « تلفظ النفس الاخير » ! ...

وكانت الازمة العالمية قد اكتسحت ثلاثة عروش لثلاث امبراطوريات فكيف يمكن لعرش السلطان ، وقد كان اضعف العروش ان يبقى ؟

اجل ، ايقن الاتراك ان مصير بلادهم لن يكون غير مصير الامم التي انهارت قبلها !

ضاع نصف الامبراطورية . الذي كان يشتمل على مدن زاهرة كدمشق والقدس وبغداد والموصل وحلب !

واخذ العرب يحلمون بتكوين امبراطورية عظيمة تضم كل العرب !

واصبحت خطوط السكة الحديدية ومنافذها البحرية . ملكاً للحلفاء !

وكان في وسع الدول الكبرى ان تتقدم لتلتهم الاجزاء الباقية من الامبراطورية ، ولكنها وجدت ان لا حاجة بها الى الاسراع فان تركيا كانت مصفدة مقيدة بالاغلال . ليس في وسعها ان تتحرك !

ومرت سنتان قبل ان تتمكن الدول من الاتفاق فيما بينها على قرار نهائي في التهام الامبراطورية العثمانية . واستسلم سكان استنبول وشعروا بذل الاذعان وفقدوا كل ثقتهم بنفسهم ، واعتمادهم على ذاتهم ! ..

واوربا قد تحدثت طويلاً عن « الرجل المريض » ، لدرجة ان جعلت الاتراك انفسهم يعتقدون هذا الاعتقاد ويؤمنون انهم مرضى وان مرضهم لا يرجى له الشفاء وان لا مفر من الاذعان للقدر المحتوم

وان التمرد على الاشياء التي لا مناص منها « جنون » واي جنون !

ونتيجة هذا « الجنون » المحتمة يجعل الحالة تزداد سوءاً على سوء ، وعلى هذا كان هم الاتراك ان يفكروا في وسيلة تبقيهم على قيد الحياة ، على اي صورة كانت ، وعلى اي شكل كان !

هذه هي الحالة النفسية التي وجدها « مصطفى كمال » في الشعب التركي !

وجد قلب المرشال « عزت باشا » ذاته قد خار واستسلم لليأس ، ودفعه القنوط لاعتزال منصبه ، وهو رئاسة الحكومة

زاره الجنرال مصطفى واخذ يستقصي منه عن اسباب اعتزاله ، فعلم ان السلطان قد امتلأ قلبه بالحقد على رئيس وزرائه لانه لم يقبض فوراً على الثلاثة الذين كانوا يعدون المسئولين عن كل هذا الشر : طلعت ، انور ، جمال ، وكان يظهر انه هو نفسه الذي ساعدهم على الفرار على سفن المانية

كان « وحيد الدين » يريد القضاء على هؤلاء الخصوم الثلاثة بعد ان اصبح يبغضهم البغض كله ويمقتهم المقت كله . كان يفعل هذا ليتحبب الى الفاتحين ! . وليستميلهم اليه ! . . . وكانت هناك مادة من مواد شروط الهدنة تقول بتسليم الذين يعدون مسئولين قبل غيرهم عن الحرب الكبرى

ووجد السلطان عذراً لنزاعه مع « عزت باشا » الذي استقال

من وظيفته فشغلها « توفيق باشا » وكان كهلا في الثمانين !

وكان توفيق باشا موظفاً في ايام الحكم الحميدي ثم اصبح فيما بعد سفيراً لتركيا في لندن حيث استطاع ان يكتسب عطف الانكليز ورضاهم

ولا بد لتوفيق باشا من الحصول على الثقة البرلمانية ، طبقاً للاجراءات الدستورية

ومصطفى كمال في ذلك الحين لا يزال يؤمل ان يمتلك زمام الحكم بالطرق الشرعية القانونية ، وخطته هي الاحتفاظ بوزارة تتألف من رجال وطنيين حق الوطنية ، ومن اصحاب الارادة الحديدية ، والعزيمة الصادقة ، ولهذا فكر في استمالة عزت باشا ليقبل من جديد منصب رئاسة الوزارة ، وان يكون مصطفى كمال المسيطر الفعلي على هذه الوزارة

وكان الامر كله يرجع للبرلمان فاسرع مصطفى كمال لحضور تلك الجلسة التي سببت فيها تقرير « الثقة » بالوزارة او (عدم الثقة) بها

وكان لمصطفى بعض الاصدقاء بين الاتحاديين الذين يؤلفون اغلبية المجلس ومن بينهم « فتحي بك » الذي كان ذا نفوذ وسلطان وعلى هذا شعر مصطفى انه من الممكن ان ينتفع من هذا الحزب الاتحادي في بدء نضاله ، ولكنه حين يمتلك ناصية الأمور ينفض يده منهم و يستغني عنهم

وجمع فتحي بك عدداً من النواب ، واخذ يتشاور معهم في غرفة مجاورة

وعرض مصطفى كمال اقتراحه عليهم وهو التصويت بعدم الثقة بالوزارة ولكنهم اعترضوا بان التصويت بعدم الثقة يؤدي حتماً الى حل المجلس، فرد مصطفى :

خير وأبقى ! .. فاننا « نكسب الوقت » عن هذا الطريق !.

ونعد امورنا لتكوين الوزارة التي نريدها !

دق الجرس ، ودخل النواب قاعة البرلمان ..

وطرحت مسألة التصويت من بين المسائل التي اشتمل عليها جدول تلك الجلسة

ثم جاء وقت التصويت .. واعلن الرئيس النتيجة . فكانت الاغلبية الساحقة في جانب الثقة بوزارة توفيق

٢٣
القضاء على مجلس النواب

رأى مصطفى ان الآمال التي عقدها على النواب الوطنيين قد خابت ! . وان هناك فرصة واحدة باقية لم تفلت من يده !

وعلى هذا ترك ابنية البرلمان .. ولم يكد يصل لداره حتى اتصل تلفونيا بالقصر ، والتمس مقابلة «السلطان» في اقرب وقت ممكن !

ومن المحتمل كثيراً ان يكون وحيد الدين عندما بلغه هذا الخبر قد ابتسم وقال في نفسه : ان الرجل عاد اليه من جديد !

طلب السلطان الاجتماع بمصطفى في اقرب يوم جمعة ، وكان يريد من اختيار هذا اليوم .. يوم الاجتماع في السلاملك ان يعلن مصطفي اتصاله بالسلطان ، وان يؤكد عملياً للحاضرين الولاء لجلالته .. وان يحضر صلاة الجمعة مع عظمته ثم يتخذ التدابير لسماع حديثه الثوري على انفراد !

وبعد انتهاء الصلاة ورفع التضرعات لله ، طلب السلطان وحيد الدين من مصطفى ان يذهب مع جلالته الى «الصالون» وتعمد السلطان اطالة المقابلة فاستغرق الحديث ساعة كاملة . ولكن الحديث لم يسفر عن شيء ذي قيمة ! .. او شبه قيمة !

اخذ يصغي السلطان الى حجج الجنرال مصطفى دون ان تظهر منه اقل بادرة على موافقته ، او عدم موافقته ، على اقواله هذه .. ثم طرح فجأة هذا السؤال :

« اني مقتنع تمام الاقتناع ان القواد وضباط الجيش يثقون بك اعظم الثقة فهل تضمن لي ان لا يتخذ الجيش اجراءات ضدي »؟ !

فاجابه مصطفى كمال :

« لا اعلم ، يا صاحب الجلالة عن المستقبل شيئاً ، ولكن الذي اراه في الوقت الحاضر ان القواد لا يجدون اي مبرر لتمردهم على عرشكم بل اني استطيع ان اؤكد لجلالتكم تأكيداً قاطعاً انه لا يوجد ما يبرر تخوفكم » ! فقال السلطان :

« اني لا اتكلم عن الوقت الحاضر فقط ، ولكني اود ان اعلم ماذا ينتظر ان يحدث في المستقبل » !

ورأى مصطفى كمال بجلاء ان السلطان يريد ان يستخدمه هو والجيش كآلات لتنفيذ خطط ينوي القيام بها ، ولكنه لم يكن يعلم شيئاً عنها ، ومع هذا فلم يجد دافعاً يدفعه لقطع امل السلطان ، والقاء الريبة في قلبه من جهته .

ولا نعلم ماذا قال مصطفى في ذلك الحين ، ولكن لا بد انه قد حدثه حديثاً ادخل الاطمئنان الى قلب جلالته والدليل على هذا اجابة السلطان له بقوله :

« انك قائد حاذق حكيم ، ولا بد انك تستطيع التأثير على رفاقك لتدفعهم الى الهدوء وتحضهم على التروي »

وكانت هذه المقابلة — الخاصة — التي تمت دون شهود مدعاة لاثارة اهتمام الشعب بها ،

وخرج مصطفى كمال من القصر فاخذت عيون الذين كانوا بانتظار السلطان ترمقه ، وتتطلع اليه بذهول ... تحاول ان تستطلع خبايا تلك النفس ، واستنتاج ما يمكن استنتاجه عن تلك الزيارة الخاصة الطويلة !...

وفي اليوم نفسه صدرت « ارادة » سلطانية بحل البرلمان !!.. دون ان تعين هذه الارادة السلطانية موعد اجراء الانتخابات الجديدة .. فكان هذا التدبير التحكمي ، بعد تلك المقابلة الغامضة سبباً في حديث الناس عن علاقة مصطفى كمال بالسلطان ، وتأثيره الكبير عليه ... اجل ، قالوا انه هو الذي اوحى لجلالته باتخاذ تلك الاجراآت الاستبدادية ... وعلى الاخص لانه قد صرح للنواب بانه لا يرى حل البرلمان من الامور غير المرغوب فيها

والواقع ان الناس جميعاً كانوا يرون مصطفى لغزاً من الالغاز فلا يدرون ما هو موقفه من السلطان ، وما هي خططه وماذا ينوي ان يعمل .. كان في نظرهم شخصية عجيبة .. أحجية من الاحاجي المبهمة .. ومع هذا كانت كل جماعة تعتمد عليه .. وكل حزب

يرى فيه حليفاً ونصيراً ! ...

وكما كان يتوقع السلطان اخذ كثير من رجال الجيش ينتظرون من القائد المحبوب اشياء عظيمة !

وكانت صلاته بالاتحاديين قد توثقت اكثر من اي وقت آخر على الرغم من انهم قد تركوه في حيرته وارتباكه .. وكان يتصور السلطان انه قد « ملكه » .. وانه ممن « يؤيدون العرش » ! .. ولهذا كان يتلقى التعليمات من مصطفى كمال .. ويحاول ان يتمشى في سياسته طبقاً لارادة مصطفى ! .

واخذ رئيس الوزراء « توفيق باشا » يسعى لابعاد الاتحاديين الذين كانوا يؤلفون الاكثرية البرلمانية ولم يكن راضياً عنهم

والواقع ان هذا الباشا الكهل كان بغيضاً مكروهاً من الاحزاب كلها وقد اثبت ضعفه المتناهي ، وراجت الاشاعات بان الاتحاديين قد سلحوا انصارهم لكي يتمكنوا من اعلان الثورة في آسيا الصغرى !

وعندما عزل عبد الحميد عثر في قصر يلدز على كثير من التقارير السرية التي تبودلت بين « وحيد الدين » وشقيقه فتلقفها الاتحاديون ونشروها واخذوا يتحدثون جهاراً عن ضرورة عزله

واختفى توفيق باشا وحل مكانه « الداماد فريد باشا » — الجنتلمان الانكليزي — وزوج ابنة السلطان .. وكان يطمع في هذا

المركز الرفيع منذ امد طويل

واشار عليه الحلفاء بالقبض على اخطر زعماء الحزب الاتحادي فاجابهم الى ماطلبوا

واتهم احد الاتراك بالاشتراك في المذابح الارمنية فحكموا عليه بالاعدام شنقاً فقوبل هذا الحكم بالاشمئزاز العام ، وقام الاتراك بمظاهرة كبيرة كادت تحدث فتنة على اثرها

واستأجر مصطفى كمال داراً في شيشلي احدى ضواحي بيرا وكان يعيش في تلك الدار كفرد عادي اعتزل السياسة

وكان يشاهد في بعض الاندية يختلط بالاوساط الاجتماعية الراقية ويصغي لاحاديث الناس بكل اهتمام وعناية ويرمق من يخاطبه بعينين صغيرتين حادتين فيكاد يستهويه ولكنه كان شديد التحفظ فلم يكن يدل حديثه على شيء ، وحار الاتراك في امره ولم يدروا هل هو من المعارضين للسلطان او من انصاره ؟ وكانت كل جماعة تحاول ان تقبض عليه وتضمه اليها ، فيفلت من بين ايديهم ومع هذا كانوا يطمئنون اليه ويثقون به ، ويودعونه اسرارهم ويبثونه شكواهم وآلامهم ، ويحدثونه عن احلامهم وامانيهم فكان يصغي اليهم جميعا ويبسم في وجوههم جميعا ، وهذا ما دفعهم للتخوف منه وعدم الثقة المطلقة به . كانوا يرون انه يخفي عنهم شيئاً وانه يحول جهوده نحو هدف معين ، ولكنهم كانوا يجهلون جهلا تاما ذلك الهدف

واخذ الاور بيون يجذبون الاتراك ، الانكليز باستقامة سلوكهم وحسن تصرفهم والايطاليون بترغيبهم في الاتصال التجاري ببلادهم ، ومنحهم الامتيازات التجارية العديدة ، وايثار البضائع التركية على غيرها ، والفرنسيون بفتح غرف استقبالهم في « بيرا » للاتراك ، الذين كان يستهويهم الجمال النسوي الفرنسي

وكانت الفرنسيات تتعمدن زيادة التلطف مع الاتراك طبقا للتعليمات التي تصدر لهن من ازواجهن واخوتهن وابنائهن !

وهذا ما جعل الاتراك لا يصفون المرأة الفرنسية ولا يتحدثون عنها الا على انها امرأة انيسة ، ودودة ، يشتهون اطالة البقاء معها والتحدث اليها !

وتبدلت الامور وبزغت بارقة من الامل فقد صرح بعض المسلمين الهنود ، في مذكرة رفعوها للحكومة البريطانية ان نقل « السلطان الخليفة » من « استنبول » يعد في نظر المسلمين في العالم الاسلامي كله من الاعمال المجحفة الضارة بحقوقهم

ولما كانت بريطانيا العظمى تهتم بالعالم الاسلامي اهتماماً خاصاً كان من الطبيعي ان تحسب حساباً لهذا الانذار الهندي

ولكن السلطان من الناحية الاخرى كان يعتقد بانه لا يستطيع الاحتفاظ بعرشه الا بمعونة انكلترا، ويرى الداماد فريد باشا صديق الانكليز اكبر انصاره ومؤيديه

وعلى هذا تكونت جمعية « اصدقاء انكلترا » وكانت الحكومة لا تضن على هذه الجمعية بكل انواع التأييد ، والانكليز من جانبهم يغدقون على اعضاء هذه الجمعية الذهب المغري ولا يرون الاشياء الا بالعيون الانكليزية !

٢٦
رجل الساعة

قضي على الامبراطورية العثمانية وكان من المستحيل بعثها وقيامها وكانت فكرة توحيد الشعوب الاسلامية ، وتكوين رابطة قوية منها تجربة بعيدة التحقيق ، فكان الخليفة طيفاً لا حياة فيه ، وكان السلطان خيالاً بغير حياة !

اجل ، كان من المستحيل استعادة النظام القديم ، وكان الذين يفكرون في تجديد ذلك العهد المظلم ، هم ابعد الناس عن التفكير الصحيح ، فكان الماضي المثقل بالادران والاوحال ، يغرق كل من يتعلق به ، و يقضي على كل من يحن اليه !

اجل ، كانت الآمال كلها معقودة على « الشعب » التركي ! .. بممتلكاته في آسيا الصغرى من القوقاس الى البحر الابيض المتوسط

اما ما عدا الشعب التركي فكان يعد « حجارة » ... ومن بقايا العصور المتوسطة ! .. واطلالها الدارسة ! ..

وكانت الدول الغربية قد تشرقت بمبدأ الاستقلال . وقالت انه حق من حقوق الشعب ، بل هو حقه الاسمي دون ريب ، فاذا كان الامر كما تقول ، فمن المنطق ان تكون تركيا للاتراك كما ان اميركا للاميركيين ! ..

وبمعنى اوضح ينبغي خلق دولة حديثة على اسس ودعائم عصرية تركيا الحديثة القائمة على ارادة الشعب ولاجل الشعب ! ..

تركيا الحديثة التي تتمتع بالسلطان المطلق والسيادة التامة ..

تركيا الحديثة التي لا تترك مجالاً لمهازل السلطان او الخليفة . للعرش او المحراب

بلى ، كان يرى مصطفى كمال ان ضرورة خلق الدولة التركية القومية البحتة ، ومراعاة تخومها الطبيعية من الامور الجلية كل الجلاء .. ولكن خطته التي كان ينوي تنفيذها والعمل بها كانت من الجرأة والاقتحام حداً يصعب تصوره في ذلك الحين، لدرجة ان اضطر مصطفى لاخفاء هذه الاغراض حتى عن رفاقه !

ويعلم الله انه لو كان قد حدث اقرب الناس اليه في ذلك الزمن عن «الجمهورية» مكان « السلطنة » وتكوين الدولة «الدنيوية» مكان « الدينية » لما كانوا فهموه ، بل كانوا اذا فهموه يأبون حتما ان

يتبعوه .. كانوا يتصورون انه بالامكان عزل الملوك غير المرغوب فيهم، ولكنهم كانوا لا يستطيعون ان يتصوروا كيف يمكن القضاء على السلطنة وعلى الخلافة المقدسة .. كانت هذه الفكرة فوق مدى تصورهم، وابعد من ان تدركها عقولهم ومداركهم المحدودة

وكان مثلهم في ذلك مثل الشعب الكاثوليكي عند ما يقوم احد الكاثوليك اليوم يدعو الناس للقضاء على «البابوية» ! أجل كانت الخلافة والسلطنة في ذلك الحين بين الاتراك كالبابوية اليوم في روما .. سواء بسواء

أفهمت الان لماذا كان كل تركي مهما كان واسع العقل، لا يتصور الحلم الذي كان يسعى مصطفى كمال الى تحقيقه !

ولكن السلطان هو وحده الذي شعر — بحكم غريزة الحكم منذ البداية — بان الحركة التي بدأ بها مصطفى كمال لا ترمي في النهاية الا الى تنفير الاتراك من اسرته، ولا ينجم عنها غير توليد العداء بينها وبين الشعب !

وهذا ما حدا به لمقاومته مقاومة مرة . وكان يرى الذين يجهلون بواطن الامور واسرارها انه من الجهل ان يظهر السلطان كل هذا العداء لمصطفى، وان ينقم عليه كل هذه النقمة !!

ولكن الجنرال مصطفي قد صمم جازماً على تحقيق استقلال

تركيا ، وكان يرى ان الاستقلال يكتسب ولا يوهب ، وقد ايقن ان السبيل الوحيد لاستقلال بلاده لا يكون الا عن طريق الاصطدام بالدول الاوربية او على الاقل بدولة من هذه الدول

وكانت فكرة معاداة الدول الاوربية العظمى جديدة ايضاً في نظر الاغلبية الساحقة من الشعب التركي فهم لا يستطيعون ان يتصوروها او يدركوها

نعم لم يكن يصدق التركي انه بامكان دولة صغيرة ، منهوكة القوى ، في حالة الاعياء الشديد ، مقيدة بالسلاسل والقيود ، ان تتجرأ على مناهضة الدول الاوربية الكبرى الظافرة ، الدول الاوربية التي انتصرت انتصاراً باهراً على دول شديدة البأس ، قوية الجانب كالمانيا والنمسا !

اجل ، كان يتصور التركي ان من يقدم على عمل جنوني كهذا يكون قد فقد كل ذرة من العقل ، وأضاع كل ما يملك من قوة المنطق ، وليس عامة الشعب هم وحدهم الذين كانوا يفكرون بهذا ، بل ان الرجال الممتازين الذين كانوا يشغلون المراكز الرفيعة في الدولة . . الزعماء والقادة ، ومن بيدهم السلطة ، كانوا لا يختلفون في تصرفاتهم عن العامة ، كثيراً او قليلاً !

اذن كان مصطفى كمال مصيباً عند ما راعى عدم ازعاج اتباعه بهذه الافكار « الجنونية » . . وكان حكيماً عند ما تجنب كل ما يشتم

منه رائحة العداء للدول الاوربية !

ويبنغي ان لا يغيب عن اذهاننا ان جرأة مصطفى واقتحامه ليست كتهور انور ومجازفته ، فليس مصطفى من الطائشين الذين يغامرون كالعمي ، دون ان يحسبوا حساباً للمستقبل ، وليس هو من المتفائلين الذين يغالون في تفاؤلهم لدرجة ان يتصوروا ، ان الامور تتحول كلها للخير في النهاية ، بل كانت شجاعته وليدة الحكم الصحيح ، القائم على تفهم نفسية الافراد والجماعات ، تفهماً عميقاً يدل على ذكاء وحذق

كان يرى مصطفى ان الحلفاء اقوياء ، ولكنه اكتشف مكانا من اماكن ضعفهم لم يكتشفه احد قبله . اكتشف ان الدول الكبرى كانكلترا وفرنسا قد قاست من ويلات الحرب الكبرى وفجائعها ما هو افدح بكثير مما يبدو في الظاهر ، وان الشعب الانكليزي او الشعب الفرنسي قد انهكته السنوات التي قضاها في الكفاح ، لدرجة انه لا يخطر ببال الانكليز او الفرنسيين بعد ان ذاقوا ما ذاقوا من مرارة الحرب ان يقبلوا الاشتراك في حرب جديدة لاغراض استعمارية ، ولاشباع احقاد بعض الزعماء ، او ارضاء شهواتهم الشخصية

وتمكن مصطفى من اخفاء خططه بمهارة لا مثيل لها ، فابقى اتباعه في الظلام لا يدرون شيئاً من هذه الخطط .. وكان يقودهم على الرغم من ارادتهم الى الهدف الذي كان يسير اليه بخطوات ثابتة

وبجرأة عديمة النظير !.. وكان لا يخطو خطوة جديدة الا متى ايقن انه بأمن من كل خطر ينتظره

اجل، كان لا يكشف الاسرار الا عند ملائمة الزمان، وكان لا يتعجل الحوادث بل يقوم بالشيء في الوقت الذي ينبغي ان يقوم به. وكان كل همه ان يجمع حوله الرجال الذين يسيرهم في الطريق التي يسير فيها، ويقودهم الى الهدف الذي يسعى اليه

ثم اخذ يشرح خطته لجماعة من اقرب المقربين اليه في استنبول فيقول لهم:

« ان الحكومة ليست حرة في الوصول الى اي قرار !... وان السلطان لا يفرق كثيراً عن السجين في ايدي الظافرين !.. وان مركز الحركة القومية ينبغي ان ينتقل الى داخل البلاد ...! الى « الاناضول » ... ففي « الاناضول » يمكن ان يغرى الاهالي بالاندماج في الحركة القومية والاشتراك فيها .. وان الحركة القومية قد ينجم عنها نجاة عرش السلطان المهدد، وخلاصه من ايدي الفاتحين !. و ينبغي ان تبذل كل المساعي لتجنب الاصطدام بالشعوب الاوربية، فان الحركة التي ننوي القيام بها « سلمية».. لا نقصد من ورائها الا ان نبرهن للعالم على ان تركيا ما زالت تملك الارادة التي تمكنها من الحياة، وانه ينبغي ان يحسب لها الحساب المطلوب

يجب ان لا نلتمس مساعدة حزب معين ، بل ينبغي ان نجعل حركتنا موئيدة من الامة عن بكرة ابيها مدعمة بموافقة الاحزاب جميعها

وان اول شيء ينبغي ان نفعله هو ان نخلص السلطان ·· ثم يعود فيقول :

واني لا اجد كلمة طيبة اقولها عن حكومة الداماد فريد باشا ، ولهذا ارى ان قلب هذه الحكومة يعد ولا شك من الاعمال الوطنية

اما عن قضية الضباط فالذي اعتقده ان هؤلاء الرجال يخضعون عندما يجدون انفسهم امام الامر الواقع الذي لا مفر منه ، وهم يراقبون خراب بلادهم ودمارها وايديهم بجوار جنوبهم ·· لا يحركون ساكنا ، ولا يبدون اعتراضاً ، فهم لا يعرفون ان يفكروا وكل ما يسعون اليه هو حماية انفسهم وتنفيذ ما يطلب منهم ، وعلى هذا فمن الضروري ان اتولى قيادة الجيش » ! !

سعى لتولي قيادة الجيش فقيل له ان لا امل على الاطلاق في تعيينه وان الوظائف كلها مشغولة !

وكانت الدول الاوربية تجهل وجود اضطرابات في الاناضول ·· وفي داخل آسيا الصغرى

وكانت اعمال قطاع الطرق يتسع نطاقها و يزداد هولها ،

وكانت فرق الجنود المطلقة تمرح في طول البلاد وعرضها

ونشط الاتحاديون واصبحوا قوة يرتاب في نياتها

وكان من الضروري لحفظ النظام ، واستتباب الأمن ، وجود يد قوية تضرب على العابثين بالامن

ولما كان من الصعب الوصول الى الاقاليم الشرقية كانت الفوضى تسودها اكثر من غيرها

ووقف الاتراك والارمن والاكراد يشاكسون ويقاتلون بعضهم بعضاً بمنتهى القسوة والفظاعة ، وكانت الاسلحة لا تزال موجودة في كل مكان

وبدأت السلطات تصرف الجيش ، وتجمع الذخائر الحربية، وتخزنها في اماكن حريزة يمكن صيانتها

وكانت السلطات الاوربية ترى غيوماً سوداء في الجو ، لهذا رأت من الحكمة ان تقمع حركة المعارضة في اول مرحلة من مراحلها . فطلبت من الحكومة التركية ان ترشح شخصاً اميناً ، يركن اليه لارساله الى الاقاليم الشرقية ، فاستشيرت وزارة الحربية في هذا الموضوع فاقترح مستشار الحربية الاول « جواد باشا » ان ترسل الحكومة الجنرال « مصطفى كمال »

وكان جواد باشا لا يعرف شيئاً عن خطط مصطفى ، وكان وزير الحربية ذاته يرتاب في نيات مصطفى . ومع هذا فقد قبل

الاقتراح فوراً ، وبلغ الخبر الى مصطفى كمال فاجاب بان اجراء التحقيق السريع ، والاحوال المضطربة في الاقاليم الشرقية ، واتخاذ التدابير الضرورية يتطلب حتماً ان تعطى له سلطة واسعة ، وان تكون كلمته نافذة ، والا ضاعت هيبته وهيبة الحكومة معه ، فاجابته الوزارة الى كل ما طلب ، ووافق الداماد فريد باشا على كل اقتراح قدمه مصطفى كمال

وكان مصطفى كمال يعد في ذلك الحين صديقاً للسلطان ، وكان لا يبدو عليه مطلقاً انه يدس للحكومة او انه غير راض عنها !

وسواء ا كانت الحكومة واثقة منه كل الثقة او بعض الثقة ، فقد رأت من الحكمة ان تجعله منهمكاً في العمل على الدوام ، لئلا يستسلم لوساوسه ، وكانت تخشى نقمته اذا انقلب عليها ، فرأت ان نقله الى مكان بعيد عن العاصمة خير لها من بقاءه فيها

وجاءته التعليمات فلم يقبلها على علاتها ، وظل ثلاث ساعات كاملة « ينقحها » ويسبكها في القالب الذي يريده ، والذي يحقق له الهدف الذي يرمي اليه . ثم عرض التعليمات المنقحة فعادت اليه بعد الموافقة عليها من رئيس الوزارة الذي امضاها دون تدقيق او انعام نظر ، ثم قدمها بدوره لوزير الحربية ، فتردد بعض التردد ثم ذيلها بختمه !

وارسلت نسخات منها الى ضباط الحلفاء الذين كانوا يقيمون

في آسيا الصغرى ليكونوا على علم بما يجري

وسافر مصطفى كمال الى الاناضول كرجل قد وضعت الحكومة ثقتها الاكيدة فيه ، وكممثل اعترفت الدول الاوربية به ووافقت على تعيينه مفتشاً على الجيش ، وحاكماً عاماً على الولايات الشرقية

ولم يسافر الا بعد ان وضع مع جواد باشا رموزاً للمراسلات البرقية السرية حتى يكون على اتصال مستمر باستنبول

وانتخب خمسة من الضباط ليصحبوه في سفرته

٢٥
تقسيم تركيا

ترك « مصطفى كمال » استنبول في الخامس عشر من شهر ايار سنة ١٩١٩ على الباخرة الصغيرة « انوبلي » على امل الوصول الى سمسون عن طريق البحر الاسود

اما « باريس » فكانت منصرفة في ذلك الحين انصرافاً كلياً الى املاء شروط الصلح المجحفة على المانيا ، ولهذا تركت قضايا الشرق الادنى معلقة الى حين لا تحاول ان تجد لها حلاً .

وكان مصير تركيا في ايدي تلك الدول الاوربية ! وشعرت تركيا ان لا حول لها ولا قوة فاخذت تنتظر مصيرها المحتوم بكثير من عدم المبالاة ، وبالاستسلام للقدر . وفرنسا لا تنتظر قيام قلائل خطيرة في هذه المملكة المقهورة ! ! !

وبدأت الدول الظافرة تجري عملية المقايضة ، والتوفيق بين المطامع المتعددة والمصالح المختلفة . . . ومن الطبيعي ان لا تتفق هذه الدول على توزيع الاسلاب وتقسيم الغنائم ، اسلاب الشرق وغنائم الشرق طبعاً

اجل ، لم تكن عملية «التطبيق» سهلة وقد استغرقت المفاوضات وقتاً طويلاً ، اما انكلترا فكانت واثقة من نوال حصتها من هذه الاسلاب . اجل ، كانت على يقين انها ستملك بلاد العرب والطريق البري من مصر الى الهند

اما مطامع فرنسا فكانت موضع النزاع الشديد ، فانكلترا تحسد فرنسا على سوريا « وعينها فيها » كما تقول العامة ، ولكنها من ناحية اخرى تتركها لفرنسا وتقتل هذه الشهوة وتميتها وان تضايقت من جراء ذلك وتوجعت اذا تركت فرنسا لانكلترا « سيسيليا » ذلك الاقليم الغني المخصب الواقع على الحدود بين بلاد العرب والاناضول ووافقت فرنسا فوافقت انكلترا وتمت المقايضة ولكن على حساب من ؟

وكانت فرنسا لا تتحول مطلقاً عن الرين والمحافظة عليه محافظة شديدة

اما ايطاليا فكانت في الحقيقة مصدر قلق غير قليل ، بسبب العراقيل الكثيرة ، والمشاكل العسرة التي كانت تضعها في طريق الحلفاء

هذه الحليفة .. ايطاليا .. قد انضمت الى الدول المتحالفة متأخرة ، وكان من الطبيعي ان تتساهل هذه الدول معها في اعطاء الوعود لتدفعها للاشتراك معها في الحرب عن اخلاص حقيقي ونية صادقة ، ولكن انى لهذه الوعود ان تستجاب .. كانت كالوعود التي يقطعها الانسان عند ما يشتري ورقة من اوراق اليانصيب ، فاذا تم له الربح وجد انه من المستحيل البر بهذه الوعود التي قطعها ، لانه مضطر لدفع اضعاف ما قد ربح !

وهكذا كان الحال مع الحلفاء فقد ابتسموا في وجه ايطاليا وقالوا : انك تطلبين المستحيل ايتها الحليفة !

وعدت ايطاليا في الاتفاقية السرية التي امضيت في لندن في السادس والعشرين من نيسان (ابريل) سنة ١٩١٥ ان يعطى لها مكافأة لدخولها الحرب ، الاقليم التركي « اضاليا » والاقاليم المتاخمة له ! الواقعة على البحر الابيض المتوسط

نعم وعدوها باقليم اضاليا المشهور في التاريخ باسم بامفاليا ، وهو من الاقاليم المهمة الواقعة على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى

وبعد ذلك بسنة ، في معاهدة « سيكس — بيكو » السرية اتفقت انكلترا وفرنسا وروسيا اتفاقاً تاماً على تجزئة الامبراطورية العثمانية ... وعلى اساس هذه المعاهدة السرية ، وضعت شروط الصلح مع تركيا فيما بعد !

وبقيت هذه المعاهدة السرية مكتومة عن ايطاليا ، الى ان اشتمت رائحتها فغضبت وبدأت تطالب بانهاء توزيع الاسلاب ، وتجزئة الامبراطورية العثمانية

واجتمع الفائمون في السابع والعشرين من نيسان (ابريل) سنة ١٩١٧ —وكانت ايطاليا قد اشتركت هذه المرة مع الدول الثلاث انكلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، ووضعوا نصوص معاهدة St. Gean — be Morienne ووعدت ايطاليا في هذه المعاهدة بان تعطى اقليم « ازمير » !

وكل الجانب الغربي من « الاناضول » حتى قونيه ، على ان تعد هذه الاملاك تحت الانتداب الايطالي !

ولكن هذه المعاهدة التي وضعت نصوصها لم تمض من روسيا وذلك لنشوب الثورة فيها ، فبقيت المعاهدة ناقصة امضاء روسيا

والواقع ان حكومة الثورة لم تقتصر على عدم امضاء هذه المعاهدة السرية ، بل صرحت بانها تقاوم كل عمل يقصد منه الضم والاستعمار كما انها تقاوم فكرة اخذ التعويضات

وعلى هذا لما كانت المعاهدة تفتقر لامضاء روسيا كان من الطبيعي ان تعد باطلة . باطلة عند الحاجة . اي عندما تريد الدول التي امضتها . . . وترى ان من مصلحتها ان ترى هذا الرأي!

وفي نيسان سنة ١٩١٩ كانت ايطاليا قد احتلت مدينة اضاليا والاملاك التي تجاورها فلم تقابل حليفاتها هـذا العمل باقل اعتراض بل ان الاتراك انفسهم لم يبالوا بنزول الجنود الايطالية واستعمارهم لاضاليا ، ولكن عندما حاولت ايطاليا الاستيلاء على ازمير لاقت المعارضه من فينزيلوس الذي كان يقيم بصورة دائمة في باريس — والذي قابل لعبة ايطاليا بلعبة مقاومة لها

ثم احتلت ايطاليا « فيوم » احتلالاً عسكرياً دل على استبدادها المطلق ، وكانت « فيوم » هذه جزءاً من يوغسلافيا ويظهر ان روما تنوي ابتلاع كل « الادرياتيك »

وقد تولد عن ذلك احتدام الجدال في مؤتمر الصلح لدرجة ان النائب الايطالي « اورلاندو » لم يجد مفراً من الانسحاب فانسحب موقتاً . واستغل « فينزيلوس » هذه الفرصة ، واراد ان ينتفع من غياب هذا النائب وغضبته هذه ، فاخذ يعرض للكبار الثلاثة : « ولسن ، ولويد جوزج ، وكليمنصو » ان هذا الاعتداء الصارخ غير الشرعي ، على « فيوم » قد يتكرر في « ازمير » وعلى هذا فينبغي صد ايطاليا ووضع العراقيل في طريقها

ثم ارسل فينزيلوس مئات البرقيات يؤكد فيها قيام العصابات المسلحة في ازمير ، وفتكها الذريع بالاقليات المسيحية ، وعلى الاخص اليونان ، وان حياة المسيحيين قد باتت في خطر داهم من جراء تعصب المسلمين الشنيع ! . .

وقد كان لهذه البرقيات المهيجة المثيرة تأثيرها المطلوب في نفس ولسن الورع

وقد ادى هذا الورع ، الى ارسال لجنة مستقلة كبيرة لدراسة هذه المشكلة ، ووضع حد لهياج المسلمين على المسيحيين ، ولكن اللجنة بحثت واستقصت فلم تجد اي اثر للاضطراب ولم تسمع بمذابح ولا شبه مذابح ، بل اكدت ان لا خطر مطلقاً على المسيحيين وان الاشاعات التي راجت عن اضطهاد المسلمين للمسيحيين هي من مبتكرات بعض العقول التي تمعن في الخيال ، بل ذهبت الى ابعد من هذا فذكرت ان اليونانيين لم يسلكوا السلوك الذي ينتظر من المسيحيين ، بل كانوا بالاحرى اقرب الى الوحوش منهم للآدميين

واختفى تقرير هذه اللجنة فلم ينشر ولم يعلم احد بخبره الا فيما بعد ، على الرغم من ان اعضاء مجلس العموم البريطاني قد طلبوا عدة مرات ان ينبش وان يعرض عليهم ، وان تنشر الحقائق التي جاءت فيه ، فاذا كانت صادقة كان بها والا فترسل لجنة جديدة ، ولكن السلطات اكتفت بتقرير هذه اللجنة واسدلت الستار على تلك

الشعوذة التي قام بها فنزيلوس ، وآمن بها ولسن الورع التقي !

وصممت انكلترا وفرنسا على الوقوف في وجه ايطاليا وعدم السماح لها باحتلال ازمير ، او الساحل الغربي من الاناضول ، او احتلالها لاضاليا ، بحجة ان ذلك يجعلها سيدة على الجانب الشرقي من البحر الابيض المتوسط ! ..

وعدت الدول معاهدة St. gean - de maurienne باطلة بطلانا شرعياً

وكانت الدول ترى ان مكافأة اليونان على المعونة التي اسدتها لها أبان الحرب العالمية لازمة ، وكانت اليونان تمني نفسها باحتلال استنبول في يوم ما ، والساحل الأوربي المجاور لها ، ولكن احلامها هذه قد تبددت فاستولى عليها اليأس لان الاوربيين كانوا في ذلك الحين يفكرون في جعل هذا الجزء من تركيا « منطقة دولية » !

وكانوا اذا اعطوا ازمير لليونانيين يرضون اليونان ويوقفون التوغل الايطالي وفضلاً عن هذا فالشطر الاكبر من سكان ازمير هو من اليونانيين بل ان اليونان ليسوا اغلبية الا في ازمير وفي مدينة اخرى

ورضخ رجال السياسة في باريس وفي مدن اخرى يقال لها ايوالي لرأي فنزيلوس وسمحوا لليونانيين باحتلال ازمير ! ! .. نيابة عن الحلفاء !!

وبلغت الحكومة التركية ان الحلفاء ، بناء على المادة السابعة من شروط الهدنة سيحتلون ازمير ! وانه طبقاً لهذه المادة لهم الحق ان يفعلوا ذلك حينما تتعرض مصالحهم للخطر !

واعطى رئيس الوزارة التعليمات لوالي ازمير ، وامره بضرورة بقاء الجيوش في ثكناتها ! .. واجبره على منع اي مظاهرة يقوم بها سكان تلك المدينة بالقوة ! ..

وكان الرأي العام يعتقد ان جيوش الحلفاء هي التي ستحتل ازمير .. على الاقل كما يفهم من فحوى التعليمات ومضمونها . ولم يكن يفكر احد من الناس بان ازمير سيقدر لها في يوم من الايام ان يحتلها اليونان ! ..

٢٦

حرب جديدة

وفي الرابع عشر من شهر ايار (مايو) سنة ١٩١٩ ظهر في مياه ازمير الاسطول الانجليزي ، وكان القومندان هو الاميرال كالثورب فبلغ الوالي بان جيوش الحلفاء ستنزل الى البر فليكن على استعداد ثم ارسل يطلب مقابلة ذلك الحاكم ، فلما جاءه قال له : بلغني الان ان اليونان هم الذين سينزلون الى ازمير ويحتلونها !

وتطلع الوالي الى وجه قائد الاسطول وهو لا يكاد يصدق ما يسمعه ، ولم يستطع حبس دموعه ، فاخذت تنهمر بشدة وهو يقول بصوت تخنقه العبرات ، وفيه معنى الذل والانكسار

ـ اليونان ؟ .. اليونان هم الذين جاءوا لاحتلال ازمير ؟

ـ نعم .. هذه هي الاوامر التي جاءتني من باريس :

ـ اني لست مسؤولاً واني لا استطيع الان ان اتكهن بما سيجري !

ـ مستحيل ان يحتل ازمير غير اليونان . أفهمت ؟

ـ لا اريد اكثر من ثلثمائة جندي من جنودكم لادخل بهم الاطمئنان الى قلوب المسلمين ، ولأبين لهم بان الاحتلال من الحلفاء وليس من « اليونانيين » وان هذا الاحتلال موقت وليس بالنهائي

ـ مستحيل . مستحيل !

وفي صبيحة اليوم الخامس عشر من أيار (مايو) ، اي في اليوم نفسه الذي ترك فيه مصطفى كمال استنبول ، كانت الجنود اليونانية قد بدأت تنزل الى البر .. الى رصيف « اسكلة » ازمير ! . وكان في استقبالهم كل افراد الجالية اليونانية . وكان هياج اليونانيين لا يوصف !

وقد اخذوا يهتفون : فليعش فنزيلوس !

وطافت الجيوش اليونانية شوارع ازمير ، وكانت الجيوش

التركية قد اسرعت واختبأت في معسكراتها نزولاً عند الاوامر المشددة التي صدرت اليها

ولما وصلت الفرق اليونانية الى الساحة التي امام ابنية الحكومة دوت طلقة نارية لا يعلم على وجه اليقين من اين جاءت ومن اطلقها ويقول بعض الذين شاهدوا اطلاق الرصاص انها جاءت من احد شذاذ اليونانيين الذين استؤجروا بالمال لاحداث الشغب ، فما كان من اليونانيين الا ان وقفوا فجأة واخذوا يمطرون الجنود والاهالي وابلاً من االرصاص ، فاستولى الذعر على الجنود الاتراك وولوا هاربين ، واخذ البعض منهم يقابل الرصاص اليوناني بالرصاص التركي وهم يجرون في اضطراب ، ويصيبهم الرصاص فيسقطون قتلى او جرحى !

وحاول الضباط تهدئة الاعصاب فنجحوا بعض الشيء .. ثم رفع « العلم الابيض » وتقدم القائد التركي ليقدم الشكنات للجنود اليونانيين .. يا للعار ولكن هذا القائد اصيب فوراً برصاصة اردته قتيلاً فذهب ضحية الجبن وخيانة الوطن .

وساد الهياج وعمت الفوضى وانتهز الجنود اليونانيون هذه الفرصة السانحة فشفوا غليلهم واشبعوا نفوسهم العطشى الى سفك الدماء ، فاخذوا يستفزون الضباط بالبصق على وجوههم ، واجبروا كل تركي ان يدوس طربوشه بقدمه ! .. وكان التركي الذي

يرفض ان يفعل هذا يمزق جسمه تمزيقاً بالسيوف فوراً بوحشية هائلة ... وفظاعة لا يتصورها العقل ! ....

ثم تعدوا على المرأة التركية فاخذوا ينزعون الحجاب عن وجهها ويجبرونها على ان تسفر والا كان مسيرها القتل ! ! .. واخذوا ينهبون بيوت المسلمين ! !.... وقد سقط في نهاية ذلك اليوم المشؤوم ثلثمائة من الاتراك و٢٠٠ جريح وكان عدد الاسرى الذين سقطوا في ايدي الاعداء من الاتراك ٢٠ الفاً من بينهم الوالي وقد نقلوا جميعاً في قطارات خاصة الى اليونان ! ....

وكانت هذه الحادثة فاتحة لحرب جديدة.... بعد الحرب العالمية

وفي التاسع عشر من ايار (مايو) سنة ١٩١٩ رست الباخرة « أنيبولي » وخرج منها الجنرال مصطفى كمال !! .... أجل ، مصطفى كمال بعينه ومعه خمسة من الرجال فقط ! .... فلما وقع نظر الاتراك عليه عرفوه فوراً .... عرفوه انه بطل « انافورطة الكبير » ولكنهم كانوا لا يعرفون عنه شيئاً اكثر من ذلك ، ثم علموا فيما بعد ان الحكومة ارسلته ليكون قائداً حربياً فرحبوا به ترحيباً حسناً

سار هذا الجنرال الشاب بين مستقبليه ، الذين كانوا يصطفون على الجانبين ، وقد تعمد السير ببطء والنظر في الوجوه نظرات حادة فكأنه كان يحاول ان يقرأ ما يجول في خواطرهم

ثم شرع يلعب دوراً من ادواره الهامة ، جمع الولاة وافهمهم بصريح العبارة انه سيقوم بتدابير ، وان هذه التدابير قد وافقت عليها السلطات سراً ، كما وافق عليها رجال الحربية ، وأكد لهم ان اعماله كلها التي سيقوم بها مؤيدة تأييداً تاماً ، فلا معنى مطلقاً لاعتراض اي شخص منهم على شيء منها ، فهو يطلب تنفيذ ما يأمر به فوراً دون تمهل او ابطاء

ثم اخذ يشهر باليونانيين و يوضح لرجاله ان البلاد لا تحتمل التجزئة اكثر مما تجزأت ، ولهذا فمن الضروري توحيد القوى والاستسلام التام له ، ليقودهم الى الاستقلال وليحررهم من النير اليوناني ، بل من نير الحلفاء !

ثم وضع نظاماً دقيقاً للمظاهرات الوطنية الحماسية ، فكان يجمع القادة من حربيين ومدنيين و يخطب فيهم ليعدوا الناس للمظاهرات القومية ، وهاك ما كان يقول لهم بلغته الفياضة عن شعور صادق ووطنية حقة :

« في الاسبوع المقبل .... في يوم الاثنين (مثلاً) تكونون قد انتهيتم من تنظيم مظاهرة قومية ، بعد عقد اجتماع عظيم يضم اكبر عدد من الاهلين ، بعد ان تلقى الخطب النارية التي ينبغي ان يكون الغرض الاساسي منها استفزاز الشعور القومي ، واظهار حيوية الشعب التركي

نريد من مظاهراتنا السلمية ان نحرك حاسة العدالة في الحلفاء، وان نجعلهم يشعرون بالحيف الذي وقع علينا ، واني على تمام اليقين ان مظاهراتنا القوية السلمية ستدفع نبلاء الانكليز واشراف الغربيين ، لوضع حد للتدخل المعيب في ادق شؤوننا القومية

ينبغي ان تقوم المظاهرات في كل انحاء الولاية ، وان ترسل البرقيات المؤثرة للدول العظمى وللباب العالي ، واحذركم تحذيراً تاماً من السماح لأحد من الغوغاء بالتعرض للمسيحيين ادنى تعرض فمظاهراتنا يجب ان تكون قومية سلمية ! ....»

وكانت اشد برقية ارسلت الى استنبول من ميناء سينوب الحربية المهمة اظهر فيها الشعب هياجاً شديداً وهاك بعض ما جاء فيها :

« ان الامة التركية لا يمكن ان تقدر لها الحياة ، وفيها حكومة تحركها اوربا كما تشاء ، وتتحكم فيها كما تريد »

وكانت نتيجة ارسال هذه البرقية ، التي هي منافضة للخطة الحكيمة التي وضعها مصطفى كمال ان « اراحت » والي سينوب فوراً من عناء وظيفته

واخذت تقارير الاجانب والضباط تنهال على استنبول ، وكلها طافحة بوصف حالة القلق العظيم الذي كان يسود الاناضول ، وانفجار الشعور القومي فجأة ، وانهم يستطيعون ان يؤكدوا بان

المهيج لذلك هو مصطفى كمال ! وانه هو الذي بعث الحياة في شعب كان على وشك الاحتضار !

وادرك الحلفاء انهم قد خدعوا بموافقتهم على ارسال ضابط خطر كهذا ، وانه ما كان ينبغي لهم ان ينخدعوا بمثل هذا ، لان تاريخه السابق يشهد بنفسيته المتمردة ، وعصيانه المستمر ، فكيف يعقل ان يكون رسول سلام ، او ان يكون من دعاة النظام ، وقد طلبوا بشدة اعادته فوراً فوافق الباب العالى على ذلك !

وبدأت باريس تخفف من حدة غضبها ، ورغب رئيس الوزراء الداماد فريد باشا في الذهاب بنفسه للتودد الى الحلفاء وكسب عطفهم على وزارته ، ولما علمت فرنسا بنيته هذه اسرعت فوضعت دارعة حربية تحت تصرف البعثة ، وعلى رأسها رئيس الوزراء هذا ، هذه البعثة التي كان المقصود من ارسالها اسماع صوت تركيا في مؤتمر الصلح ، قبل ان يبتوا في مصير الامبراطورية العثمانية

وتخوفت انكلترا من حماس حليفتها وغيرتها هذه ، فأغرت توفيق باشا ذلك الكهل المسن ، الذي تظاهر برغبته في السفر مع البعثة لكن مرضه يحول دون ما يتمناه ، وانه ينوي تأجيل سفره لحين شفائه ‥ « بالسلامة » ‥ ! ولكن هذا « الخبيث » قد سافر بعد ايام قليلة على دارعة حربية « انكليزية » !

وكان يخشى الداماد فريد باشا ان تؤثر حالة الفوضى والقلاقل التي تسود تركيا على اعصاب انصار السلم من الحلفاء (فتدفعهم الى موافقه الاستعمار يين من الاور بيين على سياسة البطش بالاتراك ، ووضع شروط صلح قاسية

ويرى رئيس الوزراء ان مصطفى كمال قد احدث في البلاد ازمة ، وانه قد جاء في اسوأ الاوقات ليثير الاتراك على الحلفاء ! . في وقت كان يرى ان التصافي اجدى وابقى ! . ويالها من وطنية متقدة ! ثم عاد الى السلطان يهمس في اذنيه الواسعتين او الضيقتين ... لا ندري . بان مصطفى كمال يعمل ضد جلالته ! وضد شعبه ! وضد الحلفاء

وتبودلت البرقيات السرية بين رئيس الوزراء باسم السلطان وبين مصطفى كمال ، واصر السلطان على عودة مصطفي على جناح السرعة

ولكن مصطفى اكتفى بان ارسل برقية موجزة !

« سأبقى في الاناضول الى ان يتحقق استقلال البلاد » !

وكان هذا الرفض الصريح هو الخطوة الاولى نحو « الثورة » ! وياله من رفض ويالها من كلمة ما امرها وابلغها واصدقها فقد بقي مصطفى كمال في الاناضول الى ان استقلت البلاد استقلالاً تاماً ناجزاً وبقيت تركية لا تشوبها شائبة من استعمال او تدخل اجنبي

او نفوذ لدولة في العالم فخرج اليونان منها وخرج الحلفاء واخيراً خرج السلطان وعائلته والخلافة وتوابعها وبقي مصطفى كمال في الاناضول ولا يزال باقياً يتمم ما بدأ به من مشاريع التقدم والترقي لبلاده وهو على رأسها الحارس الامين (والمثل الاعلى) للبطولة والذكاء والعظمة الانسانية الجبارة

٢٧

الحرب بين السلطان ومصطفى كمال

انضم القواد الشبان الى « مصطفى كمال » واعلنوا استعدادهم لاتباعه .... وكان في وسع مصطفى ان يستغني الان عن الموظفين بل كان كل اتصال رسمي به لا يعني غير اعاقته عن تنفيذ مطامعه، وعرقلة مساعيه، وهو يحتاج لان تطلق يده لا ان تغل

ولكنه من ناحية اخرى كان لا يريد ان يوقع البلاد في فتنة عسكرية، وكان لا يطلب العظمة عن طريق السير على جماجم ابناء وطنه، او يسير نحو الخلود في بحار من الدماء! .... كما فعل زعماء تركيا الفتاة، فكان مصيرهم الفشل وكان مصيرهم خيبة آمال ابناء الوطن فيهم وفي زعامتهم!

كان مصطفى كمال يرمي الى تحقيق استقلال البلاد وخلق دولة تركيا الجديدة الحرة ، على الرغم من ارادة الفاتحين المتجبرين، وعلى الرغم من ضعف السلطات المحلية الخائرة التى لا تعرف معنى شرف الدفاع عن الوطن ، ولا معنى التضحية في سبيله

كان يرى الاستقلال من القضايا الممكن تحقيقها متى قام الشعب بتأييدها ، ومتى شعر الشعب بضرورة التضحية والتفاني ونكران الذات

كان على يقين ان الدفاع عن الوطن يتطلب جهود الامة كلها وليس تأييد حزب واحد ، وجهود حزب واحد ، وان الشعب وحده هو الذي ينبغي ان يكون صاحب السيادة ، وان الشعب وحده هو الذي يقرر مصيره بنفسه ، وان الثورة التى سيقوم بها الاتراك ينبغي ان تكون مطابقة لمبادىء الديموقراطية الحديثة ، وان الحكم الصالح ينبغي ان يكون حقاً من حقوق الاغلبية ، وان سلطة الامة ينبغي ان تحل مكان سلطة « الحكومة » وانه لا يحق لأي انسان ان يفعل شيئاً باسمه ، بل باسم الامة كلها

وتحركت الجماهير ... واستفزت العواطف ... بفضل الدعاية القوية التى قام بها مصطفى كمال واتباعه ، الذين عرفوا كيف يستغلون حقد الشعب على اليونان

اجل، شعر الشعب بالظلم ... فحمي غضبه ... شعر بالحيف

فقام يدافع عن كرامته المهدورة ! ... وسرعان ما تكونت الهيئات القومية في كل مكان ، وكانت مهمة مصطفى كمال ان يوحد جهود هذه القوى المبعثرة ، وان يضم شمل الجماعات المتفرقة ، ليكون منها جبهة قوية متحدة تحت قيادته ، وكان من سياسته ان وضع يده على المخابرات البرقية ، فاخذ يمطر السلطات ببرقيات من النوع الآتي :

« البلاد في خطر ! »

« الحكومة المركزية لم تعد قادرة على القيام بوظائفها الاساسية ! »

« لا يمكن الاحتفاظ باستقلال بلادنا الا بارادة الامة ، وجهود الامة ! ... »

وقرر الوطنيون عقد اول مؤتمر عام في (سيواس) وطلب مصطفي كمال من كل مقاطعة ان تبعث بثلاثة من نوابها ، وشدد على اصدقائه بكتم هذا الخبر حتى يعقد البرلمان ، لئلا تقف القوة في طريقه وكان عقد هذا المؤتمر العام لايعني غير اعلان الحرب العلنية ضد (استنبول)

ولما كان كثير من الموظفين الاقليميين لا يزالون يوالون الحكومة المركزية ويسندونها وكان من الطبيعي ان يبلغوها هذه الاخبار ، وعلى هذا اصدرت وزارة الخارجية بلاغا وزعته على الموظفين جميعاً تطلب فيه قطع كل علاقة بمصطفى كمال بلا قيد

ولا شرط ٠٠ وعدم المبالاة بتعليماته التي اصدرها او يصدرها في المستقبل ، وان تكون علاقاتهم بعد الان بالوزارة رأساً ، وانها قد نزعت ثقتها كلية من مصطفى كمال !

وكان لهذا المنع اثره في التضييق على مصطفى كمال وحجز حريته ، ولكن الوزارة فشلت في منع المؤتمر من الانعقاد

وجاء مصطفى كمال ليحضر هذا الاجتماع ، فوصل الى ارضروم بعد رحلة شاقة مضنية ، وكان ذلك في اوائل كانون اول (يناير) سنة ١٩١٩

وفي مساء اليوم التالي من وصوله استدعي هو وجماعته لمخاطبة استنبول ، واستلام البرقيات التي انهالت على دائرة التلغراف في ارضروم ، وكانت كلها حضاً لمصطفى كمال على العودة ، وحضاً لاتباع مصطفى على عدم السماع له

ولكن استنبول قد فشلت في تهديدها هذا فاخذ وزير الحربية يستعمل لغة الترضية والاستعطاف ، وحاول رئيس الوزارة ان يغريه ويخدعه بشتى الوعود المعسولة بل تقدم السلطان ذاته وعرض عليه ان يتنزه نزهة طويلة على حساب الدولة ! في اي مكان اراد ٠٠ ولكنه ابى ان يقبل هذه الاجازة الجبرية ٠٠ ابى ان يترك الساحة في وقت المعمعة واشتداد القتال ، لئلا يكون قد خان العهود التي قطعها على نفسه امام رفقائه ، وباع الوطن بنزهة ! ثم خاطبه السلطان فقال :

« يمكنك يا باشا ان تبقى في اي مكان شئت في الاناضول ولكني — ارجوك — ان تتوقف عن بث الدعاية ضد العرش »! ..

اما مصطفى كمال فكان جريئاً كل الجرأة ، بقدر ما كانت اجابته في كل مرة موجزة كل الايجاز

وقد اكتفى بهذه الكلمة :

« لن احضر » ! ...

وهنا يشتد غضب السلطان فيقول :

— بل « ينبغي » ان تحضر

— لن احضر !

و بينما كان مصطفى كمال يملي برقية يعلن فيها استقالته من الجيش ومن كل وظائف الدولة ، وقبل ان يسلم هذه البرقية الى الموظف المسؤول ، قدم له الموظف برقية من استنبول ، يقول فيها السلطان « قد امرنا بعزلك » !

وأذيع في اليوم الثاني خبر هذا العزل في كل انحاء المملكة ، وشطب السلطان اسمه من بين قائمة ضباط الجيش ، وهدد كل من يتصل به ان يشطب اسمه فوراً ، وان يكون موقفه كموقف مصطفى كمال على السواء !

وعلى هذا اصبح مصطفى كمال بمقتضى هذا المنشور فرداً عادياً ، نعم ولولا رجوعه الى هذه الصفة الفردية العادية لما تمكن من ان

يصل الى رئاسة الجمهورية التركية لانه كان في الوظيفة مقيداً بالطاعة والخضوع لعرش الخلافة حتى اذا خرج عليها وهو في تلك الوظيفة طبقوا عليه النظام واحالوه الى المحكمة الحربيـة ونفذوا فيه حكم الاعدام بتهمة خيانة العرش ولكن هذه الفردية العادية اطلقته من تلك القيود فسعى وضم اليه الرجال وتوفق فيما يصبو اليه من استقلال البلاد ومن رئاسته للدولة مع الشكر والاحترام من الشعب التركي

٢٨

الجهاد في سبيل الوطن

جمع « مصطفى كمال » اخلص رفقائه فاخذ يبين لهم الاخطار التي يتعرضون لها والصعوبات التي ستقف في طريقهم ، وطلب اليهم مصارحته اذا كانوا على استعداد للتضحية والبذل ، وهاك بعض ما كان يقوله لهم :

« ان المهمة التي امامكم شاقة عسرة ، مهمة يطلب من القائمين بها قبل كل شيء التضحية ونكران الذات ، وعدم الاحتماء في الثياب العسكرية .. مهمة تتطلب الظهور في الاسواق العامة،

وفي الشوارع والوقوف في وسط الجماهير تحرضونها وتستفزونها

« وفي الوقت الذي تعلنون فيه انضمامكم للثورة لا يحق لاي منكم الفرار من التبعة او التهرب من المسؤولية ، واني اترككم تصممون على السير معي او تركي . فمن يريد ان يتبعني فليتبعني على ان يسير معي الى النهاية مهما ألم به ومهما صادفه

« واني على يقين بان الحكومة ستعدني من الثائرين ، وسيكون مصيري شراً من مصير اي واحد منكم ، وبمعنى آخر ستكون تضحيتي اكبر من تضحيتكم ، وما اقاسيه يفوق ما ستقاسونه ، وكل ما اريده من انصاري ان يكونوا على استعداد تام لافتداء الوطن بارواحهم واموالهم وجهودهم

« واذا لم اكن انا الرجل الذي ترتاحون الى مقدرته ، ففي وسعكم اختيار من هو اصلح مني واقدر على تحمل هذه المسؤولية الخطيرة

« وسواء وقع اختياركم عليّ او لم يقع فمن الضروري ان تفهموا ان البلاد في اشد الاحتياج لرجل واحد يدير دفة شؤونها . وينظم امورها . . ويقود الشعب للحرية والاستقلال » !

واعطى مصطفى كمال لانصاره الوقت الكافي ليفكروا ، وليتدبروا امورهم

واخيراً جاء هؤلاء الانصار يعلنون ثقتهم المطلقة بمصطفى

ويعدونه انهم سيكونون له اتباعاً وخداماً ما دام يخدم الوطن ويضحي في سبيل الوطن

ولكنهم يشترطون عليه شرطاً واحداً على الرغم من ثقتهم به وهو الا يقوم بعمل من الاعمال فيه مساس بحقوق السلطان وفيه تجريح لعواطفه ! . واكدوا له انه ينبغي ان تكون الخلافة فوق كل شيء ، وان لا تمس « السلطنة » بضير ، فاكد لهم ما يريدون لانه لم يجد مفراً من تقديم هذه التأكيدات

وقد انضم الى مصطفى جماعة من الموظفين الذين دفعهم الى ذلك اعتقادهم الجازم انهم بعملهم هذا انما يخدمون السلطان ، ويحافظون على العرش ! المهدد !

وكان من بين هؤلاء « كاظم قره بكير باشا » وهو رجل مستقيم ثابت ، جندي من قمة رأسه الى اخمص قدميه . . ذو مظهر جذاب . . وكان اسمه من الاسماء الطنانة ! . . .

ومن بينهم ايضاً « علي فؤاد باشا » وهو جندي من خيرة الجنود ، وسياسي من امهر الساسة . . . حاذق كل الحذق ، وهو من الاشخاص الذين يمكن الوثوق بهم . . فقد كان لا يتهرب من اي واجب مهما كان ثقيلاً . . ولكنه كان من ناحية اخرى من الافراد الحساسين الى درجة عجيبة . . لهذا كان من اشق الامور العمل معه !

وكان هناك « رفعت باشا » وهو « جنتلمان » صغير الجسم ، سريع الحركة ، ماهر في اشياء كثيرة ، وعلى قسط كبير من الثقافة والتهذيب ... يهيم بحب الاوربيين هياماً عظيماً ، وكان له في قلوبهم منزلة رفيعة

وتظهر شجاعة رفعت في ايام الثورة الاولى عند ما صمم الانكليز على تحصين سمسون بحامية اقوى من الحامية التي كانت فيها وكان غرضهم من هذا صد الوطنيين على الدنو من البحر وامتلاك (سيواس)

امر رفعت ان يدافع عن سمسون وان يصونها مهما كلفه الامر وطلب اليه الوقوف في وجه الانكليز ومنعهم عن انزال جيوشهم ، وانصاع رفعت للامر وقصد الميناء البحرية ومعه مائة رجل من المسلحين .. وكان قد وصل الى الميناء كولونيل انكليزي ومعه قوة صغيرة قصد الاستكشاف والاستطلاع ، فسار رفعت وجماعته في الشارع الرئيسي ثم اختفى واختفى من معه

وعادوا للظهور ولكن في ناحية اخرى من المدينة، وكأنه كان يمثل دوراً مسرحياً طريفاً

وقد حاول ان يوهم الانكليز بان « مقدمة » جيش قد غزت البلاد ، ولكن الكولونيل الانكليزي كان ممن يعرفون اساليب الخداع والتمويه ، ومع هذا فقد وجد ان الامل ضعيف بنجاحه في المقاومة وذلك لقلة عدد الجنود الذين معه ، فعاد الى سفينته واقلع

عائداً ونجت «سمسون» و بقيت سيواس تحت تصرف الوطنيين ولم يستطع احد انتزاعها من ايديهم

وربما كانت ابرز شخصية بين جماعة مصطفى ، شخصية رؤوف بك الممتازة

كان هذا الرجل لا يقل في مواهبه العقلية عن قائده مصطفى كمال ، وقد بدأت المنافسة بينهما منذ اول الحركة القومية ، ولكنها كانت منافسة مكتومة ، و بصورة سرية !

كان مصطفى كمال ، نشيطاً ، رشيقاً ، سريع التأثر ، كله حياة ، ممتلىء قوة ! ... بينما كان منافسه رؤوف بك بارداً خاملاً هادئاً رابط الجأش .. كان يفتقر الى القوة التي تجعل الرجل يملي ارادته على غيره و يتسلط عليه ، فيقبل ان ينزل عند مشيئته طائعاً مختاراً ، ومصطفى ممتاز عنه بميزات اخرى غير هذه الميزة ، فكان اقدر منه على التصميم .. كان اذا صمم على شيء لا يقف غير الموت في سبيله ، كما ان مصطفى كمال كان يناضل في سبيل هدف قد وضعه امامه وهو تحرير بلاده تحريراً تاماً

وكان رؤوف بك من الضباط البحر بين الذين تلقوا الدروس الهندسية العملية في ترسخانة «محل بناء السفن» «دانزج» وطاف ممالك عدة واشتهر امره عندما قاد الطراد «الحميدية» في سنة ١٩١٢ اثناء الحرب البلقانية و بقي كقبطان السفينة الالمانية

« امدين » يطوف ما يقرب من شهرين وحده في مياه بحر ايجي يطلق القنابل على الموانيء اليونانية ، و يغرق سفن الاعداء ، وقد اقتفى اثره ولكنه استطاع الاختفاء في النهاية والوصول سالمًا الى الدردنيل واحتمى فيه !

وفي نهاية الحرب العالمية تعين وزيراً للبحرية ، ومثل تركيا عند ما وضعت شروط الهدنة

وصرح عند امضاء المعاهدة بالتصريح الآتي :

« نحن قبلنا هذه الشروط لاننا نعتقد ان الامة الانكليزية وحليفاتها ستحافظ على كلمتها » !

ثم التفت الى اولئك الذين معه وقال :

« أليس ما اقوله هو الواقع بعينه ايها السادة » ؟ !

واتصل هذا الرجل قبل غيره بمصطفى كمال عندما كانا في استنبول

وارسل رؤوف بك الى الاناضول الغربية ولكي يكون مطلق اليد اعتزل الخدمة في الجيش فهبط « باندرما » وطاف انحاء الاناضول يشجع الاهالي على الثبات ، ويحضهم على التضحية في سبيل الوطن ، واستطاع تكوين اول هيئة قومية هناك

وحدث ان اليونان لم يقنعوا بمدينة ازمير وحدها ، بل دفعهم الجشع ان يطلبوا الاستيلاء على ما جاورها من الاراضي ، بحجة

ان مصيرها في المستقبل لهم فلماذا لا يأخذونها من الآن ؟!

وتجاوز حاكم ازمير في ذلك الحين وكان اسمه « stergiades » التعليمات الرسمية التي جاءته من فنزيلوس المقيم بباريس — وقد يكون فعل ذلك من تلقاء ذاته ، او قد تكون جاءته اوامر مكتومة — وسار في مقدمة جنوده الى اقليم آيدين الذي تنتمي ازمير اليه

وكما هي العادة عند حدوث حركات عسكرية « سلمية » كهذه اخذ ينهال الرصاص بطريقة غير متتابعة فروعت الفرق اليونانية واستولى عليها الفزع الشديد ، واضاعت رشدها فاخذت تطلق الرصاص على الاهالي الآمنين ، فقابل الاتراك رصاص اليونانيين برصاص تركي حماية لانفسهم

وكانت نتيجة ذلك القتال غير المنتظم ان طرد الاتراك الغزاة واشعلوا النيران في الحي اليوناني فعاد الجيش اليوناني بعد تضاعف عدده وزادت استعداداته الحربية فاحتل المدينة واحرق الحي التركي !

وايقن رؤوف بك ان الامل الوحيد في النجاح لا يمكن ان يكون عن طريق آخر غير القيام بحملة دفاعية واسعة النطاق تحت قيادة قائد واحد فحسب وعلى هذا توجه الى انقره ، حيث كان علي فؤاد باشا هو القائد العام هناك ، وباحثه في هذا الموضوع فلم يجد اجدر من مصطفى كمال لهذه المهمة ولا اقدر منه على الاضطلاع

بها ، ووافقه رؤوف بك على اقتراحه هذا وتنبأ لمصطفى بانه قد يكون زعيم البلاد في المستقبل وقائدها الفذ !

ومع ان رؤوف بك قد حضر من فوره ووافق على ان يكون تابعاً للجنرال الشاب مصطفى الا انه من ناحية اخرى ابى الا ان يبدي في بعض الاحايين آراء مناقضة لآراء مصطفى كمال ، فلم يسمح مصطفى بهذا التدخل في شئونه لا لانه كان يتعصب لآرائه ولكن لانه كان يسعى نحو هدف معين كان يخفيه — الى حد — على رفقائه

اجل ، كان مصطفى كمال يستسلم احياناً في المسائل العسكرية البحتة الصغرى ، ولكنه كان يصر اصراراً تاماً على وجهة نظره عند ما يحاول احد من رفقائه زحزحته عن الطريق الذي اختاره

وحاول اليونان ان ينقصوا عدد السكان الاتراك ليصبحوا « اقلية » عن طريق افنائهم ! ··· وكانوا يبررون وحشيتهم بانهم انما يفعلون ما تمليه عليهم وطنيتهم الصحيحة ! ··· والدفاع عن قوميتهم ! ··· وانه لو لم يقوموا بتقتيل الاتراك لما كان في وسعهم الدفاع عن قضيتهم امام الاوربيين والقول بانهم « اغلبية » السكان! اما وقد اصبحوا اغلبيــة بالتقتيل والذبح ···· فلهم كل الحق في امتلاك تلك الانحاء

وحمل كل الاتراك الذين يستطيعون القتال اسلحتهم ، وقصدوا

التلال، واخذوا يحاربون الغزاة، وهم يحتمون وراء الاودية الصغيرة الخصيبة، والاخاديد الكبيرة المنيعة

وقامت حروب العصابات بصورة غير منقطعة، هذه الحروب التي اشتهرت بوحشيتها وتميزت بفظاعة ما يجري فيها، ولكن الاتراك كانوا يشعرون بخيبة الامل في حمايتهم لبلادهم كلما وجدوا الجيوش المنظمة تتوارد بوفرة من بلاد اليونان، وان عدد الذين يقاتلونهم في تزايد مستمر، وكان على الذين يعملون مع مصطفى كمال ان ينزلوا عند امره ... وكان هؤلاء الاتباع يسيرون معه وهم لا يدرون الى اين يقودهم، ولم يبقَ معه رفاقه الذين اشتركوا معه في بادئ حركته الى النهاية، اذ كان الحسد يأكل قلوبهم اكلاً

وكان النزاع يدب بينهم و بينه فينفصل الواحد بعد الآخر .. ولكن الانفصال ما كان ليؤثر على شخصية مصطفى كمال النادرة بل كان يزداد ايماناً بفضل العناصر القوية والاحجار السليمة التي كانت تحل مكان العناصر الضعيفة والاحجار النخرة، وليس ادل على ضعف هذه الاحجار وعدم صلاحيتها من ان الذين تركوه ما زالوا يعيشون لليوم مطرودين من مراكزهم العالية، لايزاولون عملاً من اعمال الدولة الهامة، او يقضون اوقاتهم و بقية اعمارهم في الممالك الاجنبية! ...

٣٩

تركيا الحديثة

أشعل مؤتمر « ارضروم » نيران الثورة ، ولكن امر الحكومة الصريح بالابتعاد عن مصطفى كمال قد ترك اثره ايضاً ، فأخذ جماعة من الانصار الموظفين يخشون فقدان مراكزهم اذا ما غالوا في اظهار عواطفهم لمصطفى وللحزب الوطني الذي يرأسه مصطفى

ثم ان حكومة استنبول عمدت الى سياسة ارهاب الموظفين ، فاكثرت من عمليات العزل والطرد ، والتسريح وأخرجت كل القواد الحربيين او الموظفين الاداريين الذين كانوا موضع الريبة والشك

وقد نجم عن هذه السياسة ان عمت الفوضى في كثير من الاماكن ، ولكن على الرغم من ذلك بقي الجيش في ايديهم

فنشطت الهيئات القومية ، وزادت قوتها ، لدرجة انها كانت تعترض بشدة على الموظفين غير المحبوبين الذين كانت تعينهم استنبول على الرغم من ارادة الشعب

ونجحت هذه الهيئات القومية في اثارة الاهلين على الموظفين

لدرجة ان كان معظم الذين تختارهم الحكومة يعودون اليها ثانية ، بحجة انهم لا يحتملون جزءاً مما كانوا يلاقونه من اعراض الشعب ونقمته عليهم ! ..

واصدر مصطفى كمال تعليماته الى كل قواد الجيش ، بانه في حالة الاستغناء عنهم ينبغي ان لا ينقطعوا عن العمل ؛ على ان يبلغوا السلطان بان الضابط الجديد الذي تعين لم يحز ثقة الجيش او ثقة الشعب فبقي عاطلاً عن العمل! .

وظل مصطفى كمال عدة اسابيع يشجع الاهالي على العصيان ، ويدخل الامل الى القلوب الخائرة منهم ، وبذل كل ما في وسعه لاحباط تدابير الحكومة ومقاومة كل تصرفاتها !.

واخيراً في الثالث والعشرين من شهر تموز سنة ١٩١٩ اجتمع بضعة رجال ، في بناء صغير ، اشبه بمدرسة من مدارس الارياف ، في احد احياء « ارضروم » القاصية ، وهؤلاء المجتمعون هم نواب الاقاليم الشرقية ، وقد كانوا خليطاً غريباً فكان بينهم من شغل وظيفة النيابة سابقاً .. وكان بينهم الشيوخ ، وكبار الموظفين وزعماء القبائل الكردية والضباط

وافتتح « المؤتمر » باسم الله واسم الامة

وكان افتتاحه فاتحة عصر جديد في تاريخ تركيا ، واول خطوة لتحرير البلاد وخلق الدولة التركية الحديثة !

وفي اليوم التالي اذاع رئيس الوزراء بيانا وزعه على الصحف التركية ، وتناقلته جرائد العالم كلها جاء فيه :

« لقد وقعت في الاناضول بعض الاضطرابات ، وعقدت اجتماعات من شأنها الاخلال بالنظام ، والاعتداء الصريح على الدستور ، وقيل عن هذه الجلسات انها برلمانية دستورية ، وهي في الواقع غير برلمانية

لهذا ينبغي على السلطات الحربية والمدنية قمع هذه الحركة قمعاً تاماً ، والقضاء على العصاة بمنتهى الشدة والعنف »

ووصلت هذه المنشورات الحكومية الى السلطات في ارضروم ، فكتبت هي بدورها الى حكومة الاستانة :

« ان عقد البرلمان هو من الامور التي اصبحت ضرورية ، ولو كان البرلمان منعقداً لما كانت ثمة حاجة لجلسات من هذا النوع »

وفكرت الحكومة في موقفها الدقيق ورأت انها قد حلت المجلس مخالفة بذلك نص الدستور ، دون ان تعد العدة لاجراء انتخابات جديدة

وظل مؤتمر ارضروم منعقداً اربعة عشر يوماً ، وكانت تجري فيه المداولات والمذكرات في جو مضطرب بعيد عن الهدوء

واول قضية وضعت على بساط البحث قضية الرئاسة ، وهل يحق لمصطفى كمال أن يترأس هذا المؤتمر او لا

ووقف احد الاعضاء وسأل : هل لحضرات الاعضاء ان يدلوا بآرائهم فيما اذا كان يصح لمصطفى كمال ان يترأس هذا المجلس ، وهو لم ينتخب في زمن من الازمان نائباً عن اي اقليم من الاقاليم الشرقية ؟ فقوطع النائب المحترم بمنتهى الشدة ... وكانت الاغلبية الساحقة بجانب مصطفى كمال ، فانتخبوه رئيساً للمؤتمر بالاجماع ، وعدوا سؤال العضو « غلطة ذوقية »

وانفض المؤتمر بعد ان اتخذ القرار التالي : « الامة وحدة غير قابلة للتجزوء او الانقسام .. وان الولايات الشرقية كلها مصممة على مقاومة كل احتلال ، والوقوف في وجه التدخل الاجنبي ! فاذا رفضت حكومة استنبول الوقوف مع الشعب وحمايته من الغزو الاجنبي فلا مناص من المطالبة بحكومة اخرى موقتة تأخذ على عاتقها ادارة شؤون البلاد ، بعد ان تحرجت الحالة الى هذا الحد

و كان هذا القرار الوطني الحازم اساس الميثاق القومي التركي فيما بعد

وقد تعمد الذين وضعوا هذا القرار اختيار الكلمات المثيرة ، و كانوا في الظاهر يحاولون الدفاع عن كيانهم القومي من اليونان والارمن وحدهم ، دون ان يشيروا ادنى اشارة لصيانة البلاد من الغزو الاوربي !

كما ان هؤلاء الدهاة الذين وضعوا هذا القرار ابوا الا ان يعترفوا

اعترافاً صريحا بانهم ما زالوا على عهد امانتهم للسلطان والخليفة، ثابتين كما ينبغي للرعية الوفية للراعي الصالح !

ونعينت هيئة اعطيت سلطة واسعة سميت « اللجنة النيابية التنفيذية » وكانت مهمة هذه اللجنة تنفيذ هذه القرارات، بعد ان وضع في ايدى اعضائها القواعد التي ينبغي السير عليها

وانتخب مصطفى كمال ليكون رئيسا لهذه الهيئة، فانتفع بما يمكن الانتفاع به من هذه النظم وتجاهل ما رآه عقيما، وكان معه ثمانية اعضاء فلما وجدوا في رئيسهم الجرأة والمقدرة اضطروا الى التنحي وتركوا له الميدان !

وكان بكر سامي بك هو العضو الوحيد الذي لازمه ملازمة تامة

وبكر سامي هذا كان واليا على بيروت، ويعد من اقدر الرجال الذين اشتركوا في الحركة القومية اشتراكاً فعلياً

اما قرار هذا المؤتمر المحلي فقد اذيع فوراً على الامة، وارسلت نسخ منه الى الدول الاوربية، وقد راعى الذين وضعوه ان يفهموا العالم بامره ان هذه اللجنة الجديدة ليس لها ادنى صلة باللجنة القديمة « تركيا الفتاة » التي اختارها حزب الاتحاد والترقي ! كما اكدوا ان ليس لها اية صلة باية لجنة اخرى من هذا النوع على الاطلاق !

ووجد الاتحاديون الذين كانوا يعملون بحماس على استرداد

مكانتهم ، وجمع السلطة في ايديهم ، ان لا مكان لهم بين هذه الجماعة الوطنية الجديدة ، فتركوا الميدان لفرسانه الجدد

اما السلطان « وحيد الدين » فلم ينخدع بمظاهر الولاء الكاذبة التي جاءت في ذلك القرار ، بل لم يشك « السلطان محمد السادس » مطلقا « بامانة » هؤلاء الاتراك لجلالته !

وهو اذا اصدق ان هؤلاء النواب يخلصون حقاً لجلالته فهو لا يستطيع مطلقا ان يصدق ان الجنرال الثائر مصطفى كمال هو من هذا النوع الموالي له ! كان على يقين انه يريد القضاء التام على السلطنة ، وانه ناقم اشد النقمة على التدخل الاوربي ! وانه يريد ان يقسر السلطان وحكومته ، على مقاومة هذا التدخل ، هذا التدخل الذي كان يرتئيه وترتئيه حكومته معه !

كان يريد مصطفى التودد للانكليز ولغير الانكليز فكان يرى ان العنف مع الاجانب انما يزيد الحالة تحرجا ، ويدفع بالاوربيين الى تشديد الخناق عليهم واذلالهم ذلا مضاعفا

وعلى هذا كان يرى السلطان انه من الضروري احتفاظا بعرشه ، وصيانة لمصالح بلاده ، ان يتخذ التدابير العاجلة الحاسمة للقضاء على الجنرال مصطفى ! .. وقتل الحركة القومية !

وفي صيف سنة ١٩١٩ كان من الممكن اطفاء نيران الثورة لو كانت قد اتخذت بعض التدابير الشديدة ، وكان السلطان

من المؤيدين لفكرة قمع الحركة القومية بمنتهي العنف ، فكان يرى تأليف جيش جديد لا يضم اليه الا الذين اظهروا ولاءً حقيقياً لا ولاءً كالذي كان يظهره مصطفى واتباعه لجلالته ، ثم يرسل هذا الجيش للاناضول ، ولكن السلطات الاوربية أبت السماح له باتخاذ هذه التدابير ، فقد كان من نصوص شروط الهدنة تسريح الجيش لا تكوينه من جديد ، وكانت فكرة السلطان هذه مخالفة مخالفة صريحة لتدابير الحلفاء ، كما ان حكومات الدول المتحالفة كانت تطلب من ممثليها في تركيا حماية السلطان ، ولكنها تحرم عليهم التدخل في شؤون تركيا الخاصة المحلية ، وتطلب اليهم ان يكونوا على صلات طيبة مع الاحزاب كلها

وعبثاً حاول السلطان اطلاق يده ليفتك بالثائرين فتكاً ذريعاً ويقضي عليهم قضاءً مبرماً

ولما يئس من ذلك حاول ارغام الحلفاء على قبول ما يريد بارسال بعض رجاله الى الاناضول لاثارة الفتنة ، ولالقاء الوقود للنيران لتزداد الاضطرابات ، ثم وكل الى هؤلاء الجواسيس مهمة تحريض المسلمين على المسيحيين ، قصد الفتنة واحداث الشغب ، على ان تلقى تهمة احداث هذه الفتن على مصطفى كمال ، ولكن هذه المساعي التي بذلها اعوان السلطان لم يقدر لها النجاح ، فكان مصطفى كمال اسرع من السلطان في تكوين الفرق الكمالية لمقاومة رسل

السلطان وجواسيسه — وكان من جراء هذا النزاع الجديد الاهلي ان فقدت الثقة ، واختل الامن وكثرت حوادث قطاع الطرق ، وعمت السرقات ... والنهب ... فلم يجد الحلفاء بداً من تقوية الحاميات في داخل البلاد وعلى الاخص لصيانة الخط الحديدي حتى لا يتدخل الاهلون

اصدر « مصطفى كمال » اوامره المشددة لتجنب كل احتكاك بالفرق الاجنبية التي تحتل البلاد . وكان الجنود الانكليز يعملون جنباً الى جنب مع الجنود الاتراك دون ان يحدث شيء من النزاع

وظن السلطان بان عقد مؤتمر سيواس سيتيح له فرصة من احسن الفرص لوضع نهاية للثورة التي يقوم بها مصطفى بضربة واحدة ، فكان اول عمل قام به السلطان قبل عقد المؤتمر ان اصدر امره الى السلطات في الاناضول بضرورة القبض على الجنرال مصطفى كمال في اي مكان وجدوه ، والاتيان به الى العاصمة

والواقع انه قد دبرت مؤامرة للقبض على مصطفى في طريقه الى سيواس من ارضروم ، ولكنها فشلت اذ علم مصطفى بخبرها فاحتاط للامر وتمكن من تبديل الوقت الذي كان ينوي السفر فيه وتجمعت الجنود فلم تجده في المكان الذي عين لهم ، اذ كان وصل الى سيواس بامان !

عندئذ طلب السلطان من غالب بك ، وكان من اكبر انصار

السلطان ، ومن اعظم مؤيديه ، غزو مدينة سيواس على رأس بعض القبائل الكردية والقبض على كل اعضاء المؤتمر

ووصل اعضاء المؤتمر من كل انحاء الاناضول الى سيواس وقد اختاروا طرقاً سرية ، ولاقوا في طريقهم الشدائد والاهوال

ولما كانت الاقاليم الشرقية غير ممثلة في المؤتمر ، عينت اللجنة التنفيذية لمؤتمر ارضروم التي كان يرأسها مصطفى نوابا عنها

وانعقد المؤتمر في الرابع من آب (سبتمبر) سنة ١٩١٩ تحت رئاسة مصطفى كمال كما انعقد مؤتمر ارضروم تحت رياسته ايضاً

ووقف معترض يعترض على تصرفات الرئيس الاوتوقراطية ، فوقف مصطفى كمال يدافع عن نفسه فقال :

« لقد اثبت التاريخ ، بأدلة لا تدع مجالاً للشك او الارتياب على ان المشاريع الكبرى ومهام الدول العظمى ، لا تقوم لها قائمة ، ولا يقدر لها نجاح ، الا اذا كان على رأس البلاد شخص واحد يتولى دفة الامور ، ويسيرها بحكمته وحذقه ، وان كل مشروع تتعدد فيه الرئاسات ، وتكثر فيه الرؤوس يكون مصيره الفشل المحقق والخيبة التامة ، ولسنا اليوم في مجالس تسمح لنا بالتناحر والتنابذ ، والا هوى نجم الامبراطورية واندثر اثرها لا محالة » !

وهنا سمع هتاف يشق عنان السماء

وجلس العضو المحترم مكسوفاً كما جلس زميله من قبل في مؤتمر ارضروم !

ويمكن هذا السياسي ، والجندي في القرن العشرين ، ان يجعل الاغلبية تتنازل من نفسها له ، وتطلق يده ليتصرف التصرف الذي يمليه عليه حبه لوطنه وتفانيه في الذود عنه !

وكان قد جاء قبل عقد المؤتمر بزمن قصير رؤوف بك يقول: « لقد بحثنا في قضية رئاسة المؤتمر ، واجمعنا بعد البحث على انه ينبغي ان لا نقبل هذه الرئاسة مهما كان الامر »

ولكن مصطفى كمال طلب اليه ان يتمهل ليرى اذا كان يلقي اقتراحه ترحيباً من اعضاء المؤتمر اولا

اخذت الاصوات في الجلسة الاولى عينها — وكانت سرية — فكانت اغلبية الاصوات بجانب مصطفى كمال !

اجل ، انتخب مصطفى كمال رئيساً للمؤتمر بالاجماع ! .. على الرغم من كيد الكائدين ومنافسة المنافسين ، وفي طليعتهم رءوف بك !

وما ان اختير مصطفى كمال حتى وقف يرتجل خطبة العرش فاظهر الولاء من جديد للسلطان ! ولكن اي نوع من الولاء هذا ؟ !

وعرضت قضية الوصاية الاميركية على تركيا على بساط البحث في المؤتمر وكانت هذه القضية من اعقد القضايا ، بل كانت اعقد

من قضية الرئاسة بكثير

كان الرأي العام في ذلك المؤتمر يكاد يجمع على ان الولايات المتحدة لا مطامع استعمارية لها ، وانها الدولة الوحيدة التي تستطيع ان تخلص تركيا من المأزق الحرج الذي وقعت فيه ، وان السبيل الوحيد الذي يمكن ان تلجأ اليه تركيا اذا كانت حقيقة لا تريد الاضمحلال والفناء ، ان ترتمي في احضان اميركا

ووقف رءوف بك ، وبكر سامي بك وثلاثة من الباشوات وكاظم قره بكير ، رفعت ، علي فوءاد واخذوا يدافعون دفاعاً حاراً عن فكرة الانتداب الاميركي على تركيا !

وكانوا يرون انه من العبث الوقوف في وجه الدول الاوربية الظافرة ، وانه من الجنون معارضتها بشتى انواع المعارضة !

وظل الجدال حول هذا الموضوع عدة ايام ، وقف في خلالها احد الاعضاء وقال :

« لا يمكن ان تبقى تركيا على قيد الحياة دون مساعدة تأتيها من الخارج . ان دخل البلاد لا يكاد يكفي لسد نفقات الديون التي علينا » !

ويقول آخر :

« انه من المستحيل على امة تكون مديونة باكثر من ٥٠ مليوناً من الجنيهات .. امة قد دمرت كل ممتلكاتها ! امة لا تكاد

تنتج تربتها شيئاً ! امة لا تكاد مواردها تستحق الذكر
نعم لا يمكن لامة كهذه ان تبقى دون مساعدة الامم الاجنبية
ويقف ثالث فيقول : « الانتداب لا يقضي على الاستقلال ، انا بهذا نتجنب حماية انكلترا ! حماية انكلترا التي ستجعل تركيا مستعمرة ذليلة ، وتحط من شأنها الى درجة العبودية !
ويقف رابع فيقول :
« ماذا نستطيع ان نعمل غير ان نرتمي في احضان الاميركيين ونستسلم لهم .. نحن امة لا مال لها ولا جيش ، وقد فني معظم رجالها ! »

نعم ، هذا ما كان يقوله نواب الامة الذين كان عليهم ان يصونوا البلاد ويفدوها بدمائهم ، وكان الاجدر ان تقطع السنتهم قطعاً قطعاً قبل ان يقولوا هذا القول الذي سيخلد اسماءهم في سفر « الخلود »

هذه كانت حالتهم الروحية ومبلغ يأسهم وقنوطهم
أليس مصطفى اذن كان رجلاً فذاً ، وأليس تحويل امة باسرها من اليأس الى الامل انبل عمل يستطيع ان يقوم به انسان في الوجود ... أليس هو من عمل الرسل ؟
أليس مصطفى كمال يستحق ان يكون رجل تركيا الفذ وسيدها الخالد ، اذ يرى وسط هذا الجو المشبع بالاستسلام ، امة حية مستقلة

تريد الحياة ! . . . تركيا المستقلة التي لا تحتاج لوصاية اميركية او غير اميركية ! . .

ولكنه وجد ان من الحكمة عدم الوقوف في وجه هذا التيار الجارف

استطاع بحذقه تأجيل اخذ القرار في هذا الموضوع المهم . واقترح مخاطبة الحكومة الاميركية لترسل هيئة للاستقصاء عن الحالة في تركيا ، وعما اذا كانت تريد الوصاية او لا تريدها وقد كان على يقين ان اميركا سترفض الوصاية رفضاً باتاً ، وتحل القضية عندئذٍ من تلقاء ذاتها

وهكذا صدقت تكهنات مصطفى !

لم يشارك مجلس الشيوخ الاميركي ولسن في احلامه وخياله ، وأكد الاميركيون للاتراك بانهم ابعد الامم عن التفكير في استعمار بلادهم او غير بلادهم !

٣٠

مصطفى كمال يملي شروطه على السلطان

علم اعضاء مؤتمر سيواس ان غالب بك الموالي للحكومة قد جاء على رأس بعض القبائل الكردية للقبض على اعضاء المؤتمر ، فما كان منهم الا ان ارسلو الانذار النهائي لرئيس الوزراء الداماد فريد باشا ، بانه اذا كان لا يسمح لهم بالاتصال مباشرة بالقصر بعد مضي ساعة واحدة ، يقطعون كل صلة لهم بالحكومة المركزية ، ويكونون احراراً يفعلون ما يريدون !

وفي صبيحة اليوم الثاني عشر من آب سنة ١٩١٩ كانت الساعة المعينة قد انتهت فنفذوا تهديدهم ... وقطعت كل علاقة بين القصر والنواب .... وقبض الاتراك على الموظفين الذين لا يشاركونهم في حماسهم ، واودعوهم في بيوتهم وطلبوا اليهم عدم مفارقتها، والا عرضوا حياتهم للموت ، وحل الوطنيون مكانهم

وهنا ظهر نشاط مصطفى كمال ، فكان يعمل بهمة تدعو للعجب حقاً واستطاع بذكائه فصل استنبول فصلاً تاما عن جسم الامة !

ووجد انصار مصطفي انه لم يعد بامكانهم الفرار من المسئولية

بعد ان باتوا في قلب الثورة التي قادهم اليها مصطفى ... وكانت الاغلبية تأبى الوقوف هذا الموقف تجاه السلطان !

واضطرب كثير من النواب عندما وجدوا انفسهم في هذا الموقف الحرج وكانت الثورة آخر مشتهياتهم

واصبح مصطفى كمال الحاكم الفعلي والمسيطر على كل الامور فاصدر بلاغاً باسم المؤتمر ماله ان اللجنة التنفيذية التي يرأسها ، والتي تتكون من الثمانية الذين وقع الاختيار عليهم قد اخذت على عاتقها حكم البلاد ! ... وكانت اللجنة قد تركت الامور لمصطفى ، فاصبح هو اللجنة ! ... واصبح هو الحاكم الفرد !

ولكن مصطفى كان يضع امام عينيه ما لاقاه انور ، ويحاول ان لا يقع فيما وقع فيه انور

وتساءل رفاق مصطفى : أيضحون بانفسهم ليحوز مصطفى المجد لنفسه؟ والقوة لنفسه ؟

كان الاتراك يريدون تبديل الحكومة . ولكنهم ما كانوا يريدون التخلي عن السلطان ! ... بل ما كانوا يريدون تجريده من سلطته ، ولو كانوا هم انفسهم الذين سينعمون بهذه السلطة ، وبمعنى آخر كانوا يحبونه اكثر من انفسهم ، ويفضلون مصالحه الذاتية على مصالح الشعب !

كثر الهمس ، وبدأت تظهر الاعتراضات ، وقام من النواب

من يقول بان لا حق للجنة التنفيذية في المؤتمر ان تدعي «بانها الحكومة»

وماذا عساهم يفعلون اذا تدخل الاوربيون في شؤون الاناضول؟. واحتلوه كله ؟ .. ومن اين يجدون المال ليدفعوا نفقات الجيش .. ورواتب الموظفين ؟ ..

هذه هي الاعتراضات التي تقال..

ولكن الحقيقة انهم كانوا في دخيلة انفسهم يعترضون على تحكم شخص واحد فيهم ! .. وكانوا في الواقع يريدون مهاجمة مصطفى كمال ذاته !

وتقدم كاظم قره بكير باشا ، يعبر عن وجهة نظر الاتراك في ذلك الحين ، فخاطب مصطفى كمال قائلاً :

ان القيام بالمخابرات باسمكم قد اثار الانتقاد ياباشا ، وصدقني ان الذين يوجهون هذا الانتقاد اليكم هم من اقرب الناس لشخصكم ممن يحبونكم حباً صادقاً .. ويحترمونكم اكثر من غيرهم ..

وانك تستطيع يا سعادة الباشا ان تتصور النتائج التي يمكن ان تترتب على عمل كهذا .. والسير في هذه الطريق الوعرة ، ارجوك من الان فصاعداً ان تجعل اللجنة هي التي تتكلم باسمها ، حتى تكون المسئولية كلها واقعة عليها لا عليكم وحدكم ، وعندئذٍ لا يشعر الاهالي ان فرداً واحداً يتحكم فيهم ، لان هذا التحكم لا

يقبله شعب لنفسه ، مهما كانت نفسيته ولا ترضى عنه كرامتهم

واني اؤكد لكم كصديق ان الامة كلها ترى هذا الرأي ، وتفكر هذا التفكير

ومع هذا فان الامة كلها تريد ان تراك عظيما كما انها تريد ان تراك بارزاً

واراد مصطفى ان تقوم حكومة شرعية تستطيع تنفيذ اوامرها على القواد . وهو يرى انه لا يمكن التحكم في الجيش الا اذا كان الضباط في مقدمة انصاره ، ولا يمكنه اخضاع الثائرين عليه الا اذا كان مؤيداً من الجيش ، وعلى هذا وجد ان لا مناص من التفاهم مع استنبول باسرع وقت ممكن .. وكان في وسعه الانتظار ليرى الاقتراحات التي سيعرضونها عليه

اما استنبول فقد وقعت في حيرة .. وجدت انها اشبه برأس دون جسم ! فقد كان بها سلطان ، ولكنه سلطان لا مملكة له !

كان بها حكومة ولكنها حكومة لا تستطيع الحكم ! آلة تتحرك « هي الدولة » ولكنها لا تنتج شيئاً بل تدور « على الفارغ »

والتفت السلطان الى من حوله فوجدهم كاليتامى او من هم في حكم اليتامى ، لا يستطيعون ان يمدوا اليه يداً . والتفت الى الجيش وكان مرض الوطنية قد تفشى فيه

وهز نواب الدول الاوربية اكتافهم وابوا التدخل في مشاكل

تركيا الداخلية ! !

واخذ السلطان يحدث نفسه : هل أصيب هؤلاء الاجانب بالعمى ؟ ألم يعودوا يفكرون الان في تركيا بعد ان اصبح العرش مهدداً ؟

طلب المساعدة ... الحّ الحاحاً شديداً ... ولكنهم كانوا يجيبونه بصراحتهم

على الحياد ! ، على الحياد !

ليس من خصائصنا التدخل في شؤون تركيا الداخلية الصميمة وانه وحده المسؤول عن حفظ النظام في بلاده ، اذا كان يريد ان يقيم على رأس هذه البلاد !

وشعر الداماد فريد باشا بخيبة الامل لان الانكليز الذين كانوا يؤيدونه ، قد نفضوا ايديهم منه ، وتركوه في حيرته وارتباكه !

واضطر السلطان « وحيد الدين » ان يأتمر مع العصاة المقدونيين وان يفاوضهم لانتشاله من الموقف الذي وقع فيه

وقام البعض يتوسطون اذ رأوا ان التوسط يمكن ان يحل الازمة ، فتقدم عبد الكريم باشا ، وهو من اصدقاء مصطفى كمال الحميمين من ايام سلانيك ، وعرض ان يكون وسيطاً

وكان عبد الكريم هذا جندياً ورئيساً لجماعة من المسلمين المتصوفين ، ومصطفى يناديه بصاحب الفضيلة وهو ينادي مصطفى

بـ « قطب الاقطاب »

واتصل مركز القيادة الاعلى الوطني في سيواس مباشرة باستنبول والمسافة بين سيواس واستنبول ، تقرب من ستمائة ميل ، واخذت تجري المفاوضات بين عبد الكريم وصديقه مصطفى طول الليل ٠٠ نعم استغرقت المفاوضات ثماني ساعات كاملة ! وكان عبد الكريم يستعمل الكلمات الجذابة معتمداً في حديثه على آيات من القرآن الكريم ٠٠٠ وكان « قطب الاقطاب » في الطرف الآخر يسمع هذه الاقوال الحكيمة ، والمواعظ التي كان يلقيها هذا الرجل الورع عليه وهو جد مذهول ثم قال له اخيراً :

« لا شك ، يا صاحب الفضيلة ، بان يد الله فوق يد البشر ، ولكن من الصحيح ايضاً ان يعتمد الانسان في حل مشاكله على نفسه ، فالذي يعمل لله فان الله يعمل معه ويأخذ بيده

وأصر مصطفى على شيئين لا يتم الصلح بينه وبين السلطان الا اذا تحققا فوراً وهما :

— طرد الداماد فريد باشا

— اجراء الانتخابات للبرلمان الجديد

وبعد ثلاثة ايام من هذه المخابرات اي في الثاني من تشرين اول (اكتوبر) سنة ١٩١٩ كان الداماد فريد باشا مستقيلاً ! ٠٠٠ وحل مكانه علي رضا باشا ، ذلك الجنرال المسن الذي كان من المحايدين

وكانت مهمة الوزارة الجديدة التوفيق بين الاحزاب المتنافرة وان تكون الصلة بين استنبول والمدن الاخرى واضطر اخيراً السلطان الى الخضوع للجنرال الثائر ، احتفاظاً بعرشه ؟

وكان فوز الوطنيين — الذين كان ينظر اليهم قبل ذلك بزمن قصير انهم من المارقين الخونة — ونجاحهم في اسقاط الوزارة يعد من الاعمال الخارقة التي يندر ان تجد لها مثيلاً . ولم ترض الوزارة الجديدة كل رغبات اعضاء مؤتمر سيواس

ولكن مصطفى كمال كان حاذقاً عندما قنع بنجاحه على خصمه ، ولهذا لم يصر على الطلبات الاخرى ، التي كان منها الاصلاح القضائي ، ومحاكمة الوزراء السابقين

واعلن مصطفى كمال للامة في منشور وطني بان اللجنة التنفيذية للوطنيين تعترف بالحكومة الجديدة التي يرأسها « علي رضا باشا » وانها تؤيدها بكل انواع التأييد

ثم شكر جلالة السلطان في اليوم عينه باسم « الامة » !! .. لانه تنازل واصدر ارادته الكريمة باقالة الوزارة ، وزارة خصمه الداماد فريد باشا

وان هذه التشكرات « الحارة » — الخالصة — التي كان يغدقها مصطفى « المخلص » للسلطان كانت ولا ريب كحبوب الدواء المرة يبتلعها السلطان على الرغم منه وهو كاره لها كل الكره

وكيف يستطيع ان يتحمل رجلاً يتحدث باسم « الامة » وهو وحده الذي يحق له ذلك · أليس هو جلالة السلطان وأليس هو خليفة المسلمين ؟ فكيف يقبل اذن من جنرال مطرود من الجيش ان يخطب باسم الامة ويفاوض باسم الامة ؟ !

وعاد الاتصال بين « استنبول » والولايات الاخرى وانفرجت الازمة ، وقررت لجنة سيواس ان تتحاشى خروجها ثانية على الحكومة ونفس كثير من القواد الصعداء

ولكن هذه اللجنة النيابة في سيواس ، وان كانت قد اعترفت بالوزارة الجديدة واعلنت خضوعها لها ، فقد بقيت مواصلة عملها بكل همة ونشاط ! بل ضاعفت من همتها ونشاطها !

واصبحت الاناضول مركز الزعامة الوطنية ، وقامت في الاناضول حكومة داخل حكومة !

ولما كان غرض مصطفى كمال الرئيسي تأسيس « جمهورية » والقضاء على « السلطنة » و « الخلافة » كان من الطبيعي ان لا يسمح باخماد الحركة القومية ، وكان من الطبيعي ان لا يجعل هؤلاء الانصار يفلتون من يده فكان يحتفظ بهم احتفاظاً شديداً ، ويحاول ان يغذي الروح القومية وينميها بكل وسيلة ممكنة !

اجل ، اخذ يبتكر مصطفى كل انواع الاعذار والعلل ، طمعاً في تأجيل موعد حل اللجنة ، وكان بقاء اللجنة في نظر الكثيرين

امراً لا لزوم له ، بعد ان اعلنت الامة رضاها عن الحكومة الجديدة ، بل ان بعض الذين كانوا يعطفون على الوطنيين كالفيلد مرشال عزت باشا قد رفعوا اصوات الاحتجاج والتحذير يطلبون بشدة وضع حد للنزاع الداخلي ، والشقاق المعيب ! ...

ولكن مصطفى كمال كان يجيب هؤلاء بان على الوزارة الجديدة ان تقيم الدليل على انها تستحق الثقة التي اولتها اياها الامة ولا يمكن ذلك الا بعد مدة تتمكن فيها هذه الوزارة من تقديم اعمالها وتبرهن على اخلاصها عملياً

وكان يقول ايضاً بانه لم يعد يهتم في الوقت الحاضر الا بالاستعداد لحركة الانتخابات البرلمانية ، لتكون الاغلبية الساحقة من النواب الوطنيين

وسرعان ما وجدت الحكومة نفسها في موقف لا تستطيع احتماله ، فكانت تدابيرها تقاوم ، واوامرها لا تطاع ، وكبار الموظفين الذين يشغلون الوظائف الاساسية في الدولة ، لا يستطيعون القيام بواجباتهم في هذا الجو المملوء بالبغض المشبع بالكره لهم ...

٣١
مصطفى كمال عدو الاحتلال

وبينما كانت « استنبول » آخذة في الضعف كانت «الاناضول» آخذة في القوة . وبدأت استنبول تستيقظ من سباتها العميق وتستفيق من ذهولها ! وقد رأت ان الشعب الذي كان يستسلم للقنوط واليأس قد دبت الحياة فيه .. وعادت اليه الثقة بالنفس !

وبعد ان كان الاتراك يقبلون الضيم الاجنبي صامتين مخذولين، اخذوا يظهرون العداء بجلاء للاجانب وللحكم الاجنبي ! ووجدت ان الدول الاوربية بتقربها من اليونانيين على حساب تركيا ، قد اضاعت البقية الباقية من ثقة الاتراك فيها

وكان على الحكومة المركزية ان تحسب حسابا لخلق الشعب التركي ولطبائعه ، وقد برهن النواب الذين اجتمعوا في « سيواس » على انهم اقوى مما كانوا يظنون وعلى هذا كان من الحكمة ان تتفاهم هذه الحكومة مع اللجنة البرلمانية ، وتعمل بالاتفاق معها بدلاً من ان تعمد احداهما على الكيد للاخرى ، وهذا ما فعله علي رضا فقد ارسل صالح باشا وزير البحرية وكان مقربا من الوطنيين الى الاناضول ...

وحضر هذا الرسول مؤتمر «اماسيا» في الثامن عشر من تشرين اول (اكتوبر) سنة ١٩١٩ الذي استغرق عدة ايام، واستطاع ان يوفق بين الحكومة والنواب

وكان اول اقتراح عرض وقبل فوراً من الجانبين : «عدم المساس بالسلطنة او الخلافة»

ثم جاء دور القرارات التي وضعها اعضاء مؤتمر ارضروم، واعضاء مؤتمر سيواس، هذه القرارات التي كانت تحتم السعي وراء الاستقلال، ومقاومة كل تسليم لاراضي الدولة للاعداء ... فما كان من مندوب استنبول الا ان قبل هذه القرارات برمتها ! ..

ولكن لما جاءت القضية الخطرة الحرجة قضية حل اللجنة البرلمانية التي يرأسها مصطفى كمال، هذه اللجنة التي تعد في الواقع حكومة منافسة لحكومة استنبول، اشتد الجدال فتركت معلقة، وتقرر ان تترك معلقة الى ان يجتمع اعضاء المؤتمر الجديد للبت فيها

وهنا احتاط مصطفى كمال للامر فوضع الشرط الآتي : «على ان يكون لاعضاء البرلمان مطلق الحرية، والحصانة البرلمانية وان يفكروا تفكيراً حراً في جو حر» !

ولما كانت العاصمة محتلة بالاجانب اراد مصطفى كمال ان يكون اجتماع البرلمان الجديد في مكان اخر غير استنبول .. ترك للحكومة ان تعينه، ولكن هذا الاقتراح قد لاقى اعتراضاً من الحكومة كما

لاقى اعتراضاً من بعض رفقائه انفسهم ، الذين ابوا تأييده في اقتراح كهذا ، فكانوا يتخوفون ان يجمع مصطفى السلطة التشريعية في يده

واضطر مصطفى كمال ان يرضخ هذه المرة وكان هذا الرضوخ كما سيظهر فيما بعد موافقاً لمصلحته !

ووجد الاجانب ان هناك قوة جديدة في الاناضول تبعث الحياة في الاهلين ، وعرفوا ان مصطفى كمال هو الذي يلعب هذا الدور الحيوي في السياسة التركية

ونقدم الاجانب يظهرون الروح الودية للاتراك ، بعد ان وجدوهم قد اصبحوا كتلة قوية تقدر كرامتها وتأبى الذل لنفسها

واخذت كل دولة تخطب ود الوطنيين ، حتى يكون لها شأن لغير شأن الاخرى

ومنذ ذلك الحين اخذ الاجانب يجتمعون بمصطفى كمال ، ويترددون على سيواس ، و يتنبأون بانه سيصبح رئيساً للوزارة يوماً ما

وجد الاجانب في مصطفى كمال الشخصية القوية . . وجدوا فيه رجلاً يعرف تماماً ان يقول ما يريد ، ويعبر عنه بعبارات موجزة محكمة . . وانه يقول « نعم » او « لا » دون دوران او « لف » وانه لا يرفض البحث في اي موضوع ، ولكنه لا يغير مطالبه الاساسية ولا يحيد عنها .

كان يقول لهم : « يمكنكم ان تحتلوا بلاد العرب كلها وان تحتلوا ايضاً سوريا . . ولكني لن اسمح لكم باحتلال تركيا ! اننا نطالب بحق ينبغي ان تتمتع به كل امة نريد ان نكون امة حرة داخل حدودنا الطبيعية القومية . . لانريد قيراطا واحداً اقل »

وكان الاجانب يصغون الى هذه الاحاديث مشدوهين ويقولون في انفسهم :

« هل هذه اللغة تنتظر من رجل ينتمي الى الشعب التركي « المقهور » ؟ !

ثم يتركونه ويقولون . . « انه لا يزال يعيش في الاوهام والخيال » . .

ثم اخذوا يرون تبديلاً محسوساً في العاصمة ! . . وغير العاصمة ! . . رأوا ان القضية ليست قضية تأسيس حزب جديد ، يطمع بجمع القوة في يده ، ولكنها قضية حركة عامة اثرت في الامة كلها ، وان عليهم قمعها قبل استفحال شرها !

واعلن الروس حماية المسلمين من الاستعمار الاوربي ، وراجت الاشاعات بان الزعيم الوطني « مصطفى كمال » قد بدأ يفاوض موسكو بعد ان وجد ان الدول الاوربية تأبى الموافقة على شروط صلح عادلة

وكان المندوب السامي الانكليزي وغيره من المفوضين السامين الاوربيين يرسلون التقارير الضافية يحذرون فيها حكوماتهم

تحذيرات متعددة ، ويوجهون انظارها الى الخطر الذي تتعرض له تركيا ، ولكن هذه الحكومات كانت لا تبالي بهذه التقارير لانها تعتقد ان تركيا ما هي الا « بقايا » و « انقاض » الامبراطورية العثمانية المتهدمة ، ولم تكن تملك هذه الدول القوة التي تحرك هذه البقايا وتبعث الحياة في تلك الانقاض !

وفي الثامن من تشرين ثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٩ خطب لويد جورج رئيس الحكومة الانكليزية خطاباً جاء فيه ، وقد القاه في جيلد هول :

« ان شروط الصلح قد وافقت عليها الدول المتحالفة اتم الموافقة وعلى الاخص في قضية الامبراطورية العثمانية ، وان اوربا كلها مجمعة اجماعاً تاماً على ان الحكم العثماني الضار الكريه ، ينبغي ان ينتهي في الاراضي التي يسكنها اليونان والارمن والعرب ، وان الموانئ الواقعة على البحر الاسود والبحر الابيض المتوسط ينبغي ان تفتح في وجوه الامم كلها ! »

ولكن الاتراك يستطيعون ان يحكموا على الطبيعة البشرية حكماً اصوب وادق من غيرهم فقد اشتهروا في كل تاريخهم بالدهاء والسياسة ، ولهذا لم تخفهم هذه اللهجة ... لهجة الرعد القاصف

واجمل مايروى في هذا الصدد ان شيخاً تركياً قد سئل عن رأيه في خطاب « لويد جورج » هذا فقال :

« ان الدول الاوربية تغالي كثيراً في وحدتها لدرجة يصعب علينا ان نصدقها ! »

اجل ، تم الاتفاق حقيقة على الاراضي التي ستوضع تحت الانتدابين الفرنسي والانكليزي ، تركت لفرنسا سورية وسيليسا التركية ، بينما « قبضت » انكلترا ثمناً باهظاً ... هو بقية بلاد العرب ومن بينها الموصل ، الغني ببتروله

وكانت نتيجة هذه الاتفاقية ان اخلى الانكليز اجزاء سيليسيا التي كانوا يحتلونها ، وحل الفرنسيون مكان الانكليز

ولما كانت انكلترا لا تبالي ببقية تركيا — اذا استثنينا استنبول والمضايق فقد بدأت تسحب قواتها من الاناضول مكتفية بترك شرذمة صغيرة لصيانة السكة الحديدية

وكانت الفرق الفرنسية غير كافية لاحتلال هذه الاملاك الشاسعة ، فاستعان الفرنسيون بالارمن وكونوا فرقة حربية منهم

وعاد الارمن الذين طردوا من سورية بالالوف ، واستردوا بيوتهم وامتعتهم التي ظلت سنوات طويلة في ايدي الاتراك

وبعد ان كانت الحالة في وقت الاحتلال الانكليزي هادئة اضطرمت النيران فجأة وعم الهياج

وهنا بدأ مصطفى كمال يقاوم الاحتلال الاجنبي بعد ان صبر عليه طويلا ، وكانت حجته في المقاومة الآن وعدم المقاومة بالامس

ان الاحتلال الجديد نهائي وانه مخالف لشروط الهدنة ، وان الحلفاء هم وحدهم الذين يلامون ، وعليهم تقع التبعة اذا وقعت حوادث خطيرة بسبب ذلك التعدي

اجل ، استطاع مصطفى كمال ان يلمس مكان الضعف من فرنسا ولم يتردد مطلقاً في الضرب على هذه الجهة !

وتقدمت الجيوش النظامية الى سيليسيا ، واستعان بالاهلين على مهاجمة الحامية الفرنسية ، ولم يكن هذا القتال كحرب العصابات في ازمير بل كان قتالاً منظماً

اما « باريس » فقد صعقت ولم تستطع ان تتصور كيف امكن لهذا الجنرال « المجنون » ان يتجرأ على مجابهة كل الدول الاوربية

اجل ، قاوم مصطفي « بعد » ان اعلنت الدول الاوربية انها على اتم « وفاق » !

اما فرنسا فكانت ترى بان هذا الرجل « المجنون » سيدفع هو وستدفع امته معه ، ثمن هذا التمرد باهظاً جداً

٣٢

سياسة الارهاب

قرأ سكان انقرة في صحيفة يومية تسمى اجانس خبر قدوم مصطفى كمال الى انقره من « سيواس » فاغتبطوا لهذا الخبر ايما اغتباط كان الاهلون قد سمعوا باسمه ، بل كانوا يعتقدون انه المنقذ الذي ارسله الله لينقذ الامة في ساعة الحاجة الشديدة

و بكر الاهلون في صبيحة اليوم الذي كان ينوي مصطفى كمال الوصول فيه لاستقباله ... تحركت المدينة كلها ... ترك المزارعون حقولهم ... ووقفوا بزماميرهم وطبولهم ينتظرون مصطفى ... وخرج الدراويش في موكب حافل يحملون الاعلام الخضراء العريضة ، وعليها الآيات القرآنية الكريمة

واخيراً ، بعد انتظار ساعات طويلة تطلع القوم واذا سحابة من التراب تملأ الفضاء على مسافة بعيدة ، و بعد قليل مرت السيارة التى تحمل مصطفي كمال !

كان مصطفي يرتدي في تلك السفرة للرهقة ثياب الالعاب البسيطة ، و كان لا يزين صدره بأي وسم ، ولا يحمل سلاحاً ، وان كل ما معه عصا بسيطة قوية يتكيء عليها

وتعالت اصوات الهتاف والموسيقى وزغاريد النساء التي كانت تدوي فتمتزج باصوات تهليل الرجال

وصل مصطفى كمال الى مركز الثورة — انقرة — وقد اختيرت انقرة لمركزها الجغرافي في قلب الدولة ولانها من المدن الحصينة المنيعة ولاتصالها بالعاصمة ٠٠ وكان هذا من الاهمية بمكان عظيم لان الفصل الثاني من تلك الرواية سيمثل في استنبول

وتمت الانتخابات البرلمانية الجديدة ، وكانت الاغلبية الساحقة لانصار مصطفى كمال ومؤيديه ، بينما الحزب الذي يؤيد الداماد فريد باشا لا يكاد يكون ممثلاً في البرلمان على الاطلاق

وانتخب مصطفى كمال عضواً برلمانياً ولكنه احجم عن الذهاب الى العاصمة ، بل عمد الى عقد اجتماعي برلماني يضم نواب انقرة ، وقدم لهم التعليمات الضرورية ، وطلب اليهم ان ينتخبوه رئيساً للمجلس في غيابه ! وان يكون رؤوف بك زعيماً للحزب

وفي الحادي عشر من شهر كانون اول (يناير) سنة ١٩٢٠ افتتح اخر برلمان عثماني ! ٠٠ بخطاب العرش ! ٠٠ وكان موقف مصطفى كمال يتطلب اعصاباً من حديد ، فهو نفسه الذي طلب انتخاب اعضاء جددا ، واعترف بدستورية المجلس ، ووافق على النواب الذين اختيروا ، ووعد بالنزول عند قراراته ٠٠ وهو الذي حل الحكومة السابقة التي كانت تناهض الحكومة الحالية ٠٠ وهو

الذي طلب ان تحكم البلاد حكماً دستورياً · وعلى هذا كان البرلمان «محكمة استئناف عليا» وكان حكمها الذي متصدره هو الحكم الفاصل القاطع ، فاذا انكر اعضاء البرلمان زعامته فكأنهم قد قضوا حتماً وحينئذٍ ينقلب الشعب عليه انقلابا تاما

وتردد النواب في بادىء الامر · حتى نواب الاناضول انفسهم وكانوا يودون ارضاء «استمبول»

وتلكأ الوطنيون في اعطاء اصواتهم ، لانهم كانوا يخشون سطوته وميله للتحكم

وعليه فقد خالفوا تعليماته وانتخبوا رؤوف بك ، واعترف المجلس بالميثاق القومي ، وقرارات ارضروم ، وسيواس

وبلغت الدول الاوربية الحكومة التركية في مذكرة رسمية بان «استنبول» والمضايق ، ينبغي ان تبقى تحت تصرف «السلطان» وكان هذا العمل من الدول الاوربية ليس عن رغبة في التقرب من الاتراك ، بل ليجدوا مخرجاً من الحالة المقلقلة التي وجدوا انفسهم فيها

ووجد الوطنيون في عمل الحلفاء هذا انتصاراً لسياستهم الوطنية وامكان التفاهم مع الاوربيين على شروط صلح عادلة

سمح الاتراك بطرد جمال باشا وزير الحربية ، ونصير الكماليين الاكبر ، بناء على طلب احد المندوبين السامين !

واحجم الاتراك عن اسقاط علي رضا باشا رئيس الوزارة المعتدل ، واحلال وزارة قومية بحتة مكان وزارته ، على الرغم من الحاح مصطفى كمال – وهو في مركز القيادة لا يفارقه – على رفاقه بان لا يتهاونوا في هذه القضية الحيوية !

اجل ، لما رأى مصطفى كمال ان الدهر قد اخذ يكشر في وجهه ، اراد ان ينقل المجلس من العاصمة الى الداخل ، كما كان يرى اولاً وكما كان ينوي ان يفعل منذ البداية

اخذ يعد الجيوش و يتأهب للقتال ، وقد لاقى التأييد – العلني من الموظفين انفسهم في استمبول

و كانت استمبول ترسل للاناضول الرجال والاسلحة والنقود دون مبالاة باعتراضات المندوب السامي الانكليزي ، والمفوض السامي الفرنسي ، بل كان الشعب التركي قد بدأ يتجاهل وعودهما ولا ينفذون لهما امراً

وجمع مصطفى كمال عربات كاملة من الاسلحة والذخائر من شبه جزيرة غاليبولي تحت اعين المندوب السامي الانكليزي ! وعلى الرغم من رقابته

و بدلا من ان تتوقف الحركات العسكرية كما طلبت باريس ولندن بصورة قاطعة ، فقد ظلت حرب العصابات باقية وقد كانت علنية في « سيسيليا »

وكان على الجيوش الفرنسية ان تجلو عن مدينة « مراش » ..
وقد حوصرت بيريا واضطرت الى التسليم ، فسمحوا للحامية ان تنسحب ولكنهم عادوا يهاجمونها وهي تاركة المدينة ، فقتلوا من الجنود من قتلوا ، واخذوا اسرى من اخذوا ، فكان عملهم هذا خيانة لا مبرر لها

« وتطهر » الجزء الشرقي في « سيليسيا » من الحامية الاجنبية

وبعد هذا النجاح الباهر شعر الاتراك حتى سكان استمبول بانهم قد استردوا شجاعتهم

اما رئيس الوزراء علي رضا باشا الذي اشتهر بالتذبذب الدائم ، والتقلب المستمر ، فقد اخرج من وظيفته وحل مكانه صالح باشا وهو رجل اكثر ثباتاً منه واشدّ عزماً وكان حتى ذلك الحين يتولى وزارة الشؤون البحرية

وفي العاشر من ايار سنة ١٩٢٠ صرح « اللورد كيرزوز » في مجلس اللوردات بان الحلفاء لم يعد في وسعهم ان يرضوا بالاستخفاف بالاوربيين الى الحد الذي وصل بهم في استمبول ! وفي الوقت الذي يضطهدون المسيحيين وتقوم المذابح في كل مكان » !! ....

وكانت نتيجة هذا الخطاب الاستعماري ان امتلاء ميناء قرن الذهب بالسفن الحربية الاوربية !

وانسحب الموظفون الانكليز من الاناضول ، وصدرت الاوامر

للحامية الانكليزية الباقية هناك بالانسحاب في اقرب وقت ممكن كما ان الانكليز في انقرة قد تركوا المدينة على وجه السرعة .

وصرح رؤوف بك في استمبول بان الانكليز ينوون القبض على النواب الوطنيين ، واعادة وزارة الداماد فريد باشا

وابرق مصطفى كمال لنوابه يحضهم حضاً شديداً على الفرار ، وعدم تسليم انفسهم للانكليز ، ولكنهم ابوا ان يهربوا

وفي صبيحة اليوم السادس عشر من شهر اذار سنة ١٩٢٠ في ساعة مبكرة اتخذت التدابير التأديبية التي كان منها احتلال استمبول احتلالاً عسكرياً ، وتشديد الخناق على الاهلين ، وعهد بذلك الى الجنرال الانكليزي « السير هنري ولسن » القائد العام للقوات الحربية المتحالفة

ووافقت باريس وروما على ان تشترك الحكومات الثلاث : انكلترا ، وفرنسا ، وايطاليا ، في العقوبات .. ولكن انكلترا وحدها هي التي ارسلت قواتها البحرية ، ولم ترسل فرنسا او ايطاليا اية قوة برية او بحرية

ولما وجدت فرنسا وايطاليا ان انكلترا قد نجحت في احتلال استنبول تدخلتا من جديد لتوقفا تصرف الانكليز المطلق حفظاً للتوازن الدولي وطلبتا مشاركة الانكليز في حكم البلاد

ثم طافت الجيوش الانكليزية على غير انتظار ، في الشوارع

الرئيسية ، متباهية معتزة ، واحتلت دوائر البريد والتلغراف وكل ابنية الدولة المهمة ، بعد ان القت الرعب في قلوب الاهلين حتى الجنود الاتراك انفسهم !

واظهر احد الموظفين شجاعته فلم يستسلم الا في اللحظة الاخيرة و بعد ان ابلغ انقرة خبر دخول الانكليز للبلاد فجأة ، وكانت البرقية التي ارسلها قبل فراره كما يلي :

لقد غزا الانكليز المدينة ! كان الهجوم فجائياً ٠٠ بينما الجنود نيام ٠٠ ستة قتلى ٠٠ الجرحى خمسة عشر ٠٠ فرق جديدة تتوارد بسرعة ٠٠ الجنود الانكليز يطوفون الشوارع ٠ اوشك الانكليز ان يدخلوا غرفة التلغراف ٠٠٠ اخاطبكم من وزارة الحربية ٠٠٠٠ لقد دخلوا ٠٠٠ اقطعوا الاتصال ٠٠٠ الانكليز هنا ٠٠٠٠ ومنذ تلك اللحظة كانت انقرة بمعزل عن العاصمة

٣٣

الحكم بالاعدام

على مصطفى كمال ورجاله

كانت السلطات قد قبضت في الليلة السابقة على عدد من نواب الحزب الوطني من بينهم رؤوف بك ، وفتحي بك ، وهم لا يزالون في دورهم ، كما انها قبضت على رئيس الوزراء السابق البرنس سعيد حليم وساقوا هؤلاء النواب الى السجون التي كانت مكتظة الى درجة الاختناق

اجل ، كانت السلطات جادة في القبض على الضباط والموظفين من اصحاب المراكز العليا والسفلى ، بحجة اشتراكهم في الشؤون السياسية ، وزجوهم جميعاً بين المجرمين العاديين ، مع ان الكثيرين منهم قد سجنوا ظلماً وعدواناً ، وقد ظلوا اكثر من سنتين تحت الحفظ قبل ان تجد السلطات « تهمة » تلصقها بهم ! ٠٠٠

وفي اليوم التالي فرغت السجون كلها ٠٠ اجل ، اخرجوهم جميعاً ! الوزراء والقتلة ٠٠ النواب واللصوص ! ٠٠ الابرياء والاشقياء دون محاكمة او شبه محاكمة ، وحملوهم الى ظهر باخرة نقلتهم الى جزيرة مالطة ، حيث سجنوا في القلعة دون ان يلقوا شيئاً من العناية

هذا وان حوادث النفي والابعاد قد كان لها من النتائج الوخيمة ما هو شر من احتلال البلاد ! .. هذا الاحتلال التأديبي الذي جعل الاتراك لا يثقون بالعدل البريطاني !

واستطاع بعض النواب ان يهربوا واقتدى بهم الضباط وكبار الموظفين ، وكل الذين اشتركوا في الحركة الوطنية او الذين كانوا على وشك الانضمام اليها

وزادت عداوة الشعب للسلطان وقيل ان جماعة من مستشاريه كانوا يبلغون اسماء من ينوي السلطان القبض عليهم قبل الوقت ليساعدوهم على الفرار ! ..

وكان الحلفاء يتحكمون في المدينة كما يريدون ، ولكن استنبول لم تعد في الواقع عاصمة تركيا الحقيقية

واعلنت الاحكام العرفية في استنبول وفرضت الرقابة الشديدة على الصحف ، والبريد والتلغراف والبوليس وعلى الوزارة

وازاعت الوزارة منشوراً عاماً حضت الشعب فيه على الخلود للسكينة ، وذكرت ان الاحتفاظ بها اول واجب من واجبات الرعية ، وختمت المنشور بهذه الجملة :

« ان اهم واجب على كل مواطن تركي اطاعة اوامر السلطان »

وشعر السلطان وحيد الدين بانه قد تحرر من الكابوس الوطني ومن ضغط الوطنيين ، وكان هو وحده الذي يعلم انه اذا نجح

مصطفى كمال فانه سيقضي حتماً على عرشه ، وعلى الحكم الملكي ، وهذا ما حدا به لان يضاعف من نقمته عليه ومحاولة خنقه !.. كما حدا به التعلق بالانكليز والارتماء في احضانهم ! اجل ، ان خوف السلطان من مصطفى كمال كان يعميه عن كل شيء .. ولو كان قد اظهر جرأة في ذلك الحين فربما كان قد احتفظ بالسلطنة لاسرته ! :ولكنه ذهب ضحية جبنه وهلعه ، ولو كان عندما حدث الهجوم الجائر على استنبول ، هذه الحملة الاستبدادية التي اثارت سخط سكان تركيا كلهم ، وملأت قلوبهم حقداً وغيظاً ، قد فر الى الاناضول وقاد الحركة القومية لما امكن مصطفى كمال ان ينجح في تأسيس الجمهورية لان السواد الاعظم من المسلمين كانوا يرون السلطان ظل الله على الارض .. ولكن وحيد الدين ترك الشعب وارتمى في احضان الانكليز ! كان يعتقد اعتقاداً جازماً بان بريطانيا العظمى تملك من القوة ما يكفيها للقضاء على الثائرين من سكان الاناضول

اجل ، كان يرى السلطان انه ينبغي ان يكون على اتصال دائم بلندن ، وان هذا الاتصال قد ينجم عنه الخير والفلاح .. ! او الويل والبلايا .. !

وكانت انكلترا في سبيل الاحتفاظ بصداقة رعاياها من المسلمين تسند السلطان وتحافظ على عرشه من قبيل المسايرة ، على ان تقبل البلاد نصوص معاهدة الصلح

وانقلب الحزب الوطني من جديد الى جماعة ثورية حملت على الحكومة حملة شعواء ، وجدد الحزب شبابه

وامام هذا كله لم يجد السلطان مفراً من التفكير في استئصال الوطنيين جميعاً استئصالاً تاماً !

اما البرلمان الذي لم يكن في الواقع موجوداً فقد انحل رسميا وعاد الداماد فريد باشا الى رئاسة الوزراء ، وهذه الوزارة لا ترضي فرنسا وايطاليا وقد كانت وزارته هذه من الرجال الموالين له واخذ يحكم البلاد حكماً تعسفياً بعد ان جمع السلطة كلها في يده ، مراعياً مصالح انكلترا ، محاولاً التودد اليها بشتى الطرق ، فكان انكليزياً اكثر من الانكليز

كان هذا الداماد من اصل ألباني ، يجري في عروقه الدم الكردي ، والسنوات التي قضاها في الحكم زادته عناداً على عناد ، ولم تزده حكمة او فطنة ! وهو في مظهره الخارجي لا يفرق شيئاً عن الجنتلمان الانكليزي ، ولكنه كان في الباطن لا يزال بدوياً يميل ميلاً شديداً للانتقام والاخذ بالثار

ولم يتردد وحيد الدين في ان يقذف الكماليين بصواعقه الملكية وبتحريض من جلالته افتى شيخ الاسلام بان كل الوطنيين من المغضوب عليهم . . ومن الضالين . . وانه قد طلب من العزة الالهية ان تنزل لعناتها عليهم ! . . وان على المؤمنين من عباد الله ان يشعلوا

الحرب على هؤلاء الثائرين العصاة ! وفي الوقت عينه صدرت ارادة سلطانية تؤيد هذه الفتوى « المقدسة » الحكم بالاعدام على مصطفى كمال ومن معه من الانصار !

وراجت هذه الاخبار في استنبول — عن تعمد وسابق تدبير — بان حكم الاعدام قد نفذ فعلاً في مصطفى كمال وانصاره !

وكان من الطبيعي ان تسمع ام مصطفى كمال ، التي كانت تقيم في العاصمة في ذلك الحين بهذا الخبر ، وكانت قد انقطعت الرسائل بينها وبينه مدة طويلة ، حتى خيل لها انهم قتلوه ، ولما كانت من المتدينات كان من الطبيعي ان تتألم اشد الألم للحكم على ابنها .. وفي السنة عينها فقدت بصرها .. تقريباً !

وسمع مصطفى كمال من احد الموظفين الذين يشتغلون في وزارة الحربية بهذه الاشاعة التي راجت في استنبول ، فاتخذ تدابير سريعة لمقابلتهم بالمثل ، فقبض على العدد الصغير من الضباط الانكليز الذين تُركوا في الاناضول للمراقبة ، وطلب من الحامية التركية مهاجمة الانكليز وحصار مدينة اسكيشهر التي كان فيها فصيلة انكليزية وكان الانكليز في انتظار حامية ايطالية مقبلة من قونية فهاجم الجنود الاتراك الانكليز وتمكنوا من محاصرة المدينة ، وتمكنت الحامية الايطالية من الوصول الى قونية ، ولكنها تعرضت لخسائر فادحة ثم اضطرت الى السير الى جهة الغرب والانضمام لليونان في ازمير

فتطهرت الاناضول الوسطى تطهيراً تاماً من جيوش الحلفاء ، ومن المراقبين الذين كانوا يتحكمون في كل شيء

و بعد ايام قليلة اصدر مصطفى كمال اعلاماً عن الانتخابات الجديدة باسم اللجنة النيابية ، وان البرلمان الجديد لن تكون له اية صلة بالمجلس القديم ، بل انه سيكون هيئة تشريعية قومية ذات سلطات خارقة وقد احدث نشر هذا الاعلام في الشرق عين التأثير الذي احدثته الثورة الفرنسية في اوربا ، عند ما عمد الوطنيون الى عقد المؤتمر القومي

وانتخبت انقرة لتكون مركزاً لعقد جلسات هذه اللجنة القومية

وان المساعدة التي قدمتها انكلترا على الرغم منها قد جاءت بنتائج ما كان يمكن لمصطفى كمال مطلقا ان يحصل عليها ، لو كان يعتمد على تايبد اتباعه ومساعدتهم فقط

٣٤

انقرة مهد الوطنية التركية

شاهد سكان انقرة في ربيع سنة ١٩٢٠ سيلا من المهاجرين يقبلون الى مدينتهم ، ولم يعلموا سبب قدومهم وكان من بينهم العدد الكبير من الضباط الذين قضوا عدة سنوات في باريس او في لندن كما كان من بينهم كبار الموظفين في الوزارة الذين تركوا استنبول للاقامة في انقرة .. هؤلاء الذين كانوا يعيشون عيشة الترف والنعيم في قصورهم الفخمة الواقعة على ضفاف البسفور ، كما جاء الى مدينتهم اساتذة من خيرة الاساتذة الذين تلقوا علومهم في الغرب، وتشربوا بمبادىء الحرية ، وبرعوا في الاقتباس عن الغربيين واقبل احد الصحافيين ومعه آلة للطباعة كاملة المعدات استطاع تهريبها على ظهور الجمال

ولم يكن من الطبيعي ان تتسع انقرة ذلك الاقليم الريفي لكل هذا الحشد العظيم ، وعلى الاخص لان النار الهائلة التي اندلعت فيها قد التهمت الشطر الاكبر من مبانيها ، ولكن هؤلاء ما كانوا لينتظروا ان يعيشوا في انقرة معيشتهم في استنبول ، فقنعوا بالحياة مهما كانت بسيطة لانهم كانوا يطمعون بشيء آخر غير الاستمتاع

بالرفاهية ، دفعتهم وطنيتهم لان يقيموا بعد العز والدلال ، في غرف مظلمة ضيقة وان يناموا على التراب ليخدموا بذلك القضية العظمى التي جاءوا من اجلها ، والتي في سبيلها يستعذبون حتى الموت والاستشهاد في سبيل الوطن

وكان مركز الحكومة في مدرسة قديمة قروية ، فاحتلها الوطنيون وعقدوا فيها جلسات المجلس القومي

واقام انصار مصطفى كمال في دور خشبية قديمة قدر لها ان تكون مساكن لوزراء الدولة ! ....

اما الصحافي الذي جاء مع مصطفى كمال ، فقد استأجر اسطبلاً وضع فيه مطبعته واخذ يصدر جريدته (حاكميت مليت) ويذيع اخبار الحركة الوطنية فيها ... وهي التى اصبحت اليوم لسان حال الجمهورية

وكان مصطفى كمال يقيم في غرفتين من غرف دار ناظر المحطة الملاصقة لادارة التلغراف !

وظل الوطنيون ثلاثة اعوام كاملة بمعزل عن العالم الخارجي في قلب الاناضول ، لا يجدون غير شظف العيش ، ولكن في خلال هذه المدة نبتت الوطنية وتغذت الروح القومية واصبحت الحياة في الاناضول اقوى منها في اي مكان من تركيا

اجل ، طبعت الروح القومية بالطابع الريفي ، هذه الحركة

التى نبتت في الاصل في ارض قاحلة وفي جو غير ملائم ...

وكان هؤلاء الثوار يرون في مصطفى كمال مثلا اعلى لهم ، يقتدون به ويأخذون عنه . وكان يتنقل بينهم في الثياب التى تلبس عادة وقت اللعب فكانوا يجارونه ويقلدونه في حماس واي حماس . اجل كانوا يظهرون مثله بمظهر الرجال الاقوياء اصحاب العزائم الصادقة والارادة الحديدية

وعرف مصطفى كيف يولد فيهم الميل للنظام ، والخضوع للقوانين ، هذه الاشياء التي كانت غريبة عن التركي ! اجل ، استطاع ان يطبع انقرة بطابع خاص وان يجعل سكانها يتنسمون هواء مشبعا بالطهر والنقاوة

وانعقد المؤتمر القومي في انقرة في الثالث والعشرين من نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٠ وكانت الانتخابات التي جرت مجرد حركات رسميات ، فكانت الحالة تحتم انتخاب الكماليين وحدهم دون سواهم ليكونوا نوابا عن هذه الامة

وقد تعمدوا ان تكون الجلسة الافتتاحية يوم الجمعة وهو بمثابة الاحد عند المسيحيين فبعد الصلاة في مسجد « الحاج بيرم » خرجوا يحملون الاعلام الى مكان الاجتماع فذبحوا على عتبة الباب كبشين

وجرت مثل هذه الحفلات الدينية في كل المساجد التي في الاناضول حتى المساجد التي في اصغر القرى

واصدر علماء الاناضول فتوى تناقض فتوى شيخ الاسلام ، فقالوا ان حكمه باطل طبقاً لنصوص القرآن الكريم ، لان شيخ الاسلام قد اصدر حكمه وفتواه تحت تأثير الضغط الاجنبي ! ..

٣٥

كيف تاسست الجمهورية التركية

اجل ، وضعت أسس الدولة التركية الجديدة في غرفة من غرف احدى المدارس الصغيرة

واسس الدولة هذه انما هي المعروفة في التاريخ بقرارات ايار ، والتي بموجبها تأسست الحكومة الموقتة وبقيت «الملكية» — بالاسم — مقدسة

وقد صرح مصطفى كمال ان كل التدابير التي ستتخذ لا يقصد منها غير الاحتفاظ بالخلافة ... والسلطنة ... وتحرير السلطان والبلاد من الرق الاجنبي . وانه لما كان السلطان اسيراً للدول الاجنبية التي تتحكم في العاصمة كما تريد ، فهو ليس بالملك الحر

ولا يتمتع بشيء من السيادة ، وعلى هذا فالمجلس القومي الاعلى هو الذي سيتولى موقتاً ادارة شؤون البلاد

اجل ، كان مصطفى كمال هو اول من حدث الناس عن الحكومة الموقتة التي تتمتع بالحكم الذاتي التام

وكان مصطفى كمال يعرف انه عند ما يصبح المجلس القومي اداة الحكم الوحيدة ، يكون مصير السلطان قد بات في يده وحده دون سواه

وقد كتب مصطفى في مذ كراته ما يلي :

« كانت مشكلة شكل الحكم في ذلك الحين صعبة ، وقبل ان اقترح وضع الحكومة الموقتة ، كان علي ان احسب حساباً للمجلس القومي ، والشعور الذي يبدو من جماعتي وانصاري ، وكان علي ان ارضخ لآرائهم وان اخفي اغراضي الحقيقية عنهم بحكم الضرورة »

والواقع ان مصطفى كمال قد استطاع اخفاء ميوله لدرجة ان افراداً قلائل هم الذين كانوا يظنون على وجه التخمين ، انهم قد وقفوا على هدفه الصحيح الذي يرمي اليه

وعند ما صرح له بعض اتباعه فيما بعد بانهم قد خدعوا ، ذكر لهم انهم لو كانوا قد انتبهوا قليلا لامكنهم ان يلاحظوا فوراً بان

قرارات ايار (مايو) كانت لا تعني شيئاً غير تأسيس الحكم الجمهوري

وتعينت لجنة تنفيذية عهد اليها ادارة شؤون البلاد ، و كانت تتألف من احد عشر وزيراً ، انتخبهم المجلس القومي الاعلى ، ولكن رئيس الجمهورية استطاع فيما بعد ان يضاعف من سلطته فكان هو الذي يعين هؤلاء الوزراء ، ولكنه لم يتمكن من توسيع سلطته الا بعد مضي عدة شهور ، فكان مصطفى كمال يريد ان يترأس كل شيء ... انتخب رئيساً للمجلس القومي ! ... وانتخب رئيساً للوزارة وان الجمع بين هاتين الرئاستين من النادر ان تجد له مثيلاً في التاريخ .

اجل ، كان مصطفى يجمع في يده بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ، وبمعنى آخر اصبح ديكتاتوراً في ثوب ديمو قراطي !

ولكن مصطفى على الرغم من ديكتاتوريته لم يحاول مطلقاً عدم تقدير نواب الامة ولم يقلل من اهميتهم . وكان يعتمد على البرلمان ولكنه في الوقت عينه كان يتحكم فيه ويسوده

كان يرفع من شأنه فيرتفع معه ، كان يقبل قراراته التي توافق الاغلبية عليها ، ولكنه كان يتدخل في المناقشات تدخلاً يجعل الاعضاء لا يقررون شيئاً ولا يجمعون على شيء ، الا اذا كان متمشياً مع رغباته ، ولا يتعارض مع ميوله

لهذا كان من هذه الناحية سياسياً عصرياً من السياسيين النادرين

ثم انضم الى الوزارة التي تكونت حديثاً احد رفقاء مصطفى الذي كان ينتظر ان يكون اكبر شخصية بعده وهو عصمت باشا ، هذا الكولونيل الشاب الذي كان حتى ذلك الحين يشتغل في استنبول لمصلحة القضية الوطنية ، اصبح الرئيس الاعلى للجيش بفضل الجهود التي بذلها مصطفى كمال · وكان هذا التعيين سبباً في غضب كبار القواد الذين كانوا قد اشتركوا في حركة مصطفى ، والذين كانوا يعدون من اتباعه المخلصين · ولكنهم رضخوا للكولونيل الشاب مرغمين ممتعضين · ولما وصل الى انقرة اخذ مصطفى يسنده و يؤازره فكان يقدر ميزاته الخارقة ، وكان يجد ما يبرر ترفيعه الى هذا المقام السامي

وكان عصمت من الافراد القلائل الذين كانوا يفهمون حقيقة اغراض مصطفى ومراميه ، وكان يتبعه اينما سار في اليسر والعسر ، ولم يكن يظهر له اي اعتراض او اقل مقاومة

واستطاع المؤتمر الوطني اتخاذ قرارات على اكبر جانب من الخطورة ، اهمها اعتبار كل الاتفاقيات والمعاهدات التجارية التي تمت بين حكومة استنبول والدول الاجنبية باطلة ملغاة

وان كل مصادر دخل الدولة حتى التي كانت ترد من املاك السلطان وعقاراته واوقافه ينبغي ان توضع تحت تصرف حكومة انقرة

وبمعنى آخر استطاعت انقرة ان تشل العاصمة ماليا ! . . . وان تؤسس محاكم ثوروية اطلق عليها « محاكم الاستقلال » كان يحاكم امامها من يتهمون بخيانة حكومة انقرة ، ولكن هذه المحاكم الاستثائية قد سلكت سلوكا معتدلاً ، ولم تصل الى الحد المخيف الذي وصلت اليه محاكم « شيكا » الروسية او « محاكم » الثورة الفرنسية

ولم يقنع السلطان وحيد الدين الداماد فريد باشا ، بالعقوبة التي اوقعها شيخ الاسلام على الجنرال الثائر واتباعه بتحريض منهما بل خيل اليهما ان الفرصة قد اصبحت سانحة للهجوم الفجائي على مركز الثورة ، ومحاولة اغراء الافراد الذين انخدعوا فانضموا الى مصطفى ، ليعودوا الى ولائهم القديم للسلطان

واتخذت كل التدابير للقضاء على الثوار في الاناضول ، فجمع السلطان اتباعه و كون منهم « جيش الخليفة » الذي كان يقوده الضباط الذين ظلوا موالين للسلطان ! وتقدم الجيش من العاصمة متجهاً الى جهة الشمال الغربي من آسيا الصغرى

وانضم الى هذا الجيش السلطاني مئات من المتطوعين ، تحت قيادة احد الشراكسة المخاطرين

واوفد السلطان بعض انصاره الى كردستان لاثارة القبائل في ذلك الاقليم ، واخذ يحرض الامة كلها على الدفاع عن « العرش » وعن « الخلافة »

وكان الولاء للباديشاه (السلطان) لا يزال مكيناً في القلوب لدرجة ان اوامر جلالته كانت تلاقى بالاحترام وعلى الاخص في مقاطعات معينة من الاناضول ، هذه المقاطعات التي ثارت في وجه حكومة انقره وكانت حملاتها قوية في بادىء الامر

ونجح جيش الخليفة في اسر فرقة كاملة من الفرق الكمالية

وقد وقعت الفتن في ولايات بعيدة عن بعضها بعداً عظيما ، حتى ان حكومة انقرة وجدت صعوبات جمة في التغلب عليها واخمادها ، وصد الجيش الامبراطوري عن التوغل

واستمرت المعارك طول شهر ايار ووصلت فرق المتطوعين في جيش السلطان الى اماكن قريبة من انقرة

وباتت حياة مصطفى كمال معلقة بخيط ! ... واصبح الناس حيارى لا يدرون ايكون الظفر اخيراً للحكم الملكي او للحكم الجمهوري ، ولكن الدول الاوربية المنتظرة هي التي جعلت كفة ترجح على الكفة الاخرى ، فوضعت حداً لهذه الفوضى المتفشية

اجل ، في اواخر الشهر المذكور اي بعد الهدنة بسنة ونصف سنة اذيعت شروط الصلح التي كانت قد امضيت في باريس ، فتبدل الجو تبديلاً تاماً ... كانت تعني هذه الشروط نهاية الامبراطورية العثمانية ... وتقسيمها على « الورثة » الاوربيين .... او تجزئتها كالنمسا وهنغاريا الى عدة ولايات مستقلة ، فتصبح تركيا دولة صغيرة

لا حياة فيها في داخل آسيا الصغرى ، تكون عاصمتها القديمة ومنفذها الوحيد على البحر تحت الحكم الدولي ! ···· وخفضت شروط الصلح من سيادة السلطان فجعلتها مجرد مظاهر لا معنى لها ؟ ··· وتصبح تركيا طبقاً لمعاهدة Tripartit التي وافقت عليها انكلترا وفرنسا وايطاليا ، والتي ظلت مكتومة عن بقية الدول من « مناطق النفوذ » للحلف الثلاثي : انكلترا : فرنسا : ايطاليا اجل ، كانت هذه المعاهدة ظفراً تاماً لاوربا وسحقاً تاماً لتركيا ! ···

٣٦

فتح القسطنطينية

اجل، لقد فازت اوربا فوزاً تاماً على الشرق ·· وعلى الاسلام ·· فحرمت الاتراك كل ثمار فتوحاتهم السالفة ، وتحررت الاقليات التي كانت تحت النير التركي ··· واضطر الاتراك انفسهم الى الانكماش في آسيا الصغرى ، وتقلصت الامبراطورية العثمانية الكبرى فاصبحت دولة صغيرة تتحكم الدول الاوربية فيها ! ·· واصبحت

بلاد العرب ، والارض المقدسة ٠٠ من الاراضي الواقعة تحت الحماية الاوربية ٠٠٠ واندثرت بقايا الامبراطورية العالمية الاسلامية واختفت !

وصرح لويد جورج ، وهو من الشخصيات التي لعبت ادواراً مهمة في طبخ المعاهدة التي امضيت في « سيفر » في مجلس العموم البريطاني بان غرض الحلفاء هو تحرير الامم غير التركية من النير التركي !

ولكن هذا الرأي لم يصادف هوى من رجال السياسة الانكليز جميعاً ، اذ كان بينهم امثال الكولونيل لورانس المشهور الذي صرح في ايار (مايو) سنة ١٩٢٠ حينما وضعت شروط الصلح بان الاتفاقية برمتها ، لا تخرج عن كونها ابرز دليل واقوى شاهد على جشع الفاتحين ، وان كل دولة من الدول لا تسعى الا لوضع يدها على اكبر جانب من الغنائم ، بينما لا تترك لغيرها من الدول الا اصغر حصة ممكنة . ثم قال عن شروط معاهدة سيفر : انها لن تعمر اطول من ثلاث سنوات ٠ والواقع ان هذه المعاهدة قد امضيت فعلا ولكن لم يعمل بمادة واحدة من موادها على الاطلاق !

ولوحت الدول بغصن الزيتون ٠٠٠٠ وتحدثت عن المدنة والصلح والسلام ! وجاء حديثها في انسب وقت يلائم مصطفى كمال بل كان هذا العمل من الحلفاء اعظم خدمة قدموها لتركيا ٠٠٠٠

اجل، كانت شروط الصلح التي عرضها الحلفاء اشبه بناقوس الخطر الذي يدق للتحذير ، فجعل الامة كلها تستفيق وتنتبه، وترى الدمار الذي كان ينتظرها والهوة السحيقة التي ستقع فيها

نعم ، امام هذه الحملة الاوربية التي لا اثر للشفقة فيها ، هذه الحملة التي تدل على منتهى القسوة والصرامة ، تجسمت الفكرة القوميةفي نفوس السواد الاكبر من الاتراك ، وشعر القروي الاناضولي الذي يقيم في ابعد منطقة واقصى ولاية بان كيانه في خطر ، وان الدهر مهما خبأ له في طياته فلن يحمل اليه شراً مما يحمل اليه الان . وان حياة تركيا لن تكون اسوأ مما بلغته !

وفي عبارة واحدة كانت البذرة التي غرسها مصطفى ، قد نمت . . وقلائل هم الذين كانوا لا ينظرون الى « باشا » انقرة انه عماد آمالهم ، وان على يدية ستنجو البلاد وتتخلص من الذل . . ومن الاحتقار . . . اذن فقد اصبح كل تركي تقريباً ، من صفوف الوطنيين ، ومن انصار مصطفى . . يا لفخار مصطفى . . ويالغبطته

اجل ، لم يبق غير السلطان وانصاره من الاتراك القدماء الرجعيين بمعزل عن مصطفى ينتظرون « الغوث » من الانكليز ولكنهم كانوا اشبه بالغريق الذي يعتمد على قشة ! . ان الاوربي لا يعرف غير القوي . وويل للمغلوب

واخذ التيار في الحرب الاهلية يتجه بسرعة في مصلحة انقرة ،

فان الفتن والثورات التي كانت تظهر بين حين وا خر في معظم انحاء تركيا قد انقطعت، ولم يعد يسمع احد بها اذا استثنينا الفتن التي كانت تقوم في كردستان . بل انه في اوائل حزيران سنة ١٩٢٠ هددت حكومة انقرة العاصمة ذاتها العاصمة التي كانت محتلة من الحلفاء ! . العاصمة التي كانت مخفورة باساطيل الدول العظمى ! . أليس هذا بالشيء المدهش ؟

وتسرب الخوف الى جنود الجيش السلطاني، وضعفت عزيمة الذين تشيعوا للسلطان وكان كل نصر « كمالي » يقابله انخذال « سلطاني » حتى استطاع الكماليون الانتصار على طول الخط ! .. تبددت قوات الامبراطورية وهرب الجنود ... والتجأوا الى الانكليز ! ... وتعساً لمن يلتمس مساعدة الاجنبي على مواطنه !. وزاد هذا العمل من حماس الكماليين فلم تتردد جيوش انقرة في الهجوم على الانكليز هجمات متكررة، كان الانكليز لا يردونها الا بمنتهى الصعوبة وبعد كثير من العناء

وفي الوقت عينه كانت بعض الفرق من المتطوعين، القوميين او الوطنيين، تتقدم صوب شواطىء بحر مرمرة فوصلت الى ساحل البسفور ... وكانت هنالك حاميات ضعيفة فقهرت بل صهرت . وذابت، ثم اطلق الجنود غير النظاميين النار على اساطيل الحلفاء ووصلت بعض رصاصات على ابنية السفارة النمسوية حيث كان يقيم

المندوب السامي البريطاني ! وظل يفرقع الرصاص بالقرب من البسفور ٤٨ ساعة كاملة : كان اشبه بتحية يقدمها الاناضول لسكان العاصمة ! وساد الاضطراب في بيرا . وهددت استمبول من الخلف بالجيش الذي كان يقوده الجنرال « جعفر طيار » الذي كان من اكبر انصار القوميين ، و بعد هجومه العنيف على استمبول سقطت و لم تعد تحتمل المقاومة

وحمل المندوب السامي امتعته واتخذ التدابير اللازمة للرحيل في اقصر وقت ممكن

لم يكن الجيش هو الذي هجم هذه الهجمة العنيفة بل فرقة من الجنود اللانظاميين الذين اشتهروا بالجرأة العجيبة، و بالميل للاقتحام بينما الجيش الوطني كان لا يزال بعيداً عن العاصمة وكان قد توزع بعض رجاله لاخماد الفتن الحديثة التي قامت .... ولم يكن بعد قد تأهب للهجوم ولكن بعدان رأى هذا النجاح المدهش الذي توصل اليه هؤلاء الابطال اصبح من الامور المقررة انه لا يمضي وقت طويل حتى يكون الجيش برمته قد وصل الى ابواب العاصمة ! ..

وظهر عدو جديد اخطر بكثير من مصطفى .. عدو يمقت الامبراطورية البريطانية و يعمل على هدمها .. الا وهو البلشفية !.

اجل ، كانت جيوش روسيا السوفيتية ، في شبه جزيرة القرم، قد صدت الجنرال رانجيل ، وكان آخر رجل يعقد الانكليز عليه

آمالهم وتمكنت هذه القوات من بلشفة كل الولايات التي في القوقاس واخترقت بلاد ايران واشعلت فيها الثورة ضد انكلترا ٠٠ وكانت نتيجة هذه الحملة البلشفية ان انهارت خطط اللورد كيرزون التي كانت ترمي الى جعل ايران وممالك القوقاس من مناطق النفوذ البريطاني وهذا لا يعني الا وضع الانكليز ايديهم على طريق بري الى الهند

واضطرت ايران وبلاد القوقاس الى الاستسلام ولم يبق في بلاد الاناضول جندي انكليزي واحد

وراجت اشاعة بان المفاوضات قد بدأت بين انقرة وموسكو ٠٠ وان الطريق الى الجنوب عن طريق الاناضول ٠٠ وبلاد ايران اصبح مفتوحا في وجوه البلاشفة

والقلاقل مستمرة في الهند ٠٠ والفتنة ناشبة في مصر ٠٠ والجيش الانكليزي الصغير الذي احتفظوا به بعد صرف الجنود منهمك بقمع الفتنة في ارلندا والامة الانكليزية تأبى تعبئة الجيوش من جديد للحملة على الشرق ٠٠ ولم تكن الحالة في « باريس » بافضل منها في « لندن » فان الضغط على الفرنسيين كان شديداً جداً في كيليكية فانهم اضطروا الى عقد معاهدة موقتة مع انقرة وكانت اول معاهدة عقدت بين « دولة كبري » وثوار من سكان الاناضول

كما ان الانتداب الفرنسي على سوريا بات مصدر اتعاب خطيرة للفرنسيين وفضلاً عن هذا كان الفرنسيون يلاقون الصعوبات في افريقيا . . وعلى ضفاف الرين . . هذه الصعوبات تتطلب جهوداً . . ومالا . . ووقعت الوزارات الفرنسية في حيرة شديدة وكانت تنتظر معونة الدول !

وصرح فنزيلوس بانه على استعداد لان يقاوم مقام الخنجر في ايدي الحلفاء وانه لا يطلب غير تعويض ضئيل على خدماته التي سيؤديها . . اجل . . طلب فقط . . « شرحات » صغيرة من الاراضي المهمة تضاف للاملاك الاناضولية

واعدت العدة في مؤتمر عقد في Hgthe حضره الفيلد مرشال فوش و كان الاسطول الانكليزي سيعضد الجيش اليوناني ويسنده

وطلب رئيس الجمهورية الفرنسي « ميليران » القيام بهذه الحملة في اقرب وقت ممكن حتى يرتاح الجيش الفرنسي في كيليكية من الضغط الذي كان يشعر به

واجتمعت القوات البحرية الانكليزية التي في البحر الابيض المتوسط في قرن الذهب

وفي الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) سنة ١٩٢٠ هجمت الجيوش اليونانية تحت قيادة الجنرال كاراسكوبولوس على ازمير

ولما احست انقرة بهذا الخطر ، قوت الجبهة الغربية على قدر

استطاعتها ، وكان علي فؤاد باشا هو الذي يقود الجيوش ، ولكن الشطر الاكبر من الجنود في الشرق على مسافة ستمائة ميل ولهذا لم يكن بالامكان الانتفاع به ، وفضلاً عن هذا فان تنظيم القوات الوطنية — كما كانت تسمى رسمياً — كان ابعد ما يكون عن الكمال واستطاعوا جمع المعدات والذخيرة بشتى الوسائل ولكنها كانت لا تكاد تكفي

نعم ، كان الجيش التركي الذي لاقى الجيش اليوناني غريباً الى ابعد حدود الغرابة .. ولم يكن يختلف كثيراً عن مثيله في الثورة الفرنسية . اجل، كان الجنود الاتراك في حالة رثة لا يجدون الاحذية التي تحمي ارجلهم وكانت ثيابهم بالية ممزقة اما سلاحهم فلم يكن غير بنادق قديمة ... وكان من بينهم بعض الذين فروا من السجون من مجرمين وقطاع طرق ! ولصوص ! .. هؤلاء الذين وجدوا في القتال فرصة طيبة يمكنهم استغلالها لسلب الاموال والغنائم فترا كضوا طائعين وانضموا الى المقاتلين جذلين

وكان الجيش اليوناني من الناحية الاخرى لا يتفوق على الفرق التركية في العدد فحسب ، بل كان كامل العدة، مجهزاً على الطراز الحديث بالمعدات الحربية التي جاءت من انكلترا وفرنسا ، وكان ضباط الجيش اليوناني قد تلقوا الدروس الحربية والتعليمات المفيدة من الضباط الانكليز والفرنسيين

اما الفرق الوطنية التركية فكانت ابعد ما يكون عن النظام... كانت اشبه بالثوب المرقع، وكان الامل في انتصارها جد ضعيف

وكان على فؤاد باشا الشخص الوحيد الذي اظهر شيئاً من الجرأة فقاد الفرق القليلة العدد لصيانة خطوط السكك الحديدية الرئيسية

وتقدم الجيش اليوناني وهاجم الفرق الوطنية هجوماً عنيفاً فتراجع الوطنيون الى حدود استنبول وسقط العدد الاكبر منهم في ايدي الاعداء ! ... وكان من بين الاسرى الجنرال جعفر طيار باشا ! ...

واستولى اليونان في الاناضول على بروسه، واحتلت القوات الانكليزية الساحل الشمالي الغربي من بحر مرمره فالتقت باليونانيين وانهزمت القوات الوطنية في المعركة الاولى انهزاماً كلياً

وكان الناس يرون ان مصطفى كمال اراد بلف العالم كله وتخويف الاعداء بجيش هو اشبه شيء بالمفزعة التي يستعان بها على تخوف الطيور والحيوانات !

٣٧
استامبول الجانية

كان اعضاء المؤتمر القومي يتلقون هذه الاخبار المحزنة بالسخط والحزن

وطلب بعض الاعضاء في هياج وصخب ايقاع عقوبة القتل على القادة الذين جروا البلاد الى هذا المصير المشؤوم ومحاكمتهم امام محكمة خاصة . اجل كانوا يريدون ان يعيدوا ما فعله الفرنسيون في ايام الثورة من قطع رؤوس القواد الذين هزموا بالمقصلة

ولكن السواد الاكبر من الاعضاء استهجنوا هذه الفكرة الجريئة لانهم كانوا على يقين انهم اذا عمدوا الى الارهاب فلا بد من انقسام الصفوف وفي هذا الطامة الكبرى والبلية العظمى ، نعم كان الانقسام الجديد في معسكر الوطنيين يوقع البلاد في الخراب الاكيد !

اجل كانوا يعلمون ان لفؤاد باشا وبكير سامي بك عشرات الانصار في المجلس القومي ، وهما من بين المسئولين الذين يستحقون الاعدام . والاهم من هذا ان المسئولية الكبرى واقعة على مصطفى كمال ذاته فكيف يمكنهم اعدامه ؟

ووقف مصطفى كمال واخذ يدافع عن نفسه وعن القواد واستطاع بشق الانفس ان يهدئ الاعصاب الثائرة مستعيناً بفصاحته وحسن بيانه ، على تحويل تيار الغضب والسخط عن مجراه وجعله ينصب على رأس حكومة استمبول ... بلى ، نجح مصطفى كمال في جعل هؤلاء الاتراك يعتقدون ان حكومة استمبول هي وحدها الملومة ، وهي وحدها التي اوقعت البلاد في الخراب بتصرفاتها الخرقاء ! وان كفاح الجيوش الوطنية كفاحاً طويلاً مرهقاً مع جيش الخليفة ومحاولة اخماد الفتن والثورات هو الذي انهك جيوشهم الوطنية واضعفها ، وان هذه الجيوش الوطنية قد اصطدمت بالجيوش اليونانية قبل ان تستريح وقبل ان تسترد قوتها ، وان السلطان هو وحده الذي تقع عليه تبعة هذه الهزيمة . اما القواد فهم ابرياء .. وانهم قد بذلوا جهود الجبابرة ولكن ماذا تفعل جهود الجبابرة هذه ومعدات الجيش ناقصة وضئيلة ؟

واقنع مصطفى كمال علي فوأد باشا بترك القيادة بمحض ارادته وارسله الى موسكو في مهمة ! . وحل عصمت باشا مكانه فاصبح هو القائد العام في الجبهة الغربية . اما بكير سامي بك الذي اظهر انه ليس بالقائد الحربي القدير فقد اعطيت له وظيفة في « ديوان الوزارة »

وفي الوقت عينه كانت نتيجة فشل الجيش الفظيع ان الحزب

المعتدل في المجلس القومي الاعلى قد هدد بانه سيعمد الى جمع السلطة كلها في يده ، وكان يرى هؤلاء المعتلون بعد ان استسلموا لليأس انه من العبث استمرار المقاومة واعترضوا على بقاء الحكم الثنائي وأخذ كثير من الاعضاء يعرضون فكرة الرضوخ لاستمبول ، وفتح باب المفاوضات من جديد فقد يكون نتيجة هذه المفاوضات الجديدة تخفيف شروط الصلح القاسية

ولكن مصطفى كمال صمم على الثبات للنهاية حتى يتحقق الهدف الذي يرمي اليه وهو « تحرير البلاد » ! .. اجل « تحرير تركيا » .. لم يكن يرغب اكثر من هذا ولا اقل منه !

وكان مصطفى كمال يتألم من حالة اليأس المتفشية في البلاد ويرى ان يعمد قبل كل شيء الى طرد هذا اليأس وتخليص الاتراك من التمادي في التشاؤم .. لا عن طريق الخطب الملتهبة النارية الوطنية .. بل في هذه المرة عن طريق الاعمال .. الاعمال لا الاقوال وكانت الظروف كلها ملائمة لان يبدأ العمل الجدي

كانت جمهورية « اريفان » الارمنية قد تكونت واتخذت مدينة « قارص » عاصمة لها وكانت هذه الجمهورية الارمنية المستقلة نواة الدولة الارمنية الكبرى التي يحلم الارمن بتكوينها في المستقبل طبقاً لمواد معاهدة سيفر ، هذه الدولة الارمنية التي كان يحلم الارمن بانها ستمتد حتى تشتمل على كل تركيا الشرقية من باطوم الى

طرابزون على البحر الاسود مارة بقارص وارضروم ممتدة الى حدود ايران

ولكن بريطانيا العظمى — الملاك الحارس — قد اجبرت على ترك هذه الخطط التي تعد تعديا على بلاد ايران والقوقاس ، وسحبت جيوشها من هذه الاقاليم .. ثم عادت فسحبتها من باطوم ذاتها .. وهنا وجد الارمن انهم قد اصبحوا لا يعتمدون الا على مواردهم وانهم اصبحوا بين نارين : الجيوش الوطنية التركية من جانب والبلاشفة الروس من الجانب الآخر ، وان كل ما تبقى لهم من الاحلام قصاصات اوراق عليها وعود !.... وما اغلاها ! وعود من بريطانيا العظمى على ان تصون هذه البلاد وتتعهدها بحمايتها .... هذه الوعود التي كان الارمن يعتمدون عليها ويبنون عليها القصور اكثر مما يعتمدون على انفسهم وعلى جهودهم

وانقضت سنة كاملة شاهدت فيها منطقة ارضروم وما يحيط بها مناوشات لم تنقطع ... مناوشات اطلق فيها الارمن والاتراك لانفسهم العنان فتجلت عداوتهم التقليدية لبعضهم في اجلى مظاهرها وابشع اشكالها ...

وقد عمد الارمن الى ذبح عدد من الاتراك فكانت نتيجة تلك المذبحة ان اعلنت حكومة انقرة الحرب على الجمهورية الارمنية ووكلت الى كاظم قره بكير باشا في ارضروم ... هذا الرجل المخلص

الامين القوي الثابت .... امر تنظيم الحملة ... وتقدم هذا القائد فقهر الارمن وهزمهم هزيمة منكرة .... الارمن الذين ما كانوا يوماً ما اهل حرب وقتال والذين اشتهروا بالتجارة اكثر مما اشتهروا بالظفر في المعارك الحربية

واستولى على عاصمتهم قارص فاضطرت جمهوريتهم الى قبول الصلح الذي قضى قضاءً تاماً على حلمهم ... وهو تأسيس الدولة الارمنية العظمى

وكان هذا الصلح المعروف بصلح اومربلي اول اعتداء صارخ على معاهدة سيروس

وكان على ارمينيا ان تترك للاتراك كل الاراضي الممتدة بين قارص وباطوم وان تكتفي على الرغم منها بالولاية الصغيرة ارفان ولم يمض وقت طويل حتى كانت الثورة البلشفية قد ضمت هذه الجمهورية الى ولايات الاتحاد السوفيتي

ثانياً — صان حكومة انقرة من اي هجوم كان من الممكن ان تباغت به من الوراء

ثالثاً — اوجد الصلات الفجائية بين روسيا وتركيا

اجل ، وجدت تركيا وروسيا انهما محرومتان من الانضمام لعصبة الامم الاوربية ، فكان هذا الحرمان المشترك سبباً في تقوية العلاقات بينهما

وما دام ان انكلترا محتلة للدردنيل ، وما دام انها تتحكم في البحر الاسود كما تريد ، فان كيان الدولة السوفيتية التي لا تزال في مهدها في خطر مستمر

وعلى هذا فقد اقتنع ساسة موسكو وايقنوا انهم عندما يسندون حكومة انقرة انما يدافعون عن مصالحهم الذاتية طالما ان الميثاق القومي الكمالي لا يتنازل عن استمبول والبوغازات ولا يرضى عنها بديلا

وتنازعت حكومة انقرة نزاعا سطحياً مع روسيا بسبب باطوم التي تعد ميناء مهمة من موانئ التصدير على البحر الاسود ولكن سرعان ما ساد الوئام بينهما وان كانت روسيا قد احتفظت بباطوم الا انها اعترفت بمعاهدة اوم يلي واستردت حكومة انقرة الاملاك العثمانية الواقعة على الحدود القوقاسية التي فقدتها في الحرب التي قامت بينها وبين روسيا في سنة ١٨٧٧

ان هذا النجاح الذي جاء في الوقت المناسب كان له ثلاث نتائج على اكبر جانب من الاهمية

اولاً — انعش الاتراك الذين كانوا قد استسلموا لليأس وبعث الحياة فيهم وجدد قواهم ، ودفعهم لان يصمموا على الاستمرار في المقاومة

ومن الناحية الاخرى كانت روسيا ذات قيمة لا تقدر لتركيا اجل كانت تنتظر تركيا من روسيا مساعدة مادية عظمى ، ومساعدة

ادبية عظمى

وانّنا نقول على وجه التأكيد وبصورة قاطعة انه لولا صداقة مصطفى كمال لموسكو لما استطاع تحقيق الهدف الذي كان يرمي اليه ، اجل ، كانت روسيا الرأسمال الذي يمكن ان يأتي له بفائدة فاحشة

وحدث بعد ان انتهى النزاع على الحدود ان امضيت محالفة هجوم ودفاع بين انقرة وموسكو ، اقتران ثوروي بين « القومية » و « الشيوعية » ، ووجدت البروباغند الروسية في انقرة ارضاً خصيبة فنمت وتأصلت واخذت الاموال البلشفية تنصب الى الخزائن التركية بصورة دائمة ، وكانت ترد الاسلحة والذخيرة الروسية بوفرة الى تركيا ، اجل سند البلاشفة الاتراك ولكنهم في الوقت عينه عرضوهم للتجربة ! ، وكان القصد من هذا التحالف صيانة السوفيت اولاً ونشر الدعاية البلشفية ثانيا

ولكن مصطفى كمال استطاع بدهائه السياسي المنقطع النظير ، وشعوذته في بعض الظروف ، ان ينتفع من موسكو دون ان يتأثر من البلشفية او ينخدع بمذهبها المموه بالذهب الذي يبهر العيون ، اجل كان في الوقت الذي يتقبل فيه المساعدة الروسية المالية والادبية يسعى جهده لان يجعل الدعاية البلشفية اضعف ما يمكن بل عديمة الاثر

والواقع ان انقرة استقبلت الصداقة الروسية االجديدة بالحماس الشديد في بادىء الامر سواء أكان هذا الحماس حقيقيا خالصاً او ملفقاً كاذباً ، واخذ كثير من الاتراك يرون ان الامل الوحيد في نجاحهم انما هو عن طريق ارتمائهم في احضان الجبار الروسي ، حامي الحرية كما كانوا يتوهمون ، بل اخذ التركى ينادى التركي بكلمة « توفارش » ومعناها « رفيق » وتالفت جمعية شيوعية كان من بين اعضائها بعض اعيان المجلس القومي وكان كبار قادتها ثلاثة اخوة من افراد اسرة ادهم ، ومن اصل شركسى وكان احد هؤلاء الثلاثة من كبار اللصوص والثاني من اعضاء الحزب القومي ، وقد حاولوا اشعال نيران الثورة البلشفية في تركيا ولكن مصطفى كمال استطاع بحذقه ان يثبت مخالفتهم الصريحة لقوانين البلاد وكان يفكر في معاقبتهم فهربوا وانضموا الى اليونانيين وحاربوا في جانبهم !

٣٨

الغنائم

واخذت القرى والمدن تقدم للجيوش الوطنية الحيوانات للذبح وللنقل وما تستطيع تقديمه من المساعدات الاخرى كما ان روسيا من جانبها لم تتأخر عن مد يد المساعدة للاتراك فكانت ترسل لتركيا الثائرة الكميات الهائلة من الاحذية والاسلحة والذخيرة ، كانت تهربها فتمر في خطوط الحلفاء الحربية دون ان ترى ، واصبح الاناضول كله اشبه بمصنع ضخم ، واخذ كل اناضولي يشعر بان مصطفى كمال ساهر على مصلحة البلاد وانه يترقب الامور بنفسه

ووجد السلطان انه بات لا يستطيع تنفيذ القوانين التي يصدرها لانها كانت تفتقر للقوة التي تسندها ... وانقلبت الفرق التي ارسلها الى آسيا الصغرى الى «كمالية» .... واضطر السلطان بحكم هذه الظروف الى طلب التوفيق بينه وبين مصطفى

واختفى الداماد فريد باشا وعين الكهل فريد باشا رئيساً للوزارة ... وانضم الى وزارته «صالح باشا» الذي عين وزيراً للشئون البحرية وكان على اتصال بالوطنيين كما انضم الى وزارة صالح باشا عزت باشا الذي كان كالجسر بين الاحزاب المتنافرة

وكان لا يزال الاتراك يعتقدون انهم اذا عمدوا الى اللطف فانهم يقضون على هذه الفوضى الناجمة من وجود حكومة في استمبول وحكومة في انقرة

وكان كل من صالح باشا وعزت باشا يريان بان التوفيق لا يزال بالامكان فقصدا آسيا الصغرى قصد التوفيق بين جلالة السلطان ومصطفى الثائر والتقيا بهذا الثائر في بيله ديك وهي قريبة من اسكيشهر ولكن مصطفى كمال ابى صرف الوقت في مفاوضات غير مجدية وامرهما بالعودة فوراً وتبليغ السلطان بانه لن يقبل الخضوع لجلالته الا اذا اعترف بالحكومة القومية التي في انقرة وألغى في الوقت عينه حكومة استمبول ! وبمعنى اخر اراد مصطفى كمال ان يقول انه لن يرضخ للسلطان قبل رضوخ جلالته له ! ... ولحكومته ! ... في انقرة

وظل السلطان وحيد الدين يقاسي في قصره آلاماً كثيرة اخذت تتناقص قوته شيئاً فشيئاً

وكان قد بلغ العقد السادس فاستسلم للراحة ... وللملاذ الحريم ... واضاف فاتنة شابة الى الحريم تسمى « نيفساد » وكانت لا تزال في ريعان الشباب وكان والدها بستانياً يعمل في حدائق قصوره ! وخصص جلالته لهذه المحظية الجديدة قصراً اشرف بنفسه على بنائه واختار مكانه بقرب قصوره العديدة وكان يجد

متسعاً من الوقت للاستمتاع بهذه الغادة و بغيرها من فاتنات القصر العديدات

وكان الانكليز يحنون عليه فيمدونه احياناً بالمال بعد ان نضبت خزينة الدولة و بعد ان فرغت جيوب جلالته فلم يكن يجد فيها البارة الواحدة

****

وخابت آمال الحلفاء وضاعت امانيهم واحلامهم ، ففرنسا لم تنظر مطلقاً بعين الارتياح لمعاهدة سيفر وكانت قد وافقت على هذه المعاهدة كارهة لانها قد وجدت ان الميراث العثماني اصبح من حظ حليفتها انكلترا وفازت منه بحصة الاسد

واخيراً اضطرت ان تقنع على الرغم منها بسوريا، وكيليكيا التي كانت لا تزال تعد هبة فيها نظر . واما النفوذ الفرنسي الذي كانت تتمتع فرنسا به منذ ازمنة عريقة في القدم ، في الشرق الادنى فقد انتزعه الاسد البريطاني واحتفظ به لنفسه النهمة مستعينا باليونان التي كانت في يد انكلترا كالخنجر تطعن به يمينا وشمالاً

وكانت لا تزال فرنسا تؤمل من اصدقائها الانكليز انهم بعد موافقتهم على خطط فرنسا على حدود الرين سيتقدمون الى اجراء تعديل في المساومة الظالمة التي تمت في معاهدة سيفر ولكن سادة

لندن قد سدوا آذانهم بسدادات محكمة ، فلم يسمعوا شيئاً من هذه الرطانة الفرنسية

وهنا ينقلب الوداد الى بغض والحب الى نفور فتتوتر العلاقات بين الانكليز والفرنسيين توتراً ظاهراً ويأخذ الرأي العام في باريس يعطف فجأة على انقرة وامانيها الوطنية بل يدافع الفرنسيون عن مطالبها دفاعا حارا حماسيا .. اذن فقد عاد العطف الفرنسي القديم على تركيا !

وكان استبسال الجيوش الوطنية والشجاعة التي ابداها الاتراك البواسل في مقدمة العوامل التي حركت القلوب الوطنية في فرنسا !

وبعد ان كان الشعب الفرنسي يطلب من هذا الشعب المقهور ان يعمد الى الهدوء ، ويقبل هذا المصير اخذ الكتاب الفرنسيون ينتصرون للقضية الوطنية التركية العادلة ويقولون انها ينبغي ان تعالج معالجة تشف عن تقدير لهذه الاماني والا فسيعمد الاتراك لليأس والقنوط

وكان في مقدمة الذين انتصروا للقضية التركية الوطنية (بيير لوتي) صديق الشرق الرومانتيكي الذي كان اول من رفع صوته ولكنه لم يجد شيئاً كثيراً ليقوله في مديح الاتراك وعلى الاخص وهو يرى ان الشعب الفرنسي كان يعامل (الى عهد قريب) الاتراك معاملتهم للاسيويين المتوحشين ! ... ويلصقون بهم كل

جريمة ! ... ويرون انه من العار على اوربا ان تسمح لهم بان يتحكموا في المسيحيين !

وكانت ايطاليا من الناحية الاخرى قد ابتليت اكثر مما ابتليت فرنسا وكانت مصيبتها اعظم وافدح فكانت لا توافق مطلقاً على السيادة اليونانية في البحر الابيض المتوسط وعلى الاخص لان توسع اليونان في آسيا الصغرى ، هذه الاراضي التي منحت لفنزيلوس تقديراً للمساعدة التي اداها للحلفاء في الحرب لم تكن في الواقع الا على حساب « منطقة النفوذ الايطالي » !

والحقيقة ان الجيوش اليونانية لم تتأخر عن التوغل الا حرصاً على العلاقات الانكليزية الفرنسية وتهدئة لاعصاب ايطاليا الثائرة

وفضلاً عن هذا فقد حدثت ازمة سياسية لم تكن منتظرة ، كانت هبة من الآلهة لا يحلم بها سكان انقرة . وتفصيل ذلك كما يلي :

حدث في ابان الحرب العالمية ان فنزيلوس — بمساعدة دول التحالف الصغير — قد تمكن من طرد الملك قسطنطين ، واجلاس ابنه الكسندر مكانه على العرش فاستطاع بذلك حكم البلاد حكما ديكتاتوريا ، والتصرف في شؤونها تصرفا مطلقا

ولكن بعد ان امضيت معاهدة « سيفر » كان على الامة اليونانية ان تلبس الثورة التي قامت بها البلاد في خلال الحرب ثوبا

قانونيا وبمعنى اوضح كان عليها ان تعرض هذه القضية على الامة للتصويت الحر بعد ان نجح فنزيلوس في احداث ذلك الانقلاب معتمداً على القوة

وجرت الانتخابات واخذ انصار الملك قسطنطين يدافعون عن مليكهم دفاعا قويا ولكن كان الامل في نجاحهم جد ضعيف

وعاد فنزيلوس الى وطنه الاصلي بعد غياب طويل واستقبل استقبال الملوك وكان الحماس الذي بدا في يوم استقباله عديم المثيل في بلاد اليونان .. اجل ، هتف له الشعب مراراً :

فليعش فنزيلوس ابو الوطن ! .. فليعش ابو الوطن فنزيلوس! ..

وحدث ان وضع فنزيلوس تاجا من الذهب على الملك الكسندر في حفلة شعبية باهرة ثم عض الملك الشاب قرد وبعد ايام قليلة توفي الملك وكان دمه قد تسمم فقدم فنزيلوس التاج للبرنس بول الابن الثاني للملك قسطنطين ولكنه ابى قبوله قائلاً ان والده هو الرجل الوحيد الذي له الحق الشرعي في الملك دون سواه !

وانهزم حزب فنزيلوس انهزاما تاما لان الشعب كان يحب الملك قسطنطين وامام هذا الفشل لم يجد فنزيلوس مفراً من السفر للخارج واستدعى الشعب قسطنطين فجاء مهرولا ! ..

وهنا اخذت الصحافة البار يسية تحمل الحملات القاسية على اليونانيين وتتهمهم بالجحود لانهم قد غدروا بفنزيلوس وكان الفرنسيون

يمقتون قسطنطين مقتاً شديداً لانه تجرأ وعطف على الالمانيين في الحرب العالمية ولكن كان لهذا الانقلاب اثره فان فرنسا قد اخذت تبدل سياستها في الشرق

وفي الوقت نفسه كان الشعب الاميركي قد اعرض عن سياسة ويلسون ، واظهر مقاومته لها جلية في انتخابات الرئاسة — رئاسة الجمهورية — هذه الانتخابات التي دلت بوضوح على ان الاميركيين يودون الابتعاد ما امكن عن مشاكل اوربا والشرق الادنى

وفي نهاية سنة ١٩٢٠ كانت شؤون الحلفاء في الشرق قد تحرجت الى الحد الاقصى

وانتشرت في العالم الشرقي بعد اسابيع قليلة من تتويج الملك قسطنطين وجلوسه على العرش بفضل ولاء رعيته واخلاصهم ومحبتهم له ، وبعد دخوله آثينا واستقباله استقبالاً لا يقل فخامة وروعة عن استقبال اليونانيين لفنزيلوس . اجل ، هتف له الشعب اليوم كما هتفوا لفنزيلوس بالامس : فليعش الملك قسطنطين ! .. فليعش « ابو الوطن » ! ... انتشرت — اشاعة ! ... اما الاشاعة هذه فكانت ما يلي :

صمم المجلس الاعلى الذي يمثل دول التحالف الصغير على عقد مؤتمر في لندن يحضره بعض نواب من اليونان وتركيا والغرض من هذا المؤتمر البحث في حل للمعضلة الشرقية

وهذا لا يعني في اللغة الدبلوماتيكية شيئاً اكثر او اقل من اعادة النظر في شروط الصلح التي اعلنت الدول الظافرة انها طاهرة لا تمس ! .. وانها مقدسة لا يمكن ان تنقض او يعتدى عليها ! .. وكان يعني عقد المؤتمر ان معاهدة «سيفر» ستكون موضع نقاش وبحث .. قبل ان يكون لها اي تأثير ، بل قبل ان يعمل بها على الاطلاق ! ..

ولكن هذا الخبر على غرابته لم يكن شيئاً بجانب الخبر الذي فاقه غرابة وهو انه فضلا عن حضور الوفد الذي سيمثل الحكومة العثمانية في ذلك المؤتمر فمصطفى كمال او معتمده سيكون في مقدمة الذين يحضرون هذا المؤتمر وان الحلفاء هم الذين وضعوا هذا الشرط وبينوا ضرورة العمل به بوضوح وجلاء ! ..

والواقع ان مصطفى كمال كان قد بدأ يضايق الانكليز والفرنسيين ويوقعهم في ظروف حرجة معقدة فكان الناس لا يدرون ماذا يجري وراء الستار في الجبهة اليونانية الانكليزية في اسيا الداخلية

وكان التحالف بين تركيا وموسكو قد ألقى الرعب في قلوب الدول الاوربية وكان نجاح مصطفى كمال في الوصول الى هذا التحالف اكبر دليل على ان المقتحم المستميت ، والمتهور الحربي ، والفخور المتباهي بنفسه ، قد انقلب سياسياً من الطبقة الاولى وانه تمكن من احداث ثورة في البلاد كما انه نجح في جعل نفسه سيداً

على تركيا كلها قبل ان يجعل احداً يشنبه في الامر او يقف في سبيله

ووجد الاوربيون ان جيش هذا المغتصب الذي حقق عنوة كل ما يريد ليس ضئيل الاهمية كما كانوا يميلون الى الاعتقاد ، وانه قد اثبت مقدرة واهلية

وتقدم اليونانيون من « بروصه » للهجوم على « اسكيشهر » والاستيلاء عليها لاهميتها كملتقى للخطوط الحديدية ولكن عصمة باشا استطاع صد هذه الهجمة واجبر اليونانيين على التقهقر مخذولين مقهورين

وقد تباهى الاتراك بعد نجاحهم هذا على اعدائهم فاطلقوا على هذه المعركة اسم (الظفر العظيم) .. وكانوا من الوجهة النفسية على حق في هذه التسمية

ووجد الحلفاء ان « الخنجر » — اليونان — قد اصبح اداة حربية غير مرضية وانه سيثقب التحالف الصغير ويوجد ثغرة به من الممكن ان تتسع فتصبح دمل خطر

ونشطت كل من فرنسا وايطاليا في مقاومة كل فكرة ترمي الى اعادة مجد مملكة اليونان القديمة تحت جناحي بريطانيا العظمى

٣٨
المجلس القومي الاعلى

واصبحت المسألة الشرقية كابوسا مفزعا ينبغي ان تعمل الدول على التخلص منه كما انها رأت انه لا يمكنها وضع يدها على « باشا انقرة » باستعمال القوة والعنف معه بل ينبغي دعوته الى المؤتمر وايقاعه في الشرك بالطرق الدبلوماسية وان هذا الجنرال الثائر لا بد ان يذعن ويصبح سهل الانقياد بعد ان تغمره الدول العظمى بكل هذا الفخار باستدعائه للمفاوضة ، وان الامر لا يحتاج الا الى تعديل طفيف في معاهدة « سيفر » يحل هذه المعضلة ويريح الدول راحة تامة !

اما حكومة السلطان وحيد الدين فقد ارادت ان تتخذ دعوة مصطفى كمال الى لندن وسيلة لمحاولة استرضاء انقرة ومسالمتها .

وكان توفيق باشا رئيسا للوزارة في ذلك الحين ، وهو من الرجال الطاعنين في السن وممن يرغبون في الوفاق فتقدم من مصطفى كمال يحمل اليه دعوة الدول الاوربية له لحضور مؤتمر لندن وقال انه باسم الدولة التركية ولمصلحة الامبراطورية العثمانية يطلب ان تتقدم الوفود التركية الى هذا المؤتمر جبهة واحدة قوية متحدة وان يكون البرنامج الذي يعرضه الاتراك برنامجاً واحداً يدل على تكاتف

الامة كلها واتحادها لا على تنابذها وانشقاقها وانه قد حان الوقت الذي ينبغي ان يظهر فيه الاتفاق بين صفوف الامة وطبقاتها كلها اكثر من اي وقت آخر واخذ يتوسل اليه ان يضع حداً للانشقاق الذي تئن الامة منه وينبغي الا يعرض عن يد السلطان الممتدة اليه تطلب مصادقته ومرضاته كما يطلب الاخ من اخيه

اما مصطفى كمال فشكر محدثه على هذا الكلام الرقيق ثم قال :

ان المجلس القومي وحده في انقرة هو الذي يتمتع بالسيادة الدستورية وهو وحده صاحب النفوذ والحكم في البلاد وكان ينبغي ان ترسل الدول الدعوة عن طريق هذا المجلس وانه يريد ان يكون على وفاق مع السلطان وان السبيل الوحيد لهذا الوفاق ان تقبل استمبول الشروط التي عرضتها عليها انقرة . وان كل ما ننتظره من السلطان ان يعترف بصورة رسمية ، في قرار قصير ، بالمجلس القومي في انقرة ، هذا المجلس القومي الذي وضع في اول مادة من مواده « عدم المساس بالسلطنة .. وقدسية الخلافة » !

وان حكومة انقرة لا تستطيع ان تتصرف من جانبها الا طبقاً لاحكام وقرارات النواب الوطنيين وليست في مركز يساعدها على التصرف بشكل آخر غير هذا الشكل !

ثم اضاف :

وان القوانين الجديدة التي سنت تجعل من العبث الاستمرار في المناقشة

وهنا اعترض رئيس الوزراء قائلاً : وماذا تفعل لو رفض السلطان هذا الاقتراح ؟

ولاول مرة يفصح مصطفى كمال عن هدفه النهائي فيقول جاداً :

يعرض عرشه للضياع ! ونعلن فوراً انه وحده يتحمل مسئولية على اكبر جانب من الخطورة !

ومن هذا ترى ان موقف البلاد قد اصبح دقيقاً كل الدقة ، حرجاً كل الحروجة ، فالمجلس القومي لم يعد مجلساً « موقتا » بل « دائميا » ! .. وانه اخذ يطبق الدستور الجديد الذي وضعه .. هذا الدستور الذي استغرق في وضعه تسعة شهور كاملة وكانت العقبة التي تعيق المفاوضات والمداولات واحدة (السلطنة — الخلافة) وهذا ما دفع مصطفى كمال للموافقة على بقاء السلطنة والخلافة ولم يكن يفكر احد من الوطنيين من اعضاء المجلس القومي في ادخال اي تعديل على السلطنة او الخلافة بل كانوا يميلون الى تصريف الامور على انهم يكونون حكومة موقتة وكانوا يقولون بانه بعد ان يتاح لهم تحرير البلاد سيعيدون السلطة العليا — بعد تقييدها تقييداً دستوريا « للخليفة السلطان » !

والواقع ان مصطفي كمال قد استطاع بدهائه ان يجعل المجلس القومي الاعلى من المجالس الجمهورية في نظمها ، وكان يعمل على هدم الاسس التي ترتكز عليها السلطنة والخلافة دون مساس بهاتين المؤسستين الى ان انهارتا فجأة بعد ان تلاشت هذه الاسس كلها ، وكيف لا تتلاشى ، والدستور الجديد الذي وضع في العشرين من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢١ ينص على ان السلطة كلها دون قيد او شرط قد انحدرت الى الامة باسرها وان المجلس القومي هو وحده صاحب الحق المطلق في تمثيل سيادة الشعب واصبح لهؤلاء الاعضاء كل الحقوق التي كان يتمتع السلطان بها فالمجلس هو الذي يقرر الحرب او السلم

وكان هذا من حقوق السلطان . . والمجلس هو الذي يعين الاشخاص الذين يمثلون البلاد في الخارج . . والمجلس هو الذي يعقد المحالفات . . ويمضي المعاهدات . . وبمعنى آخر لم يكن هناك موضع واحد ترك للسلطان لابراز سلطته او نفوذه ! وكأن مصطفى كمال قد اعلن الحكم الجمهوري على البلاد دون ان يذكر ذلك . وانه من الغريب حقاً ان يكون مصطفى كمال قد بلف النواب الى هذا الحد وخدعهم لهذه الدرجة !

ان مصطفى كمال قد توصل الى ما توصل اليه لانه ابى مفاتحتهم في موضوع السلطنة او الخلافة وكان يقول بان هذا الموضوع عقدة

العقد ويحتاج الى تشريع خاص ولهذا سيؤجله الى وقت آخر اكثر مناسبة

ويستطيع القارىء ان يتصور مبلغ الجهود التي بذلها مصطفى كمال ، والتدابير الدقيقة المحكمة التي كان يلجأ اليها لاخفاء هدفه الاسمى ، وتحرير الاتراك من آرائهم عن السلطنة والخلافة

ولم تتفق استمبول مع انقرة فسافر وفد استمبول الى المؤتمر على انفراد !

ورأت الدول الاوربية انها مضطرة اذا كانت لا تقضي على المؤتمر بالوأد الى مراعاة العوامل المحلية والظروف النفسية التي تمر البلاد التركية فيها وهذا ما حدا بها الى ارسال دعوة مباشرة الى انقرة وكان ارسالها لهذه الدعوة بمثابة اعتراف صريح منها بحكومة انقرة وكان ولا شك من اكبر العوامل التي عززت مكانة مصطفى كمال ورفعت من شأنه بفضل ثباته واصراره !

ولكن لم يكن هذا هو الظفر الوحيد الذي ناله بل نال ظفراً جديداً . ففي اليوم الثاني من ايام المؤتمر ظهر الوفد التركي — الاستمبولي — بجانب « وفد انقرة » ! . . فقابل الاوربيون هذا الوفاق الفجائي بمنتهى الدهشة والاستغراب وكانوا ينتظرون ان يظل الخصام بين الوفدين بل كانوا يتمنون من سويداء قلوبهم بقاء الشحناء . أليست سياستهم قائمة على التفرقة : فرق تسد !

ووقف رئيس الوزراء « توفيق باشا » وقال انه كرئيس للوفد الاستمبولي قد تنازل عن حقه في الكلام الى بكير سامي بك الذي سينطق باسم الوفدين معاً و يدافع عن اماني الاتراك القومية وعلى هذا فكلمته هي العليا ... وصمتت استمبول عند تلك اللحظة ولم يرتفع غير صوت انقرة !

واخذ لو يد جورج ، و بر يان ، والكونت الايطالي سفورزا هؤلاء الرجال العظماء الثلاثة — يوضحون للمؤتمرين بان الغرض من المؤتمر مجرد التوفيق بين الامم التي اشتبكت في الحرب مع بعضها وان الحلفاء على استعداد لاجراء بعض تعديل في شروط الصلح وعلى الاخص في الامتيازات التي اعطيت لليونان ... هذه الامتيازات التي ستحرم منها ! .... و بمعنى آخر اراد هؤلاء الثلاثة ان يرضوا الاتراك على حساب اليونان وان يجعلوا حبة الدواء التي سيقدمونها حلوة ما امكن ... ثم قالوا :

وستعين لجنة خاصة يعهدون اليها دراسة احوال السكان من جديد في منطقة ازمير وان ما ستقرره تلك اللجنة سينفذ على الجانبين ولكن في نظار ذلك ينبغي الاعتراف فوراً بمعاهدة سيفر بعد تلك التبديلات الطفيفة التي ادخلت عليها

ووافق الاتراك على تعيين اللجنة ولكنهم لم يذكروا شيئاً عن الاعتراف بشروط الصلح . اما اليونان فقد رفضوا فكرة ارسال

هذه اللجنة رفضاً باتا وذكروا ان القضية قد بت فيها فلا موضع لاعادة النظر فيها وانهم لا يرضون مطلقاً ان تتعرض اراضيهم ومصالحهم للخطر او ان تمس حقوقهم وانهم يحتفظون بكل ما جاء عنهم في معاهدة سيفر

وامام هذا العناد رأت الدول الاوربية ان تعمد الى حل جديد يفرج هذه الازمة و كانت الدول الاوربية ذاتها لا تنتظر نجاحها في مهمتها الجديدة هذه اما الاتراك فطلبوا التمهل في البت في هذا المشروع الجدبد وطلبت اليونان الانتظار اربعة اسابيع لدراسته ولكن المشروع قد وئد ... فان اليونان قد سبقت تركيا في رفض المشروع ! ....

ومع ان موتمر لندن الذي عقد في شباط سنة ١٩٢١ قد فشل فشلاً تاماً الا انه كان فوزاً خارقاً لانقرة ونجاحاً مدهشاً لمصطفى

كانت المشاهد التي تمثل من وراء الستار اهم بكثير من المشاهد الكوميدية التي تمثل امام النظارة ... بلى ، وافق بريان على الآراء التي عرضها بكير سامي بك وزير خارجية حكومة انقرة وأعلنت فرنسا عن استعدادها لمقاومة كل خصام بينها وبين تركيا ، وتعهدت باخلاء كيليكية فوراً ، ومقابل هذا كله ، تتعهد تركيا بان يكون لفرنسا الامتياز التجارى على الدول كلها التي تتعامل معها ! وكان يتوهم « بريان » الحاذق انه قد استطاع بهذه الحيلة ان يسير

مركبته الى جهة الربح ! ··· وامضيت تركيا وفرنسا المعاهدة ولكن مصطفى كمال رفضها على الرغم من موافقة السواد الاكبر من اعضاء المجلس القومي وقال بجرأته المعهودة انه يريد تحرير بلاده من السيادة التجارية الاجنبية التي لا تقل ويلا وبلاء عن التحكم السياسي ··· وانه لا يريد مقاومة فرنسا بالذات ولكنه يقاوم كل دولة تفكر في التحكم التجاري او السياسي بتركيا

واضطر بكير سامي بك الى الاستقالة من وظيفته كوزير للخارجية وانضم الى المعارضين فوراً

وكتب مصطفى كمال الى الحكومة الفرنسية بان اللجنة التى ارسلها قد سلكت سلوكاً ابعد ما يكون عن الصلاحية التى اعطيت لها وعلى هذا فكل قراراتها ملغاة لا تقبلها البلاد ولا تعد مسئولة عن شيء مما وافقت عليه !

اذن فالقضية الشرقية لم تحل بعد ··· ومعنى عدم حل القضية الشرقية ان الوفاق بين الدول الاوربية بعيد ···· ويظل عقدها مفروطا ! ····

٣٩

الحرب مع اليونان

كان مصطفى كمال لا يرضى لتركيا بغير الاستقلال بديلا ولكن هذا الاستقلال لا يمكن منحه منحا ولا يمكن ان تتنازل عنه الدول الاوربية بمحض ارادتها فاذا ارادت تركيا ان يكون لها كيان مستقل فينبغي ان تفعل ما سبق ان فعلته الاراضي المنخفضة ... وما قامت به الولايات المتحدة .... فتحارب لتنال استقلالها ، ولتثبت للعالم انها لا تزال تحتفظ بالحيوية والقوة ، والحمية التى تمكنها من الحياة والخلود

ومن الغريب انه لا يستطيع احد من الناس ان يذكر الاشخاص الذين قادوا تركيا الى تلك النكبة التاريخية العظمى ، ومن هو الملوم عن الدماء العزيزة التى سفكت والارواح التي زهقت نتيجة الظلم والجهل والوحشية ؟ ، ان كل الافراد الذين اشتركوا في تلك المأساة يدعون انهم كانوا على حق فيما فعلوا وقد يكون هذا صحيحاً من وجهة نظرهم ، ووجهات النظر تختلف !

اجل ان الدول الكبرى هي التي دعت اليونان ، وهي التي افسحت لها الطريق للتوغل في آسيا الصغرى ، ولقد قامت اليونان

بنصيبها من الخدمة فكافأت الدول الاوربية على صنيعها وكالت لها بالكيل كيلين، والحلفاء من جانبهم لا يسعهم ان ينكروا الخدمة العظمى التي قدمتها اليونان لهم في احرج المواقف واشدها خطورة، ولكنها لم تقدم على هذه الخدمة لزرقة عيون الحلفاء، ولكنها اقدمت على ما اقدمت عليه من تضحية غالية لانها قد وعدت بالمحافظة على المعاهدات التي امضيت واصبحت حقاً من حقوق التاريخ المقدسة ٠ هذه المعاهدات التي كانت تجعلها تسترد جزءاً من ايوانيا القديمة ، هذه البلاد التي كان يملكها اليونان قبل غزو الاتراك لآسيا الصغرى بعهد طويل وكانت تعتمد اليونان في مطالبتها بحقوقها على مدنيتها العريقة الماضية

ولايمكننا ان ننكر ان اليونان في آسيا الصغرى قد اصلحوا البلاد وعمروها ،وان المناطق التي شغلوها من السهل تمييزها عن المناطق التي شغلها الاتراك ولم يتوصلوا الى هذا الا عن طريق اقتصادهم ولانهم كانوا يعيشون في يسر لم يحلم به الاتراك

ولكن الدول الاوربية عادت تنتزع منهم الاراضي التي قدمتها ٠ هذه الاراضي التي اكتسبوها بتضحياتهم ، هذه التضحيات التي لم يكن الحلفاء ينتظرونها منهم ، لهذا لم يكن من العجيب ان تقل ثقة اليونان بالدول الاوربية وفي نياتها نحوها ، وهذا ما دفعها لان تفضل الاعتماد على السلاح والقتال عن الاعتماد على المعاهدات التي

طرحتها جانبا بعد ان رأت انها قصاصات اوراق ! ..

ولكن الحظ قد خدم الاتراك بتأجيل حل هذه المشكلة و كان في هذا التأجيل الخير كل الخير لتركيا

كان كل اسبوع جديد يضاعف من قوة الاتراك و يجعلهم يصرون على المقاومة والثبات في مجابهة الاعداء وابرموا حلفاً وديّامع روسيا بل ان فرنسا كانت تتقرب منهم وتتودد ! .. و بعد ان سحبت فرنسا قواتها من كيليكية تحولت القوات التركية التي كانت تحميها الى الجبهة الغربية لتقويتها وتعزيزها

واخذت ترد الاسلحة والذخائر كالسيل ، ووجد اليونان ان تمهلهم في ابتداء القتال كاد يقضي عليهم قبل ان يبدأوا فيه ، وان الاتراك يزدادون قوة كل يوم بل كل ساعة وهذا مادفعهم لان يبدأوا حملتهم على الاتراك دون ان يطلبوا اذناً من الحلفاء بل قبل ان يجيبوا الحلفاء على الاقتراح الذي كان يقصد منه التوفيق بينهم وبين الاتراك وساعدت هذه الخطوة التى اقدم عليها اليونان حكومة انقرة للتخلص من العمل المنكر وهو رفض اقتراح لندن . ووجد الاتراك انهم قد اصبحوا على حق في قتال اليونان بعد ان اعتدوا عليهم اعتداء غير مشروع

اما اليونانيون فكانوا يقاتلون بالروح التي كانت متغلغلة في صدور الصليبيين اذ كانوا يحسبون انفسهم ارقى حضارة من الشعوب الغربية

وان عليهم ان يحملوا ثقافة اوربا الى الشرق الادنى من جديد و كا
يرون ان معارك الاناضول هذه هي التى سيبت فيها اذا كانت مد
قسطنطين العظيم ستصبح مسيحية من جديد او لا تصبح ! ..

واستمرت المسألة اليونانية التركية سنة ونصف السنة وكانت نتيجتها سجالاً بين الدولتين

اما الدول الاوربية فقد وزعت عطفها على الاتراك ، واليونانيين ولم تتحيز لواحد من الطرفين ! اذ كانت هذه الدول تتحاشى الاشتباك في هذه المعارك قدر طاقتها فاكتفت بان تجلس مع النظارة ، وتشاهد ما يجري على المسرح .. وبمعنى « سياسي » غير « مسرحي » اعلنت رسمياً حيادها ، عند ما اعلنت الحرب اليونانية التركية وكان هذا الحياد ولا ريب من مظاهر الضعف قبل ان يكون من مظاهر القوة بل كان هذا الحياد في ذلك الوقت الحرج غريبا من دول كانت تتباهى بسيادتها العالمية و بعد ان كانت تملي ارادتها على الدول المقهورة املاء الرجل المقتدر على الرجل الضعيف المغلوب على امره ! ! ...

وتركت اليونان تتخبط في حيرتها بعد ان تركتها حليفتها بريطانيا العظمى ! ولكنها مع هذا لم تستسلم لليأس وابت الوقوف في منتصف الطريق بل اصرت على مواصلة القتال للنهاية على امل ان توفق اخيراً ، ويكتب لها الظفر

ورفضت اليونان ما عرضته الوزارة الانكليزية رسميا عليها بان

تكون وسيطا بينها و بين تركيا ٠٠ فاخذ الانكليز يراقبون ما يجري من حوادث برصانتهم المعهودة ٠٠ وامتلاك نفوسهم العجيب ٠٠ وليتخيل القارىء الانكليزي وهو جالس على مقعده ٠٠ وقد استسلم لجموده وفتوره ٠٠ ومد ساقيه الطويلين ووضعهما على المائدة التي امامه ٠٠ واخذ يتحدث حديثا يشتم منه عدم المبالاة بكل ما يجري ٠٠ وكأنه يشاهد رواية تمثل على مسرح من المسارح الاناضولية ٠ ولم يكن يرى هذا الانكليزي ما يستفزه لايقاف القتال ، القتال الذي كان هو السبب فيه او اصلاح الحالة التي يعلم انه ساعد على تحرجها الى هذا الحد !

بلى ، كان يريد ان يترك الامور تصلح ذاتها ٠٠ آجلا او عاجلا ٠٠ وليس عليه الا ان يتمتع بهدوئه و ينتظر الساعة التي يضطر فيها اضطراراً للعمل ٠٠٠٠ وعندئذٍ تفارقه برودته ، وتصل حرارته الى درجة الغليان

اما فرنسا فكانت قلقة و كان قلقها اكثر من اي وقت اخر ٠٠ كانت تخشى ان تحرم من هذه الفرصة السانحة فارادت المبادرة بالتوغل في الشرق الادنى بعد ان رأت من حليفتها انكلترا ٠٠ حيرة وارتباكا ولم يغضب « بريان » من رفض الاتراك لاتفاقية لندن ولم يداخله شيء من الاستياء فكان كل همه ان يستغل حيرة انكلترا وارتباكها ودفعه « عدم الاستغلال » الى ارسال رسول جديد الى

انقرة وهو فرنكلان بويون

اما ايطاليا فلم تقبل ان تكون في مؤخرة الدول ولم تقبل ان تدع فرنسا تسبقها لاغتنام الفرص وجر المغانم فتنازلت بمحض ارادتها .... وعن طيبة خاطر .... عن « حقها المشروع » في اضاليا ! .... وسحبت من تلقاء نفسها آخر حامياتها من آسيا الصغرى .... و بدأت المفاوضات مع الحكومة القومية

٩٠

معارضون ... الحرب خدعة

ووجد مصطفى كمال ان الدول قد اصبحت طامعة في فرص العمل اي بلاده العزيزة .... وانه فضلاً عن الاعداء الخارجيين عليه ان يجابه المعارضة التي كانت تشتد يوما عن يوم في المجلس القومي فكان الميثاق القومي الاساس الذي بني عليه الوفاق ، والذي كان يستند البرلمان عليه ، ولكن هذا الميثاق لم يكن اكثر من مبادىء عامة ولم يكن برنامجاً معيناً واضحاً فلما اراد مصطفى كمال ان يقدم على الخطوة الثانية .... خطوة التطبيق او على الاقل

شرح هذه المبادىء وتفسيرها بدأ يظهر المعارضون واحداً بعد الآخر واخذوا يتكاتفون ضده ويتحدثون في هدمه ثم تكونت من المعارضين احزاب قوية من بينها حزب برآسة بكير سامى بك الذي كان وزيراً للشئون الخارجية قبل انضمامه الى المعارضين ....

وكان الاتراك يقولون عنه وعن حزبه انهم يمتازون بالاعتدال في ارائهم السياسية ويختلفون عن الغلاة من الوطنيين

والحقيقة ان اعضاء هذا الحزب « المعتدل » كانوا يريدون عقد الصلح السريع مع الدول الاوربية وعلى الاخص بعد ان اخذت كل من فرنسا وايطاليا تخاطب حكومة انقرة في الوفاق وكان يذهب التفاؤل بهم الى حد انتظار تعديل شروط الصلح تعديلا كافيا يضمن حرية البلاد واستقلالها

وكان اليأس قد بلغ منهم كل مبلغ وسئمت نفوسهم الكفاح وكرهت النضال فاخذوا يستسهلون الصلح ويقولون ان استمرار الحرب لا ينجم عنه غير القضاء على الامة التركية التي انهكت قواها قضاء تاماً وانهم خير لهم ان يقبلوا هضم بعض حقوقهم من ان تهضم كل حقوقهم وانه من الحرام ان تذهب تركيا نتيجة لسياسة العناد والاصرار ويضيع كيانها نتيجة للمجازفات والمخاطرات ! ..

ان هذا الحزب — المعتدل — لم يكن هو وحده الذي ينفث سمومه هذه — سموم الضعف — في الامة ويدفعها للاستسلام والموت

فقد قامت خمسة احزاب اخرى تفت في عضد مصطفى وتنخر في الهيكل القومي الذي كان يحرص عليه اكثر مما يحرص على حياته .. خمسة احزاب لا تعرف غير الاستكانة للاجنبي .. متباينة في مذاهبها .. مختلفة في برامجها .. وقد يكون سر تكوينها وجود عدد يعد على الاصابع من افراد يتوهمون ان الله الذي خلق مصطفى قد خلقهم هم ايضاً وان البلاد التي انجبته انجبتهم وانه اذا كانت السماء قد عهدت لمصطفى برسالة ليؤديها فلا مانع من ان تكون قد بعثتهم هم ايضاً برسالات !

نعم ، كانوا يتصورون انهم خليقون بالزعامة وانه في قدرتهم ان يصلوا الى هذه الزعامة عن طريق المعارضة وتأليف الاحزاب لمقاومة مصطفى وانتزاع الزعامة منه .. والحياة كفاح ونضال . والغلبة للقوي ! .

ولكننا لا نريد ان نظلم هؤلاء ، فنقول ان السر في تأليفهم للاحزاب ليس هو الزعامة وحدها فقد كان هذا عاملا من عوامل كثيرة اهمها قضية نظام الحكم ، هذه القضية المعقدة التي تركها مصطفى دون حل معلقة .. وكانت المعارضة تستند على رغبة الجماهير في السلطنة .. والخلافة بل كان الشطر الاكبر من الجيش لا يزال موالياً للسلطان والخليفة !

وكان الجنرال كاظم قره بكير باشا هو زعيم الحزب الملكي

الذي ينتصر للسلطان ويدافع عن الخلافة

هذا الرجل الذي كان يعمل خارج البرلمان وداخله على تعزيز السلطنة والخلافة بكل ما اوتي من قوة · رأى ان يكتب لمصطفى كمال بعد ان راجت الاشاعة عن ميله للقضاء على السلطنة والخلافة يحذره تحذيراً صريحاً كل الصراحة بعدم التعرض للسلطنة اي نوع من التعرض ·· وقال ·· ان الدستور الجديد لا يعد من الوجهة الشرعية قانونياً صحيحاً ما دام ان البلاد لم تستشر ولم يؤخذ رأيها في حدث خطير كهذا · وان الامة وحدها هي صاحبة الحق في اختيار نوع الحكم الذي تريده

ثم ختم خطابه بالكلمات التهديدية الآتية :

« وقد آليت على نفسي ان امنع — مهما كانت التضحية التي تطلب مني — كل خطوة نرمي من ورائها الى تحويل البلاد من السلطنة الى الجمهورية »

وفضلاً عن هذا اخذ الخوف يتسرب الى قلوب انصار مصطفى وباتوا يتوهمون انه يريد التخلص من السلطان وابعاده ليخلو له الجو فيقيم نفسه ديكتاتوراً او يغتصب السلطنة لنفسه واطلقوا لانفسهم العنان فتوهموا ما شاءوا ·· ، بلى اعادوا النظر في تاريخ مصطفى الماضي وتمثلت امام اعينهم الاعمال الجريئة التي قام بها والتي تدل على طموحه الذي لا يعرف الاستقرار وكانوا يقولون ان هذا الطموح

وحده ، هو سر عظمته ، وسر قوته الهائلة ، التي تدفعه لمقاتلة السلطان ، والقضاء على عرشه ! ..

وكان كاظم قره بكير باشا من الشخصيات المحترمة احتراما عظيما من الجيش كله .. وكان الشعب يقدر رجاحة عقله .. و بعد نظره وثاقب فكره و يصغي لاقواله لولائه السلطان وتفانيه في الذود عن عرشه وكان من المستحيل ان يلقى معارضة اذا اراد ان يحرك الامة التركية باسرها ضد مصطفى ما دام يدافع عن السلطان والخليفة .. و ينبغي ان لا يغيب عن اذهاننا ان السلطنة كانت حتى ذلك الحين مقدسة والخلافة .. مقدسة .. وادرك مصطفى كمال هذه الظروف العصيبة التي احاطت به والنتائج التي من الممكن ان تحدث اذا عمد الى العناد والاصرار فكتب يقول :

« ان الدستور الذي وضعه المجلس القومي ليس نهائياً ولكنه مجموعة مبادىء عامة وضعت لتكون رائداً ومرشداً لمن يريدون حكم البلاد حكما ديمقراطيا سليما من الفوضى وانه ليس في هذه القوانين ما يشتم منه رائحة التعدي على السلطنة المقدسة او الخلافة المقدسة ! .. او الحض على الحكم الجمهوري وان الاشخاص الذين يتوهمون اننا نريد القضاء على السلطنة واستبدال الحكم الملكي بالحكم الجمهوري يعيشون في عالم آخر غير الذي نعيش فيه ! .. عالم الخيال والاوهام ! ... »

وكان يبرر مصطفى كمال «فبركته» لهذه الخدعة المقصودة التى لجأ مضطراً اليها بان الحاجة القصوى هي التي اجبرته على التمويه والكذب

وقد نجح مصطفى كمال فيما قصد اليه من وراء هـذا الخداع فهدأت العاصفة وخمدت الزعازع وعاد الاطمئنان لزعيم حزب المعارضين الجندي المحترم كاظم قره بكير باشا وسكن روعه

ولم يكتشف هذا الرجل المخدوع الحقيقة الا فيما بعد فعرف ان مصطفى كمال قد ضلله ... وغرر به !

وايقن مصطفى كمال انه لا يمكنه تأسيس الجمهورية واعلان الحكم الجمهوري الا اذا اعتمد على الاغلبية الساحقة من اعضاء البرلمان او المجلس القومي وان عليه ان يعالج بعض اعضاء هذا المجلس المرضى بمرض اليأس ، والخنوع ، هذا المرض الذي شل المجلس واضعفه بل كاد يقضي على الحركة القومية في صميمها ! ...

ووجد مصطفى ان خير وسيلة يمكنه الالتجاء اليها هي تكوين حزب جديد من اشد انصاره اخلاصاً وولاء .. من افراد يطيعونه طاعة عمياء ... دون اعتراض ، فتألف الحزب واطلق عليه حزب الدفاع عن حقوق الاناضول والروملي !

وكان يعد حزب المتطرفين « الراديكال » ! ... في المجلس ! وكان الغرض الحقيقي من تأليفه هو القضاء على السلطنة والخلافة اما في الظاهر فكانوا يقولون « تحقيق اغراض الامة القومية » ! .

٤١
اصبع انكليزية

وفي ذلك الحين تأسست في انقرة محكمة ثورية كانت تصدر احكاما قاسية بقصد الارهاب : واننا نذكر قضية واحدة من القضايا التي فصلت فيها والتي تعد من اغرب القضايا واخطرها ..

جاء الى انقرة هندي ادعى انه رسول موفد من جمعية الخلافة في الهند ، هذه الجمعية التي كانت تغذي الحركة القومية التركية بالمال في سخاء وأي سخاء وتنشطها بكل انواع التنشيط

وكان من الطبيعي ان يقابل رسولها بكل مظاهر التجلة والاحترام اكراماً للغيرة الاسلامية التي اظهرتها الجمعية الهندية التي كانت تدافع عن الخلافة وضاعفوا من تعزيزه واكرامه عندما ابلغهم هذا الرسول بان الهنود قد جمعوا فيما بينهم مليوناً من الجنيهات الانكليزية وانه قد جاء ليطمئن على وصول هذا المبلغ الذي سيصل بعد زمن قصير واخذ الاتراك ينتظرون هذا المليون بفارغ الصبر ولكنهم لم يستلموا شيئاً ثم اطلق هذا الرسول لسانه فأخذ يسرد بعض حكايات من المستحيل تصديقها فضاعت ثقة الاهلين فيه

ورأت الحكومة في انقرة ان تراقب الخطابات التي ترد لهذا

الرسول دون ان تعلمه فتبين لها انه على اتصال بدائرة الاستخبارات الانكليزية في استمبول وقد ثبت لها ذلك جلياً من عدة رسائل كانت مكتوبة بالحبر الخاص الدي لا تراه العيون فقبضت السلطات فوراً عليه وزجته في السجن رهن المحاكمة فحاول استعطاف قلوب القضاة عن طريق افشاء كل الاسرار التي يعلمها ثم سرد قصته التي ننقلها عن لسانه فيما يلي : قال انه شاب من الشبان الهنود الذين اختيروا لمواهبهم الخاصة للتمرن على التجسس لدوائر الاستخبارات الانكليزية وانه ينتمي الى اسرة ارستقراطية من اعرق الاسر الاسلامية في بنارس ، ارسل الى انكلترا وهو بعد في العاشرة فتلقى علومه على حساب الدولة وأتم دراسته في جامعة اكسفورد فأصبح لا يفرق عن الانكليزي الصميم في شيء واوقف حياته على خدمة المصالح الانكليزية فطلبت اليه الحكومة الانكليزية الطواف على العالم الاسلامي لدراسته والاطلاع على احواله فطاف وعاد يحمل اليها « شحنة كاملة » من الاخبار ثم منحته الجامعة لقب دكتوراه وارسلته الى بلاد فارس بناء على طلب الحكومة الانكليزية ليكون سفيراً لانكلترا في ايران ثم قضى سنوات الحرب في سويسرا التي كانت مركزاً عالمياً للجاسوسية

وبعد امضاء شروط الهدنة عاد الى استمبول وتظاهر بانه موفد من قبل جمعية الخلافة الهندية واستطاع ان يحوز ثقة الاوساط

الاستمبولية الاسلامية كلها

وهنا اخذ يعدد اسماء الذين كانت الحكومة الانكليزية قد اشترتهم بالذهب الانكليزي وكان في مقدمة الاسماء التي اوردها اسم صاحب الجلالة السلطان وحيد الدين ! ... وصاحب الدولة رئيس الوزراء الداماد فريد باشا .... ثم طلبت دائرة الاستخبارات الانكليزية في استمبول منه ان يذهب الى انقرة وذكر انه ليس هو اول جاسوس .. كما انه ليس هو آخر جاسوس، وانه قد ارسل تقارير ضافية عن الوطنيين في انقرة الذين لهم علاقة بالبلاشفة . والعلاقة بينهم وبين العالم الاسلامي وان الانكليز يهتمون بهاتين القضيتين كل الاهتمام

ثم صرح هذا الجاسوس — وهذا آخر تصريح له — ان الغرض الحقيقي من مجيئه الى انقرة انما هو اغتيال مصطفى كمال !، ثم اخذ يفشي الخطة التي كان ينوي اتباعها والتدابير التي اتخذها وانه في نظير هذه الجريمة سيتقاضى مائة الف جنيه انكليزي

وهنا ابتسم مصطفى كمال وقال :

« ما كنت اظن ان رأسي من السلع التي تباع بمثل هذا الثمن الباهظ » ! !

وسأله رئيس المحكمة — ولماذا وقع الاختيار عليك لتغتال مصطفى كمال ؟ فاجاب الجاسوس :

— لاني قد نجحت في مهمة لا تقل خطورة عن هذه المهمة الجديدة فقد اغتلت امير الافغان !

ولكن اعترافات هذا الجاسوس الجريء لم تفده شيئاً فحكمت المحكمة عليه بالشنق وقبل تنفيذ الحكم فيه طلب اخفاء اسمه حرصاً على كرامة عائلته وسمعتها فاجيب الى ما طلب

ولما طلب الجلاد منه ان يصعد الى المشنقة صعد وجلس على الدكة بدلا من ان يقف · فطلب اليه الوقوف فابتسم ابتسامة لطيفة وقال في ادب : — ارجوك ان تعذرني فان هذه هي المرة الاولى التي اقف فيها هذا الموقف !

وسواء كانت اعترافات هذا الجاسوس صادقة ام كاذبة فان حكومة انقرة قد استغلت الحادث الى ابعد حدود الاستغلال وارسلت منشورات سرية للعالم الاسلامي كله اتهمت فيها بريطانيا العظمى بانها تعمل ضد الاسلام ، وانها ارسلت رجلا ليغتال مصطفى كمال

والواقع انه اذا كان ما قاله الجاسوس صحيحاً فحكومة لندن لا يمكن ان تتدخل في عمل كهذا او تشترك فيه بل لا بد ان يكون قد قام بهذه المؤامرة احد الانكليز في دائرة من دوائر الاستخبارات الانكليزية دون علم الحكومة الانكليزية التي هي اعلى بكثير من ان تتدنى الى عمل كهذا

٤٢

الحرب – عود على بدء

وفي الوقت عينه كان اليونانيون يلمون جيوشهم و يجمعونها استعداداً لهجوم جديد ، و بدأت المعركة في النصف الاول من تموز (يوليو) ، وليتصور القارىء حرارة هذا الشهر في بلاد اسيوية قاحلة

وقد اتجه الجيش اليوناني صوب الشرق وابصارهم لا تتحول عن مليكهم الذي رافقهم في هذه المعركة الحاسمة ووصلوا الى الخط الحديدي واصطدموا بالاتراك وجهاً لوجه

واظهر الجنرال بابولاس حنكة ودراية في هذه المرة وادرك انه ليس من الحكمة الهجوم على مركز حربي قوي كاسكيشهر ولهذا قاد الجيش الى الجنوب وهاجم « كوتاهيه »

وصد عصمت باشا الجيش اليوناني عشرة ايام ولكن في اليوم الحادي عشر توغل الجيش في كوتاهيه ، كوتاهيه التي تعد جبهة من الجبهات التركية ؟

واخذ عصمت باشا يبذل جهوداً جبارة لصد هذه الهجمات ،

الواحدة بعد الاخرى ، ولكن الجيش اليوناني كان يضيق عليه الحصار شيئاً فشيئاً

واستطاعت الفرقة اليونانية التي تعسكر في الجنوب الاستيلاء على « افيون قره حصار » وسارت تريد احتلال الاجزاء الشمالية

وظلت المعركة مستمرة والموقف يزداد حراجة وبالرغم من هذا شعر عصمت باشا وقواده بان الواجب الوطني يحتم عليهم الاستمرار في القتال حتى اللحظة الاخيرة

ووصل مصطفى كمال فابلغته القيادة العليا هذه الاخبار المزعجة فلما وقف على الحالة تماماً اصدر اوامره بايقاف القتال فوراً ، والتراجع الى الجهة الشرقية بعد ان ايقن ان الجيش التركي سيقع لا محالة في نكبة هائلة اذا ظل في مكانه هذا

ومن النادر ان تجد قائداً يقدم على عمل خطير كهذا في مثل هذا الموقف .... اجل ، كان نجاح هذه الحركة الجديدة نجاحاً تاماً لمصطفى وكان فشلها فشلاً تاماً له .... وقد اظهر في تلك الساعة ما كان يعد شجاعة نادرة اذا انتصرت الجيوش ، وجنوناً مطبقاً اذا فشلت ، وطنية نادرة او جناية هائلة !!

وتمكن الجنود الاتراك من التراجع وقد بلغ بهم اليأس كل مبلغ ، وتعرض الجيش التركي لخسائر فادحة وترك مقادير هائلة من المواد الحربية الثمينة غنيمة باردة لاعدائه ، واخذت العربات

تحمل ما امكن حمله وسارت النساء والاطفال مع هذه العربات وحولهن الرجال في حالة من الاعياء شديدة

وكان مصطفى كمال في ذلك الحين في قطار من القطر القديمة مع عدد من رفقائه ، وكان آخر قطار يترك اسكيشهر قاصداً انقرة .. وكان السفر ليلا .. ولم تكن عربة القطار التي فيها مصطفى مضاءة بغير مصباح ضئيل النور اما زجاج نوافذ العربة فكان قد تهشم واخذت الرياح تصفر صفيراً مخيفاً . وكان يتطلع مصطفى فيرى الكآبة مرسومة على وجوه من حوله . اما ضباطه فكانوا لا يتحدثون واذا تحدثوا فبأصوات منخفضة فيها معنى الذل وانكسار النفس وكانوا يقولون ان ليس في آسيا الصغرى التي كانت لا تقل مساحتها عن فرنسا والمانيا معاً غير خط حديدي واحد وان اهم المدن التي يمر عليها هذا الخط الحديدي هما اسكيشهر وافيون قره حصار فمن الواجب حماية هذا الخط مهما كلفهم الامر لان عليه تتوقف حياة الجيش او موته اذا انتزع منهم ، وانه في الوقت الذي يحرسون منه يفقدون الاناضول الغربية بمصادرها وخيراتها فلا يجدون غير الجوع في مرتفعات الاناضول الداخلية القاحلة . وماذا يفعلون الآن وقد ضاعت اسكيشهر من ايديهم ؟ !

اما مصطفى كمال فكان يدرس الخارطة التي وضعها على ركبتيه في هدوء وصمت بل كان لا يبدي حراكاً اذا استثنينا اصابعه التي

كانت تلعب بالسبحة · السبحة التي كان يستعملها التركي لمجرد عادة · كما انها تفيد في تسكين الاعصاب وتهدئتها ويتخذها بعضهم أداة للتعبد وللصلاة

ورفع مصطفى كمال رأسه ولم يكن قد سمع من الحديث الذي جرى بين القواد غير الكلمات القليلة الاخيرة فالقى السبحة على الخارطة وقال :

ما هي اهمية السكة الحديدية ؟ ما هي اهمية اسكيشهر او اي مدينة اخرى ! · · لا شيء ! · · الجيش هو كل شيء · · والجيش لا يزال قوياً ! · · ولن تنقضي اربعة اسابيع الا ونكون قد قهرنا الاعداء ! اما القواد فكانوا يتطلعون اليه مشدوهين ويعدون حديثه هذا من قبيل الهذيان

ووقف الجنود الاتراك عن التقهقر بالقرب من « سقاريا »

اما المجلس القومي فكان يعقد جلساته الصاخبة باستمرار وكان المعارضون ينزلون جام غضبهم على مصطفى والقواد الذين معه ، وكان الرأي السائد ان الحركة القومية قد قضي عليها · واضطرب الاعضاء الذين كانوا ينتصرون لمصطفى ويؤيدونه ووقعوا في حيرة شديدة وكانوا هم ايضاً يعتقدون في دخيلة نفوسهم ان لا امل في فوز الجيوش التركية بعد ان وصلت هزيمتها الى هذا الحد المزري ثم عقد الاعضاء جلسة سرية واضافوا هذه الحاشية دون علمه

« وفي وسع المجلس ان يجرد مصطفى كمال من هذه السلطة التي منحت له في اي وقت شاء »

ووقف مصطفى في الجلسة العلنية التالية وصرح التصريح الخطير التالي :

« ان ايماني لم يتبدل لحظة في اننا سنهزم العدو هزيمة شنيعة ! واني اقول هذا عن عقيدة راسخة .. الان .. امام هذا المجلس الموقر .... امام الامة .... امام العالم باسره ! .... »

وقد يكون مصطفى كمال قد فاه بهذا التصريح وهو موقن حقاً من نجاحه فانه من الرجال الذين لا يبالون بالحظ ولا يعتمدون عليه وقد تكون الضرورة هي التي اجبرته لان يفوه بما فاه به، وكان العبء الذي وضع على اكتاف مصطفى يتطلب قوة فوق قوة البشر ولكن مصطفى كان على استعداد لان يضحي حتى بحياته ، اذا كان لا مفر من التضحية

٤٣

هزيمة الجيش اليوناني

ان كل الذين شاهدوا مصطفى كمال في تلك الايام كانوا ولا ريب يلاحظون دلائل كفاحه الداخلي العنيف .. كان شكساً متسرعا .. نزقا .. ملولا جزعا .. كان يتهيج لاتفه سبب وكان

من الشاق التعامل معه وكان من اشق الامور ان ترضيه !

وقد اخذ يصدر الاوامر التي كانت في حكم القوانين · وقد قال عن تلك الايام ما يلي :

« كان عليّ ان اقف على جهود وشعور وافكار الامة باسرها عن الحرب ·· ليس فقط الذين سيشتركون فعلا فيها ·· بل كان ينبغي ان اطلع على الاحوال في القرى ·· والدور ·· والحقول ·· وان اخصص لكل فرد في الامة عملا يقوم به ·· كان عليّ ان احول جهود الامة كلها لمقاومة الاعداء ! »

اجل ، بعد ان كان الجنود يحاربون بدافع الاضطرار والاجبار امكنه ان يغريهم لدرجة ان كانوا يتنافسون في اظهار تضحيتهم وتفانيهم

وقد بقيت معركة سنقاريا الشهيرة مستمرة ·· دون انقطاع ثلاثة اسابيع ويوم وهي تعد من اعظم المعارك التي سجلها التاريخ ··

وطاف مصطفى كمال المناطق التي ستدور رحى القتال فيها مدة ٤٨ ساعة متواصلة ! فتفقدها ودرسها دراسة دقيقة

وحدث انه عند ما وصل الى « التل الاسود » ان تعثر جواده فهوى وسقط مصطفى فحملوه الى انقرة فتبين ان احد اضلاعه قد تهشم ·· وتشاءم المتشائمون ! , ولكن في اليوم التالي قصد مصطفى كمال المكان عينه واخذ يقول هذه العبارة التي تناقلتها الالسن :

اصحاب قوة ونفوذ لهذا تخوف مصطفى كمال من عودته ، لان بعودته تتجدد حتماً القلاقل في البلاد وتجعل كفة المعارضة اقوى من كفة الوطنيين . وقد قال مصطفى بصريح العبارة : « لا مكان لانور ما دمت في تركيا » وهكذا كان ! :

اما انور فكان يعمل لتأييد المثل العليا التركية .. واعادة مجد الجدود وعظمة الامبراطورية العثمانية .. وحاول ان يدفع التركمان في داخل آسيا الى الثورة وان يجعلهم يؤيدون الاناضول وينتصرون لثوارها وتمكن من تثبيت اقدامه في بخارا ووجد سكان هذا الاقليم ان السوفيت قد ظلموهم ظلماً فاحشاً وهذا ما حدا بهم لان يحشدوا الجيوش لمقاومة الجيوش الحمراء واستدعوا انور ليقود هذه الجيوش التي عبأوها لتحرير بلادهم من النير الروسي وتمكن انور من طرد بقايا القوات الحمراء وجعل نفسه اميراً على بخارا

وكانت هذه الاعمال الغريبة التي يقوم بها انور مناقضة كل التناقض للسياسة التي يتبعها مصطفى مع موسكو ، هذه السياسة التي كان رائدها الحذر الشديد وعدم تعريض العلاقات الروسية التركية للتوتر .. وكان من المحتمل ان تقدم بخارا على اثارة الامم الاسيوية التركية للانفصال عن السوفيت ، وعندئذ تضطر حكومة انقرة على الرغم منها لتأييد سياسة الوحدة التركية وايجاد الحلف التركي وهذا ولا شك يتعارض مع المصالح الروسية ولا بد ان ينجم عنه

معادات روسيا لتركيا التي كان مصطفى كمال يحرص على صداقتها ارهاباً لاوربا وحتى لا تفكر في مقاومته من جديد وهذا ما دفع مصطفى كمال لان يؤكد لموسكو مراراً بانه لا يوافق على الخطط التي يقوم بها انور ادنى موافقة ! ...

وفي الوقت عينه كانت الحكومة الروسية قد اوقفت القتال الذي يدور بينها و بين بولندا وارسلت القوات الروسية لمقاومة انور ولكن قبائل بخارا التي كان يحاول انور تحويلها الى جيوش منظمة قد هربت قبل اقتراب الجيش الاحمر ووجد انور انه امام فرقة روسية كاملة .... وقتل طبعاً .... في تلك المعركة .. وكان قد تمزق وجهه كله بالجروح لدرجة ان استحالت معرفته اولاً ، واغتيل طلعت باشا قبل هذه الحادثة بسنة في شارع من شوارع برلين

و بعد وفاة انور بزمن قصير لاقى الزميل الثالث جمال باشا حتفه ، وجمال هو الذي ساعد الملك امان الله خان على صبغ بلاده بالصبغة الاوربية ، وقصد جمال موسكو وكان يريد الاتفاق معها ولكن حدث نزاع بينه و بين السوفيت فهددوه بالمحاكمة امام محكمة « شيكا » الارهابية المخيفة فلجأ فوراً الى الفرار الى تفليس وارسل احد اعوانه الى مصطفى كمال يحمل اليه خطاباً يرجوه فيه السماح له بالعودة الى وطنه الاصلي ولكنه قبل ان يتسلم الرد .. بالنفي .. اغتيل في تفليس ! ..

٤٧

الانتصار تلو الانتصار

واخذ اليونانيون يتخبطون في يأسهم يحاولون الخروج من الورطة التي وقعوا فيها وتجمعت الجيوش اليونانية جنوب « ادرنة » وارسل « جونارس» يعلن الحلفاء بان اليونان قد صممت على امتلاك استمبول وطلب منها الموافقة على هذه الحركة

اما انكلترا فكانت لا « تمتعض» اذا علمت ان الجيوش اليونانية قد وصلت الى القرن الذهبي ولكن فرنسا وايطاليا رفضتا صراحة تشجيع خطة كهذه واكدتا انهما ستقاومان اي اعتداء على استمبول مقاومة عنيفة

وارسل مصطفى كمال رسولا جديداً يسمى فتحي بك وكان يعد من الساسة المختبرين الى عواصم الممالك المتحالفة وحمله رسالته التي كانت تتلخص في الجملة التالية :

« نريد السلم ٠٠ دعوا الاتراك يحيون ! »

اما الرسول فقد استقبل في روما وباريس استقبالاً ودياً واما في لندن فلم يتمكن من مخاطبة احد غير سكرتير في وزارة الخارجية

ولما وجد فتحي بك انهم يقابلونه بالاحتقار الى هذا الحد ارسل برقية الى انقرة هي كلمة واحدة :

« اهجموا ! . . »

وهنا بدأت المدافع تطلق حممها من جديد ونسمع صوتها عالياً قوياً

كان مصطفى قد حاول تجنب سفك الدماء الجديدة ولكنه وجد من عناد انكلترا واستهانتها ما دفعه مرغما على سفكها غزيرة !

ولما كان مركز الجيش اليوناني لا يزال قويا فقد وجد مصطفى كمال انه من الضروري ان يأخذ الجيش على غرة وان يستخدم معه الخدع الحربية فوضع الخطط الحربية وقطع المواصلات مع الخارج فجأة قبل الهجوم باسبوع فانتشرت الاشاعات بان الثورة قد نشبت في داخل الاناضول وسر اليونانيين لهذا سروراً عظيماً !

وفي صبيحة ٢٦ آب سنة ١٩٢٢ اي بعد مرور سنة كاملة على معركة سقاريا استيقظ الجنود اليونانيين على اصوات المدافع الفجائية وقبل ان يدركوا سر هذا الهجوم كانت الجيوش التركية قد باغتت الجيوش اليونانية بالقرب من (افيون قره حصار) وأسرت قائدها الجنرال تريكو بيس ، فانشق الجيش اليوناني الى قسمين ثم هرب الجنود الى الساحل حيث كانت السفن بانتظارهم وعلى الرغم من اضطرارهم للفرار على عجلة فقد وجدوا متسعاً من

الوقت لحرق المدن والقرى التي صادفوها في طريقهم كما انهم قد انتقموا شر انتقام من المسلمين المسالمين . وهرب بعض المسيحيين الذين كانوا يقيمون في آسيا الصغرى الغربية مع الجيش اليوناني المتقهقر . وفي ٩ ايلول دخلت الفرق التركية ازمير

وبعد مرور اربعة ايام اشتعلت النيران فاحرقت الشطر الاكبر من المدينة ولم تبق الا على جزء صغير لا قيمة له .. احترقت الاحياء الفرنسية واليونانية والارمنية .. وبقي الحي التركي ! .. وليس من شك في ان هذه الحريقة الكبرى كانت نتيجة مؤامرة محكمة ولكننا لا نعلم من هو المسئول عنها ! .. فقد اتهم الاتراك اليونان ، واليونان الصقوا التهمة باعدائهم وقد تكون الحقيقة ان الجيش اليوناني قد لجأ الى هذا العمل الوحشي بدافع اليأس ، او قد تكون هذه الجناية من صنع الاتراك بدافع الانتقام والتشفي وعلى كل حال فان اهتمام الاتراك بتعمير الاجزاء التي احترقت يؤيد اتهامهم لليونان ؟

ومنذ ذلك الحين لم تلعب قضية الاقليات المسيحية اي دور في شؤون تركيا بعد ان كان لها اكبر الشأن في السياسة الاوربية ، ولم تكن تهتم الدول بهذه الاقليات الا لعوامل ادبية ومادية ، فان الاتراك قد بتوا هذه القضية نهائياً وفرغوا منها .. ولم يبق احد من المسيحيين في كل آسيا الصغرى بعد الانتهاء من امضاء شروط الصلح !

٤٨

فشل السياسة الانكليزية

ووجد الحلفاء باندحار الجيش اليوناني في آسيا الصغرى انفسهم وجهاً لوجه امام تركيا ·· تركيا الظافرة ·· وبعد ان احتل مصطفى كمال ازمير اتجهت جيوشه نحو الشمال فاصطدمت بالانكليز

وكانت الدول المتحالفة قد اعلنت حيادها في ١٥ ايار سنة ١٩٢١ وكونت منطقة حيادية وهي قطعة الارض الممتدة على شواطئ البسفور والدردنيل ·· هذه الارض التي لم تسمح الدول الاوربية للجيشين المقاتلين باجتيازها

ولكن مصطفى كمال طلب ان يمر في منطقة الحياد هذه فابى الجنرال هارنجتون الذي كان قائداً عاماً لجيوش الحلفاء في ذلك الحين السماح له بالمرور. وذكر لمصطفى كمال ان الجيش اليوناني قد طلب عين الطلب قبل بضعة شهور فرفض طلبه · ولكن الاتراك لم يعبأوا بهذا المنع واستمروا في توغلهم وتجمعت جيوشهم على الساحل

وقف الاتراك بالقرب من جناق قلعه على الساحل الاسيوي للدردنيل وكانت هذه النقطة الحربية مواجهة لغليبولي وتعد مفتاحاً لادرنه · وادرك الاتراك انهم اذا اجتازوا هذه المنطقة امكنهم

٥١

موءتمر لوزان

وكان السلطان وحيد الدين لا يزال يتعلق بالعرش الذي لم يستطع الاحتفاظ به اولم يتمكن من صيانته فاخذ يبكي عرشه الضائع .. ولكنه كان لا يزال يحتفظ بالخلافة وابى التنازل عنها مع انهم قد نصحوه بالتخلي عنها

واتهمه المجلس القومي بالخيانة العظمى والف محكمة خاصة لمحاكمته وطلب معونة الانكليز ولكنهم لم يمدوا له يد المساعدة

وفي صبيحة ١٧ تشرين الثاني في ساعة مبكرة فرآخر سلطان مع ابنه « ارطغرل » وحاشية صغيرة من القصر في السفينة الحربية « مالايا » دون ان يشعر احد بفراره والتجأ اولاً الى جزيرة مالطة وطلب عبثاً الحماية والمساعدة من المغفور له صاحب الجلالة الملك حسين .. ثم توفي بعد سنوات قليلة في قصره بسان ريمو .. وانتقلت الخلافة الى البرنس عبد المجيد ، بعد موافقة المجلس الوطني الكبير ، الوريث الشرعي وهو ابن عبد العزيز وابن عم وحيد الدين

وفي العشرين منه افتتح موءتمر الصلح في لوزان .. هذا الموءتمر الذي ظل تسعة شهور .... جابه فيها مصطفى ازمة وراء اخرى

فكانت الشدائد لا تزيده الا متانة فوق متانته وقوة فوق قوته

واجتمع في لوزان وفود اثنتي عشرة امة لبحث الشؤون الشرقية .. ووقف العالم لاول مرة على شروط الصلح التي تمت الموافقة عليها عن طريق « المفاوضة » لا عن طريق « الاملاء »

افتتح المؤتمر وحضره بوانكاريه وموسليني .. وقد غادراه في اليوم التالي .. وكان اللورد كرزون في كرسي الرئاسة

وقد صرح في الجلسة الاولى بان الصلح الذي تم بمعاهدة سيفر سيكون اساساً لهذا المؤتمر وان كان الحلفاء قد وافقوا على ادخال تعديل معين على هذه الشروط

اما عصمت باشا ، الجنرال التركي ، الضئيل الحجم ، فانه تظاهر بانه لم يسمع شيئاً مما قيل بحجة الصمم ! .. وكان اصم من النوع الذي يسمع ما يريد ولا يسمع ما لا يريد .. وهو نوع غريب كما ترى .. ولكنه افاده في نضاله السياسي مع الاوربيين

وقف عصمت يقول بان المطلب الاول والرئيسي الذي تطلبه تركيا ان تجري المفاوضات على اساس المساواة التامة بين الدول ، والعدالة الحقة ، والا فان تركيا تجد نفسها مضطرة للانسحاب فوراً من هذا المؤتمر ولا تعد مسؤولة عن فشله !

وكان هذا التصريح الوطني الجريء مبعثاً للدهشة العظيمة ، والذعر الشديد اذ لم يكن الحلفاء يرغبون في غلق الابواب وانهاء

جلسات المؤتمر منذ اول ساعة فلا بد اذن من التوفيق بين المطالب المتناقضة، وظل عصمت باشا لا يحيد عن سياسته بصغي الى ما يريد الاصغاء اليه ويتجاهل ما يريد تجاهله، أليس في يده سلاح الصمم يشهره أنى شاء ويخفيه أنى اراد ....

وكان في مقدمة العقبات التي ينبغي ان يجدوا لها حلاً مرضياً «قضية الامتيازات»

وكان قد انقضى ثلاثة شهور على المؤتمر ولم ينجز شيئاً واخيراً غضب اللورد كرزون وتوعد ثم ترك القاعة ووقف في المحطة امام قطاره الخاص ينتظر من عصمت العدول عن رأيه والمجيء اليه مهرولاً يقول بانه قد قبل الطلبات التي عرضتها بريطانيا العظمى على تركيا ولكن عصمت لم يأتِ وعاد كرزون بأيديه فارغة

وانحل المؤتمر دون اية نتيجة وعاد الوفد التركي تاركاً لوزان

٥٢
حزب الشعب الجمهوري
واعلان الجمهورية

ذعر كثير من الاتراك وهلعوا عندما رأوا نجاح الحملة على السلطنة . وعزل السلطان وكون الخصوم جبهة متحدة قوية بزعامة رؤوف بك وانصار الملكية الدستورية ، والرجعيين ورجال الدين

وراجت اشاعة بان مصطفى كمال يريد اغتصاب السلطنة والخلافة لنفسه ، وانه يريد تكوين اسرة ملكية هي الاسرة الكمالية ..

وبعد ان تمت الهدنة في مودانيا احتلت الحكومة القومية العاصمة واصبحت هي الحاكمة المسيطرة على شؤون الدولة كلها فكان رؤوف بك حاكم استمبول الحربي يساعده الدكتور عدنان بك ..

وكان فشل مؤتمر لوزان .... والتهديد باستمرار الحرب .... سبباً في القنبلة التي انفجرت في ربيع سنة ١٩٢٣ في المجلس الوطني الكبير فهزته هزاً عنيفاً .... انتهز المعارضون هذه الفرصة ... ولم يكونوا يحلمون بفرصة اسعد منها .... وحملوا على رئيس الجمهورية حملة قوية ، ووجد مصطفى كمال انه يعاني ازمة وان عدد انصاره في تضاؤل مستمر ، بعد ان وفق في خلع السلطان وان السياسة التي اتبعها في مؤتمر لوزان كانت قد فشلت فشلاً تاماً .. وعاد الوطنيون يلومونه لانه اتبع الوحي الفرنسي واوقف الهجوم على استمبول وان هذا كان غلطة شنيعة هو وحده المسؤول عنها واخذوا يذكرونه بالجملة التي قالها : « نستطيع بمساعدة فرنسا ان نعقد صلحاً مع الحلفاء صلحاً عادلاً واني احتفظ بوعدها هذا كشيء ثمين » !

ولما رأى مصطفى كمال تبدل فرنسا في سياستها معه اتصل سراً بلندن ، وتفاهم معها بعد ان وجد انه ينبغي ان يخشى روسيا اكثر مما يخشى انكلترا .... ورغبت بريطانيا العظمى اخيراً ان « تصالح »

تركيا الوطنية الحديثة .. ولكنها قبضت الثمن ... الموصل ! الموصل الذي دفعه مصطفى كمال من قبيل الترضية

واستغرقت المعركة الكلامية البرلمانية تسعة ايام وكان الهجوم فيها على عصمت باشا الذي فشل في مفاوضاته في لوزان ووجد اعضاء البرلمان انهم اذا استطاعوا اسقاط عصمت باشا فسيسقط معه مصطفى كمال ! ... ولكن الذين دبروا هذا الهجوم العنيف لم يحسنوا تنظيم الحملة فكانوا لا يعملون متحدين وتوزعت جهودهم فكان فشلهم بتدبير رباني حتى لا ينطفىء نور الحركة القومية ولا تخمد تلك الجذوة المشتعلة

وصرح مصطفى كمال بأن المجلس لم يعد في ميسوره ادارة شؤون البلاد وان حله من الامور المحتمة التي لا مفر منها .. ولم يكن حله في ظروف كهذه بالامر العسر فنفذ مصطفى ما اراد فوراً

استدعي الوزراء وقادة الحزب ... حزب الشعب ... تليفونيا .. في منتصف الليل .. لعقد جلسة استثنائية مستعجلة ...

وفي اليوم التالي .. في جلسة من جلسات البرلمان حضرها الاعضاء جميعاً اعلن حله وضرورة انتخاب اعضاء جدد !

واخذ يعمل مصطفى كمال على عدم عودة خصومه للبرلمان . وقبل ان ينحل المجلس الوطني الاول كان مصطفى كمال بدأ يكون حزبه الخاص الذي لم يكن يتألف من النواب وحدهم بل اراد ان يكون حزبه هيئة منتظمة تشمل الامة كلها ... هيئة بين الاشتراكية او الشيوعية الروسية و بين الاحزاب البرلمانية الراقية الموجودة في دول اوربا الوسطى

وانتفع مصطفى كمال بالهيئات التي كونها واطلق عليها اسم « لجان الدفاع عن حقوق الاناضول » ، هذه الهيئات التي كانت موجودة في كل الولايات التركية والتي كانت تعمل على الدفاع عن الاستقلال التركي ضد الاجنبي ولكنه استطاع تحويل جهود هذه الهيئات للعمل على تقدم تركيا الداخلي فطاف كل انحاء البلاد اسابيع واخذ يخطب في هذه الهيئات الوطنية و يشرح

للقرو يين الموقف تماماً

ولما تمكن من تأليف الحزب الذي اطلق عليه اسم «حزب الشعب» واضاف فيما بعد — الى هذا الاسم كلمة جمهوري فأصبح يلقب بحزب الشعب الجمهوري .

اما برنامج هذا الحزب فكان يشتمل علَى كل الاعمال التي تمت على يد مصطفى كمال ولكنه لم يشر مطلقاً الى الخطوات التي سيقدم عليها في المستقبل وعندما يتحدث مصطفى عن سيادة الشعب كان حديثه مبهماً غامضاً

ووقف مصطفى كمال يدافع عن هذا البرنامج فقال :

« اني لا أجد من سعة الحيلة ان اضع في ايدي الرجعيين الجهلة سلاحاً لمهاجمتنا او اخلق لهم الفرصة السانحة لتسميم عقول الامة بان اعمد الى ادخال الاصلاحات ، قبل الاوان ، وقبل ان نتأهب العقول لهذه الاصلاحات الجديدة واني على يقين ان الاصلاح سيتم في وقته وان الامة باسرها ستلاقي هذه الاصلاحات بالرضا بل بالامتنان »

وبمعنى آخر جعل مصطفى كمال خصومه الذين كانوا يتخوفون من اصلاحاته يؤيدون برنامجه البعيد عن الضرر دون استسلام للارتياب وكانوا من ناحية اخرى يعلمون ان مقاومة مصطفى كمال لا تعني غير الحيلولة دون دخولهم للبرلمان اذ كانت مقاعد البرلمان محفوظة للاعضاء الذين رشحهم حزب الشعب الجديد .

وفي التاسع من نيسان سنة ١٩٢٣ عادت المفاوضات في لوزان ولكن انلورد كيرزون لم يحضر تلك المفاوضات المستأنفة بل حل مكانه السيرهوراس رامبولد الذي كان حتى ذلك الحين مندوباسامياً في استمبول وكانت هذه الحقيقة وحدها تدل على تبديل في السياسة الانكليزية .

وفي ٢٤ تموز دقت اجراس كاتدرائية لوزان تعلن بجلاء انتهاء المفاوضات وعقد الصلح ! . . . الصلح الذي لم يتم إلا بعد مفاوضات استغرقت خمس سنوات تقريباً

اما الحدود التي عينوها للاتراك فهي التي اكتسبوها عن طريق القتال والتي كانت تتفق مع الميثاق القومي التركي، والقضية التي تتطلب بحثاً هي قضية الموصل .. الموصل الغني بآبار البترول . ومن اجل الموصل رأت انكلترا ان تتفاهم مع تركيا تفاهماً مستقلاً !

كما ان قضية البوغازات المهمة المعقدة قد حلت حلا يتفق مع المصالح الانكليزية فان تركيا كانت قد رأت في نهاية الامر انه حري بها مصادقة انكلترا وتركت حليفتها القديمة روسيا فى ورطتها وكانت المعاهدة التي ابرمت بين موسكو وانقرة تشترط ضرورة الفصل في قضية البوغازات هذه ومعالجتها في مؤتمر خاص ، يمثل الدول التي تهمها هذه القضية

واصبح لتركيا السيادة التامة على استمبول ، والاراضي الساحلية ، مع الاعتراف بمنطقة الحياد والسماح بمرور السفن التجارية والحربية بقيود خاصة

وكان انحياز تركيا نحو الغرب في قضية الدردنيل باعثاً على توتر العلاقات بينها وبين موسكو

وأخذت تركيا تخضع الجماعات الشيوعية التى كانت تبث الفوضى في استمبول وتعمد الى شنق المهيجين واعتبارهم من الخونة

ولكن تشيشرين الرومي لم يكن يرى من الحنكة السياسية ان يتأثر من هذه السياسة او يقابل المقاومة بالمقاومة بل دفعته مهارته لانتهاز فرصة النزاع على الموصل واعاد المفاوضات مع انقرة والاتصال بها

وفي ٢٧ كانون اول سنة ١٩٢٥ امضيت معاهدة صداقة وحياد بين روسيا وتركيا والغت معاهدة لوزان الامتيازات الاجنبية ، ولم تمهل الدول الاوربية اي مدة لتصفية حساباتها كما كانت تريد ، كما انها لم تحدد قوة الدفاع التركية كما جاء في معاهدة سيفر

وترك المسيحيون البلاد وحل مكانهم الاتراك من المسلمين واجريت عملية مبادلة شملت نحو المليونين اضطروا الى تبديل مساكنهم وأمضى معاهدة لوزان اثنا عشر دولة . ولاول مرة في تاريخ اوربا الحديثة تنهزم اوربا امام

دولة آسيوية ونقف خارج ابواب القارة الاسيوية

ولما وجد مصطفى كمال ان الصلح قد تم وان استقلال بلاده قد تحقق اخذ يفكر في اعلان الجمهورية . . . اما الخطوات التي سبقت اعلان الحكم الجمهوري فمدهشة حقًا نسردها فيما يلي :

حدث بعد اجتماع المجلس الوطني الكبير الثاني ان استقال رؤوف بك من رئاسة الحكومة وكان سبب استقالته — الظاهري — الاختلافات الشخصية التي كانت بينه وبين عصمت باشا وزير الخارجية والذي ظهرت براعته في مفاوضاته مع الحلفاء ولكنه استقال في الواقع ليتحرر من قيود الوظائف ولينعش حركة المعارضة ويحييها . وبعد برهة ارسل الى مصطفى يقول :

« لما كنت قد صممت على الاستقالة من رئاسة الوزارة فاني ارجوك رجاء خاصًا ان تحافظ اشد محافظة على اكبر وظيفة في الدولة » فاجاب مصطفى كمال : « اعدك باني افعل ما طلبت مني »

وكان يعني رؤوف بك « الخلافة » وفهم مصطفى كمال انه يقصد الحكم الجمهوري . . . اذ لم يكن يفكر في شيء غير الجمهورية ! . . . وهذا ماجعله بعد هذا الوعد ! . . . .

وحل فتحي بك مكان رؤوف بك فكان يعد اكبر زعيم بعد مصطفى وان كان اقل تطرفًا في مبادئه السياسية منه

ودخل البرلمان الجديد العدد الكبير من اعضاء حزب الشعب الجديد الذي اسسه مصطفى كمال وكانوا يومًا ما من خصومه وبدأوا يظهرون نفوذهم في داخل المجلس . . . وفي الحكومة . . . وانتخب رؤوف بك . . . وكان غائبًا عن الاجتماع نائبًا لرئيس المجلس الوطني الكبير على الرغم من ارادة مصطفى كمال

واختارت المعارضة — وكانت تعمل متسترة في الخفاء احد انصارها وزيراً للداخلية وكانت هذه الوزارة شاغرة في ذلك الحين بناء على القانون الذي كان يسمح لهم بتعيين الوزراء منهم . والغرض الاساسي من هذا القانون

انما كان لتخفيض سلطة مصطفى كمال ٠٠ ولكن مصطفى اوقع الوزارة في ازمة اذ قام بمناورة سياسية لا ضرر منها على البلاد فقد اغرى فتحي بك الذي كان قد تعين رئيساً للوزارة بان يستقيل و يستقيل معه اعضاء الوزارة لتبديل هذا القانون بقانون آخر

اما رئيس الوزارة فقد اعتذر لزملائه بان الحالة تستدعي الاستقالة لانه لا يحتمل السلطة التحكمية التي بيديها اعضاء المجلس الوطني الكبير في تعيين الوزراء ، هذه السياسة التي تعرض اعمال الحكومة للخطر وتشل قواها وتعاهد الوزراء الذين استقالوا على عدم قبول وظائفهم إذا اعيد تعيينهم على ايدي اعضاء المجلس !٠٠٠

و بعد ان نجح مصطفى في هذا الدور تقدم ليمثل الدور الثاني فطلب من اعضاء المجلس ورجاهم بالحاح و بطر يقة ودية ان ينتخبوا اعضاء الوزارة كما ينص الدستور فكانت النتيجة كما توقع ٠٠ عجز المجلس عن تقديم «الطلبية» ولا ينبغي ان يغيب عن اذهاننا ان اعضاء الوزارة المستقيلة كانوا من خيرة رجال انقرة وطنية وعلماً واقتداراً وقد صمموا على عدم قبول تجديد انتخابهم

ولم يجد المجلس مجموعة من الوزراء كالمجموعة المستقيلة٠٠ وليس من ر يب ان اصابع مصطفى كانت تلعب في الخفاء وتعمل من وراء الستار لخلق المتاعب امام اعظاء المجلس وز يادة هذه القضية تعقيداً

ووجد مصطفى ان هذه افضل فرصة لاظهار ضعف خصومه الاقو ياء و كانت الاشاعات رائجة في استمبول بان مصطفى كمال يعمل على انتهاز الفرصة لاعلان الجمهور ية

ودعا مصطفى عدداً صغيراً من اصدقائه المقر بين لتناول الطعام معه في « شانكايا » وكان من بين ضيوفه عصمت باشا وفتحي بك وكاظم باشا الذي اصبح فيما بعد رئيساً للمجلس الوطني الكبير و كمال الدين سامي باشا وعدداً من النواب ٠ وفي اثناء الطعام قال مصطفى كمال فجأة :

« ستعلن غداً الجمهور ية »! ٠ ولا ندري اذا كان هؤلاء الرفاق قد

تظاهروا بالدهشة او لم يتظاهروا . ولكن الذي ندر به انهم قد وافقوا على تاييد مصطفى كمال في هذه الخطوة الجريئة الى النهاية واتفقوا فيما بينهم على البرنامج الذي يتبعونه في يوم اعلان الجمهورية وامضى كل منهم على الدور الذي سيمثله في هذه الدراما الوطنية السياسية

وفي اليوم التالي قبل الظهر عقد الحزب جلسة خاصة تغيب عنها مصطفى وعرض احد الأعضاء اسماء كان من المؤكد انها سترفض . وقد رفضت فعلا . واستمرت المناقشة في هدوء واتجهت الى ناحية معينة فتقدم كمال الدين سامي باشا وقال انه ينبغي ان يترك الامر لمصطفى كمال فهو رئيس هذا الحزب ، فقوبل هذا الاقتراح بعاصفة من التصفيق !

واستدعي مصطفى كمال وكان في ذلك الحين في شانكايا فطلب ان يمهلوه ساعة لمشاورة اخوانه ، ثم اعتلى منصة الخطابة والقى خطبة وجيزة قال فيها :

« ان الداء الذي تشكو البلاد منه انما هو نتيجة فساد نظام الحكم ولقد ايقنتم انه من المستحيل تكوين وزارة متى كان كل نائب منكم يريد ان يكون وزيراً او يحاول املاء ارادته على غيره من الاعضاء ليكون اقوى نفوذاً واكثر هيبة . وعلى هذا فاني اري ان السبيل الوحيد لانتشال البلاد من الورطة التي وقعت فيها ان نفكر معاً في قانون جديد يحل مكان هذا القانون القديم الذي اوقعنا في هذه الحالة السيئة ثم اقترح اعلان الحكم الجمهوري . وعرض الاقتراح للتصويت ! على ان تكون رئاسة الجمهورية لمدة اربع سنوات وان يعاد انتخاب رئيس الجمهورية اذا ظل يحتفظ بثقة الامة به ، وان يكون رئيس الجمهورية هو الذي يعين مجلس الوزراء ويختار رئيس الوزراء اعضاء وزارته على ان يعرض هذه الاسماء على المجلس للموافقة النهائية »

واخذ الاعضاء يظهرون تخوفهم من هذه الخطوة الجريئة ولكنهم وجدوا انهم امام الامر الواقع وان هذا الهجوم الفجائي قد نجح نجاحاً تاما .. وبعد مناقشة صورية وافق الاعضاء على الحكم الجمهوري .. واستقرت الحالة على ان يكون الاسلام دين الدولة وان يكون مصطفى كمال رئيساً للجمهورية التركية

٥٣

الغاء الخلافة وابعاد العائلة المالكة

بعد ان تحولت الدولة الى جمهورية كان من الضروري ان يبت في قضية الخلافة · ووجد الخصوم الذين لم يرتاحوا لاعلان الجمهورية ولم يطمئنوا لازدياد قوة مصطفى كمال ان الامل الوحيد في التخلص من هذه الحالة انما يكون عن طريق مهاجمتهم لمصطفى كمال من ناحية الخلافة · وامرع رؤوف بك ··· والدكتور عدنان بك ·· ورفعت باشا ·· وكاظم قره بكير وعلي فؤاد باشا الذين اصبحوا خصوم مصطفى، علناً ، بعد ان كانوا يكيدون له سراً لزيارة مولاهم الخليفة ليعلموا العالم كله انهم ما زالوا على ولائهم لجلالته

واخذت الصحف التي تصدر في استمبول تقاوم الحكم الجمهوري علناً ووجد مصطفى كمال انه من الضروري ان يعمل على الغاء الخلافة قبل ان يصبح فيضان المعارضة السياسية والدينية جارفاً يكتسح السد المحكم الذي بناه وعلى الاخص لان الخليفة كان موضع احترام ٣٥٠ مليون نسمة من المسلمين الذين يقيمون في ممالك متعددة وهو لا يعتمد الا على الاتراك الذين كانوا لا يزيدون عن اربعة عشر مليوناً

وارسل السلطان عبد المجيد خطاباً باسم سكرتيره الخاص ، للوزارة طالباً منحة اضافية تضاف لراتبه ليستطيع القيام بواجباته واشتكى من اهمال الحكومة شأنه وعدم عنايتها به ، فاجاب مصطفى كمال بشدة حاسمة : بل يعد في منتهى الشدة قال فيه :

« ان الخليفة يريد ان تكون هناك مداخلات خاصة بينه و بين الحكومة وان يكون على وفاق خاص معها وفي هذا ما فيه من الاعتداء على النظام الجمهوري الذي عانينا كثيراً حتى توصلنا اليه

هذا فضلاً عن ان وظيفة الخلافة ليست لها قيمة مادية او سياسية ولا مبرر لوجودها ٠٠٠ إلا كأثر من آثار الماضي المظلم

وعلى كل فان المبلغ الذي عين للخليفة وان كان اقل من المبلغ الذي عين لرئيس الجمهورية الا انه ينبغي ان يقنع به فهو غير مضطر لاقامة الولائم ولا يحتاج لمظاهر الابهة التي تتطلب نفقات باهظة بل من وظيفته ان يعيش معيشة بسيطة وان احتفاظه بجيش من السكرتيرية والموظفين انما يجعله يتصور انه لا يزال يحتفظ بقوته التي كان يتمتع بها في عصور الجهل

وفي اول آذار اجتمع المجلس الوطني ، وكانت جلساته قد تعطلت عدة شهور بعد اعلان الجمهورية وكانت تدور الخطبة الافتتاحية حول ضرورة القضاء على الخلافة

واخيراً استطاع مصطفى كمال ان يفوز في ايام بالنتائج التي لم تتوصل اليها اوربا إلا بعد حروب مائة سنة ، فصل الكنيسة عن الدولة ٠٠٠ او الخلافة عن الدولة ٠

اجل ٠٠ في اليوم الثاني وافق المجلس الوطني في الساعة السادسة ونصف صباحا على الغاء الخلافة بعد جدال استغرق ساعات الليل كلها

وطلب من الخليفة وافراد اسرته مغادرة البلاد في مدة عشرة ايام وحرم عليهم الاقامة في تركيا والغيت كل الوظائف الدينية واصبحت اوقاف المسلمين ملكاً للدولة ٠٠ كما ان المدارس الدينية تحولت الى مدنية وباتت تحت رقابة وزارة المعارف

وفي ٤ منه ترك عبد المجيد استنبول ، و بعد رحيله بعدة ايام سافر ٣٠ اميراً واميرة من امراء البيت المالك العثماني الى اوربا في اكسبريس الشرق لينضموا الى القياصرة والملوك والامراء والاميرات الذين كانوا في المنفى

وقد اثارت قضية الخلافة اهتمام العالم الغربي بل كان اهتمام الغربيين يفوق ما بدا من المسلمين انفسهم ٠ وكان الهنود يؤيدون الاتراك في نهضتهم الوطنية و يدافعون عن قضيتهم في انكلترا لهذا كان احتجاجهم شديداً على

الغاء الخلافة . و بذلت الجهود الكثيرة لجعل مقر الخلافة الجديد الحجاز .. او مصر .. ولكن ضاعت هذه الجهود عبثاً

وألح اعضاء المجلس على مصطفى ليقبل ان يقيم نفسه خليفة وليجيب اماني الممالك الاسلامية وكان من السهولة بمكان لمحرر تركيا ان يكون خليفة وما من احد يستطيع ان يتكهن عما كان يحدث لو كان قد احتفظ بالسلطنة او الخلافة لنفسه .. ربما كان قد فشل فشلاً تاما بعد ان نجح نجاحا تاما ولكن مصطفى كمال غير نابوليون .. كان يقدر كل شيء .. ويحسب حسابا لكل شيء ! ..

وهاك ما كان يقوله للوفود الاسلامية التي كانت تلح عليه الحاحا شديداً في قبول الخلافة :

«انكم تعلمون ان الخليفة حاكم الدولة الاعلى فكيف يمكن ان اوافق على اماني واقتراحات الدول المحكومة بملوك وقياصرة .. ان اوامر الخليفة ينبغي ان تطاع طاعة تامة فهل الاشخاص الذين يطلبون مني ان اكون خليفة على استعداد لتنفيذ اوامري ؟ او ليس من المضحك ان ألبس ثوبا اوسع من جسمي ؟ او ليس من المضحك ان نتعلق بشيء خيالي كالخلافة لا معنى له ولا مبرر لوجوده

٥٥
ما بعد الخلافة

بعد ان قضى مصطفى كمال على الخلافة صرف جهده نحو تنقية الجيش وتطهيره، وابعاد رجاله عن السياسة فاجبر كاظم قره بكير وعلي فؤاد باشا على الاستقالة ومنذ ذلك الحين تمكن مصطفى كمال من وضع الجيش في جيبه واستعان به في تدعيم نظام الحكم الحديث الذي اختاره لتركيا الحديثة

لكنه رأى ان سلطته كانت ضعيفة من ناحية اخرى فهو لا يحق له حل البرلمان واجراء انتخابات جديدة كما انه قيد بقيود جعلته يحاول دائماً الاحتفاظ

باغلبية في المجلس تؤيده . وقد بقي زعيما لحزب الشعب بعد انتخابه .. وطلب منه بعض اعضاء البرلمان الاستقالة من رئاسة الحزب لان رئيس الجمهورية ينبغي ان يكون فوق الاحزاب ، فخطب خطبة جاء فيها :

« ينبغي ان يفهم الاتراك انه لا يجوز لهم ان يخاطبوني في موضوع التخلي عن رياسة حزب الشعب ووقوفي على الحياد ، لان مركزي يضطرني ان اكون فوق الاحزاب . اني اصرح باني اؤيد الحكم الجمهوري بكل انواع التأييد وان حزب الشعب في عقائده جمهوري . حزب الشعب هو الذي يصون التقدم العقلي والاجتماعي ولا اظن ان هناك اي تركي لا يريد تقدم البلاد عقلياً واجتماعياً إذن فكل الامة معنا وان حزب الشعب انما هو الامة بأسرها و برنامجه هو برنامج الامة كلها وانه ليزيدني شرفاً ان أظل رئيساً لحزب الشعب ورئيساً للجمهورية ... هتاف ... »

وكانت هذه الخطبة سبباً في انشقاق الحزب وقيام حزب التقدم الجمهوري الذي كانت تؤيده صحف استمبول كلها

وكان زعماء هذا الحزب المنشق هم رؤوف بك وكاظم قره بكير وعلي فؤاد ورفعت باشا والدكتور عدنان بك وغيره من الشخصيات السياسية والحربية المعتبرة ، وكانوا قد قطعوا علاقتهم بمصطفى كمال بعد ان رأوا انه قد قضى على الخلافة ، وطرد اعضاء الاسرة المالكة ، ... بعد التأكيدات التي قدمها لهم ...

وثار الاكراد واستطاع مصطفى كمال ان يخضعهم بصعوبة وقد انزل العقوبات الصارمة على الذين نجوا من القتل ووقعوا في الاسر من الزعماء وتمكنت السلطات من القبض على الشيخ سعيد وكان هارباً وسط الجبال فشنقته في حي من احياء أنقرة الكبرى ... وهدأت الثورة في الظاهر ولكن الاتراك كانوا يعملون في الخفاء ولم تهدأ الثورة حقيقة الا بعد مدة تقرب من سنتين

واضطر عصمت باشا في نهاية الامر ان يلجأ الى تدابير مخففة واخذ

بطبق سياسة فتحي بك التي كانت قائمة على التوفيق وحتى الوقت الحاضر لم تنمح العداوة التي بين الاكراد والاتراك

واخذ مصطفى كمال يعمل على اصلاح البلاد الاجتماعي وكان هذا محك الثورة والغرض الاسامي منها

ولما كانت البلاد تحت الحكم العرفي كان من الهين ادخال نظم المعيشة الاوربية العصرية في مدى قصير وهذا ما يعترف به مصطفى ولا ينكره ولكنه يقول ايضاً :

« كان بامكاننا ان نسير في الاصلاح دون حاجة الى هذا القانون العرفي »

وخطب مصطفى كمال خطبة ضافية عن الاصلاح جاء فيها :

« ان الامم التي تشبثت بعقلية القرون الوسطى مصيرها الاختفاء من وجه الارض . ينبغي ان يتخذ التركي عن الاوربي مظهره الخارجي وان الثياب الاوربية هي دولية فينبغي ان نلبسها وسنقضي على الطربوش ونحرم لبسه تحريماً تاماً بل سنعاقب من يلبسه اشد عقوبة . ثم نستعيض عنه بالقبعة ، اذ ليس في القرآن الكريم ما يشير الى غطاء رأس خاص »

ولم يلق مصطفى كمال من المعارضة عند اعلان الحكم الجمهوري ، وعزل السلطان وطرد الامرة الحاكمة ، بل حتى عندما الغى الخلافة مثل ما لاقي عند ما حض الشعب التركي على ارتداء القبعة .. اجل كانت القبعة في نظرهم ترمز للكفر فاثارت عاصفة من السخط وعلى الاخص في الاقاليم الشرقية التي لم تكن قد تأثرت بعد بالافكار الاوربية ونجح رجال الدين لاول مرة في اثارة الشعب وتحريضه على العصيان والتمرد

ومن المؤكد ان الايدي الشيوعية كانت تلعب من وراء الستار وزادت الاضطرابات الى حد خطر في الاقاليم الشرقية ولكن حركتهم قد قمعت بلا رأفة ونشطت المحاكم الثورية فحكمت على عدد كبير في ارضروم وطرابزون وغيرها بالشنق او بالسجن

وخطر لنور الدين باشا وهو من انفع القواد الذين اسدوا خدمات جليلة

لتركيا ومن المسلمين المخلصين للحد الاقصى ان يعترض في المجلس الوطني الكبير على ارتداء القبعة .. وكانت جملته

«ان اجبار التركي على ارتداء القبعة اعتداء على الحرية الشخصية التي كفلها الدستور» فوقف من يرد عليه بانه انما يعمل للدعاية لثورة جديدة كأن البلاد لا يمكن ان ترتاح من الثورات ، واتهم بخيانة الدولة وحرم من كرسيه في المجلس عقاباً له

ولم يوفق مصطفى كمال في زواجه العصري فان لطيفة هانم قد بقيت معه ما يقرب من سنتين تشترك في ادارة شؤون البلاد اشتراكاً فعلياً وعلى الاخص حركة الاصلاح الاجتماعي وتحرير المرأة . ولم ترزق بنسل .. وحاولت ان توسع نفوذها على حساب الغازي بل كانت تريد ان تتحكم في كل اموره ، فلم يكن من الطبيعي ان يوفقا في الزواج لعدم رضوخ الزوجة او الزوج .. حاولت لطيفة هانم ان تقيده كما كانت تفعل في ازمير يوم كانت تحرمه من كل شيء ترى انه ضار بصحته .. وكان هذا هو السبب النهائي للفراق . وكما اجريت عادة زواجه في سرعة البرق تم الانفصال في سرعة البرق ايضاً

طبق مصطفى كمال القانون المدني السويسري دون تعديل ، والغى نظام تعدد الزوجات فاصبح مقام المرأة وعقود الزواج ، والطلاق والحياة المدنية العامة كلها ملائمة للحياة العصرية

وطبق القانون الجنائي الايطالي .. والقانون التجاري الالماني واهتم بالطيران واللاسلكي واستبدال الحروف التركية باللاتينية ، بعد ان وجد انها هي السر في تأخر الاتراك العلمي . بحيث كان الطفل التركي في حاجة الى ست سنوات قبل ان يتعلم القراءة والكتابة ، واضطر الرجال والنساء لدخول المدارس الليلية واجبر مصطفى كمال كل رجل وامرأة دون ٢٤ سنة على تعلم الحروف الجديدة

وحاول المجرمون اغتياله في ازمير سنة ١٩٢٧ وكانت هذه المدينة تنتظر قدومه وقبل اليوم المعين للسفر اعلم احد الصيادين البوليس بان ثلاثة اشخاص

قد قدموا له مبلغاً كبيراً من المال اذا كان يحملهم في قارب صغير الى جزيرة شايوس اليونانية في ساعة معينة

وقبضت السلطات على هؤلاء الثلاثة المشتبهة فيهم وفتشوا فوجدوا انهم يحملون قنبلة اتخذوا الاحتياطات لقذفها من طابق ارضي من دار كان سيمر مصطفى كمال امامها في عربته

ومن الواضح ان هؤلاء الجناة قد استأجروا لاقتراف هذه الجريمة وثبت ان خورشيد بك احد اعضاء المجلس الوطني الاول .. وقد اعترف .. هو الذي دبر هذه المؤامرة واحكم حبكها وتدبيرها وانه كان رئيسا لجمعية سرية الغرض منها اغتيال مصطفى كمال وسمى خورشيد اعضاء الجمعية فقبضت السلطات على مائة شخص كانوا جميعا من زعماء جمعية الاتحاد والترقي التي اضطهدها مصطفى كمال وحوكموا فى ازمير ومن بينهم كاظم قره بكير باشا وعلي فؤاد باشا .. ولكن لم تثبت التهمة عليهما وثبتت براءتهما فقابل الذين حضروا هذه المحاكمة البراءة بالهتاف ولم يحكم من المائة الا على خمسة عشر من بينهم احد الباشوات وثلاثة من الوزراء السابقين وعدد من اعضاء المجلس الوطني الاول وعارف بك وحكمت محكمة انقرة على جاويد بك وهو من وزراء المالية المعروفين في وزارة طلعت باشا والدكتور ناظم بك وهو ممن اسسوا جمعية الاتحاد والترقي ونايل رئيس المجلس النيابي سابقا وثلاثة من الساسة وحكمت على رؤوف بك والدكتور عدنان

ثم هدأت العاصفة بعد ذلك وحل السلام في نهاية الامر فألغي الحكم العرفى ، ومحاكم الاستقلال ، واتبعت الطرق الديمقراطية العادية

وسيترك مصطفى كمال تركيا بعد عمر طويل وقد انطبع الشعب التركي بالطابع الكمالي حتى ان خصومه ألقوا السلاح ، واعترفوا له بمواهبه الفذة وسلموا اخيراً بان الخطوات التي قام بها والتي كانت صارمة احياناً كانت لخير البلاد وسعادتها

وفي وسط قصور السلاطين السابقين اقام الشعب التركي لمعبودهم مصطفى

كمال تمثالا ينطق بولائهم له وسط الحدائق التي حولت الى مقاصف ٠٠ في مكان يعد من اجمل الاماكن في العالم كله

والحقيقة ان الجهود التي بذلها مصطفى كمال لا تقل عن جهود بطرس الاكبر ٠٠ اسس للاتراك عاصمة جديدة في آسيا الصغرى يحق لها ان تتباهى بها. جفف مستنقعاتها بعد صعوبات لا حد لها ٠٠ اوصل المياه اليها من التلال القاصية وشيد ابنية جميلة للحكومة ٠٠ ومصارف ضخمة ٠٠ وفنادق ومدارس وكليات من الطراز الاول

واننا نختم هذا الكتاب بهذا الحديث الذي ادلى به مصطفى كمال عن الوحدة الاسلامية ، قال :

« عندما تشعر الامم الاسلامية بضرورة الاتصال ببعضها ، ستعمد حالا للاتفاق فيما بينها للدفاع عن حقوقها المشتركة ٠٠ عندئذ يمكن ان تحقق فكرة ايجاد الولايات المتحدة الاسلامية وعندئذ يمكن ان يكون في هذه الولايات المتحدة الاسلامية خلافة ، والرئيس الذي تنتخبه هذه الولايات المتحدة الاسلامية يحق له ان يلقب بخليفة »

اجل ، هذه الروح الوطنية هي التي جعلت مصطفى كمال ، محرر تركيا ومنقذها يتمتع بمكانة لم يتمتع بها تركي آخر ٠٠ وليس اجمل من الجملة التي يرددها مصطفى في كل مناسبة

« سأظل اخدم امتي باخلاص لآخر دقيقة من عمري ! »

تم الكتاب

Bibliotheca Alexandrina
0402752